

سليمان مظهر

أطلال من الغرب



دار الشروق

اَظْلَمَ مِنَ الْغَرْبِ

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيدي سيدي - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٠٢٣٣٩٩٠ - فاكس: ٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣

فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

سليمان مظهر

أطليق من العرب

دار الشروق

حقيقة الخرافة في الأساطير

هل يستطيع المرء أن يقدم كتابا عن الأساطير دون أن يخلط بينها وبين شقيقتها في علم دراسة «التقاليد»، وهما: «الفولكلور» و«الحكايات القديمة»؟

لاشك أن هناك فارقا كبيرا بين كل من هذه الألوان الثلاثة .

فالأسطورة عادة هي قصة الأعمال التي يقوم بها أحد الآلهة - في العقائد القديمة - أو إحدى الخوارق الطبيعية من الأبطال . . . تبدو فيها محاولات الإنسان لتفسير علاقاته بالكون والعالم، أو تفسير وجود بعض العادات والنظم الاجتماعية أو الخصائص المميزة للبيئة التي يعيش فيها خالق الأساطير نفسه . وهي في هذه الحالة تنطوي على فهم ديني معين بالنسبة للشعب الذي رواها .

والفولكلور ، أو القصص الشعبي ، يروى تراث البشرية في أطوارها الأولى من عادات وعقائد ، وقصص ، وفن . . . في حكايات بدائية لها أصلها الأسطوري دون شك ، ولها أيضا قيمها الفنية والجمالية الخاصة . أما الحكايات القديمة ، فهي قصص وقعت أحداثها في أماكن حقيقية ، وتتعلق في الغالب - وإن لم يكن دائما - بأشخاص حقيقيين .

العقائد والعادات

هذه هي في الواقع الفروق بين الأسطورة وغيرها من الحكايات . . وهي فروق يمكن تلخيصها بأن الأسطورة دراسة للصور البدائية الأولى للدين ، وبأن غيرها من الحكايات الشعبية القديمة دراسة للعقائد والعادات البدائية التي مازالت تمارس حتى اليوم .

وفضل هذه الألوان مجتمعة أنها تقدم لنا صورا من التفكير القديم فيما يتصل بالدين أو بالعقيدة أو بالتقاليد أو بالبطولة والخيال . وقد قدمت من قبل لقراء « دار الشروق » مزيجا من هذه الألوان في « أساطير من الشرق » . وأقدم اليوم مزيجا آخر منها في « أساطير من الغرب » . وكانت الطبعة الأولى قد صدرت من قبل عن « كتاب الشعب » أفقد صدرت عن « الدار القومية » .

الأساطير والدين

وأحب أن أناقش هنا ما أثاره البعض عن الخرافات في أساطير القدماء . ومناقشة هذه الخرافات تجعلنا نتساءل أولا : ما حقيقة العلاقة بين الأساطير والدين ؟

الواقع أن علوم الأساطير والأديان المقارنة ، تنطوى على ألوان كثيرة من الدراسات . والأديان المقارنة فرع من العلوم الدينية أو الفلسفة ، في حين أن علم الأساطير يبحث في الأساطير وحدها ، وبخاصة الأساطير المقارنة ، أى أنه يقارن بين الأساطير الخاصة بالأجناس المختلفة . وفي الأساطير أيضا نسمع عن مولد الآلهة وطبيعتها ، وخلق الأرض ، والأسباب البدائية التى دعت لإقامة الطقوس الدينية . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن الأساطير جزء من العلوم الدينية .

وهذا قول يقودنا إلى التساؤل : ماهو الدين ؟

إن الإجابة على هذا السؤال شائكة تثير القلق والحيرة ، وهو سؤال طالما حظى باهتمام الفلاسفة خلال أزمان طويلة ، ومازالت المحاولات العلمية لتعريفه والإجابة عليه عاجزة عن البت برأى قاطع فيه . . . لأن أصل الدين وطبيعته يجب أن يستدل عليهما من طريق علم النفس .

لقد عرف الدكتور ا. ب . تيلور الدين بأنه « الإيمان بكائنات روحية » . ولكن هذا التعريف لا يتضمن طريقة إقامة الشعائر الدينية التى عدها روبرتسون سميث أهم مظهر للأديان البدائية ، ويليها فى الأهمية المذهب والأسطورة . أما السير فريزر فيقول إن الدين « عملية استرضاء أو استعطاف لقوى أعلى من الإنسان » . أما كراولى فيقرر أن كل ما له علاقة بالدين فهو مقدس . وهيربرت سبنسر رد الدين إلى عبادة الموتى . وقال ماكس مويلىر : « إن الدين يتضمن الإدراك الحسى اللانهائى بصورة من شأنها التأثير فى الشخصية الأخلاقية للإنسان » .

والحقيقة أن الذهن البشرى لم يستطع حتى اليوم أن يقدم تعريفا نهائيا لكلمة « الدين » .

الأفكار القديمة والحديثة

أما الأساطير بشكلها الحقيقى - والتى تعتمد أيضا على الأديان المقارنة - فهى تفسر الآلهة والبشر والكون والعادات ونظم المجتمع ، وكثير منها فى الواقع محاولات للتوفيق

بين قصص الآلهة والأبطال وبين الأفكار الدينية التي لها عند الناس قداسة خاصة . ولم تستطع الأساطير - على الرغم من هذه المحاولات - أن تتجنب الأفكار المليئة بالخرافة التي توارثتها الأجيال البدائية جيلا بعد جيل ، ولم تعد تتناسب والأفكار الدينية التي ظهرت فيما بعد ، برغم محاولات الكهان والشعراء والأدباء شرحها وربطها بالأفكار الحديثة .

ومن هنا نجد أن اليونانيين كانوا يعدون القصص الخاصة بمعارك الآلهة « غير مناسبة » ، وإن راحوا يقدمونها باعتبارها تعبيرا رمزيا عن الصراع بين المبادئ . ويقول بلوتارخ : « إن المصريين كانوا في غاية الحيرة لأن كثيرا من آلهتهم كانوا يرسمون في صور حيوانات ، وكان يقال في تفسير ذلك إن هؤلاء الآلهة يتجسدون في هذه الصور في حالة الخطر » .

وقد حاولت الشعوب - بعد أن تقدمت في الحضارة - أن تظهر أساطيرها الوطنية أو القبلية من النعمة الخرافية التي كانت مسيطرة عليها .

ويبدو من المؤكد أن الأساطير الخاصة بالحضارات الأكثر رقيا قد مرت كلها ، قبل أن تصل إلينا ، بهذه المراحل من التهذيب والتنقيح ، وذلك على يد الشعراء أو الكهنة أو الفلاسفة الذين كانوا يتلهفون لتحرير أجناسهم من تاريخها القديم .

أجنون أم طفولة عقلية ؟

يقول ماكس مويллер إن العنصر الخرافي ، وغير المنطقي في الأسطورة ، نشأ في «فترة من فترات الجنون المؤقت ، كان يتحتم على العقل البشرى أن يمر بها» . وتساءل بعد ذلك : « هل كان هذا الجنون في أمريكا مثلا ، يطابق تمام المطابقة الجنون نفسه الذي كان في جنوب الهند وشمال أيسلندا؟ » .

والواقع أن هذه الحالة الذهنية ، أو الموقف الذهني ، كانت وما تزال حالة مشتركة بين البدائيين في كل مكان . أما الجنون ، فليست له أى علاقة بالتكوين الذهني للإنسان البدائي بالرغم من أنه قد لا يكون تام العقل . ويبدو أن الأمر اختلط على مويллер ، فخلط بين الجنون من ناحية ، وبين استعداد البدائيين وقابليتهم للذين يشبهان قابلية الأطفال للهوس والغرور والجهل واستعدادهم لتحريف الحقائق والتجارب . والحقيقة أن الخرافات وسذاجة الأفكار التي قد تبدو في كثير من أساطير

البدائيين ، تعود إلى قلة رصيدهم من الأفكار المكتسبة ، ونقص خبرتهم ، مما جعلهم يسيئون استعمال القوى العقلية .

وإذا أردنا التحديد فإننا نقول : إن الإنسان البدائي فسر حقائق الكون بخياله أكثر من تفسيره لها بعقله . وهو في هذه الحالة التي يكون الخيال فيها أقوى من العقل ، يعد في حالة طفولة عقلية . وهكذا تصور أن كل الأشياء المادية في الطبيعة - شأنها شأنه - قد أعطيت موهبة الحديث والإرادة والتفكير . وهذا ما يسمى « بالأنيمية » ، أى الاعتقاد بأن الأشياء كلها لها روح . وهو طبقا لهذا المذهب يعتقد أن الرياح والمياه تتكلمان وتتحركان ، وأن الأشجار تنطق في وضوح ، وينظر للحيوانات السفلى على أنها متكافئة معه من حيث المستوى .

حياة كل يوم

إن الخوارق والمعجزات التي تتضمنها أساطير الإنسان البدائي - أو على الأقل الذى لم يتطور بعد مع تطورات الحضارة الحديثة - ليست غريبة بالنسبة إليه . . . بل إن أساليب الحياة البدائية ، والبيئة غير الحضارية التي نجدها في الأساطير القديمة والتي تبدو بالنسبة لنا غريبة مليئة بالخرافة ، لاتعدو أن تكون بالنسبة للإنسان البدائي تجارب عادية في حياة كل يوم .

إن هذه الأساطير عادية جدا بالنسبة له ، وإن كانت بالنسبة للأجيال التالية - وخاصة المتقدمة منها حضاريا - غير مفهومة ، ولامستساغة . وقد تعد ما في هذه الأساطير من أشياء غريبة كفرا وهراء وهى لاتدرى أن ثمة معانى أصيلة لها كلها .

الآلهة والحيوانات

إن قصة مولد الإله « زيوس » في الأساطير الإغريقية ، تعد مثالا بارزا لانتشار العنصر الخرافى بصورة واضحة في القصص الأسطورية لشعب راق يمتاز بموهبة شعرية كشعب الإغريق . ففي هذه الأسطورة بالذات يبدو العنصر الخرافى واضحا للغاية . وهناك عدد كبير من الأساطير في جميع أنحاء العالم يظهر فيها ذلك العنصر واضحا . ولكن الحقيقة أن حوادث كل أسطورة وتفاصيلها هى التى تصور أصلها البدائي . فالقصص الخاصة بالآلهة الذين يتنكرون في صور حيوانات ، يرجع أصلها إلى ذلك العصر الذى كان الناس يعبدون فيه آلهة على هيئة حيوانات .

وقد كان الإنسان البدائي ، لأنه يعيش في صراع دائم مع قوى الطبيعة ، يتصور أن

آلهته أيضا يعيشون في صراع دائم مع العماقة والوحوش ، أو يتصارع بعضها مع بعض ، وكان يتصور أنهم - مثله تماما - يمكن أن يغتصبوا زوجات الآخرين ، وأن يكونوا بلا أخلاق في بعض الأحيان ، وأن يتصفوا بالشراسة والجبن في أحيان أخرى .

وإذا نظرنا إلى الشعوب الإغريقية مثلا ، وجدنا أنها كلها تقريبا كانت تعبد الأصنام في أولى مراحل حياتها . ولهذا ظلت عقائدهم فيها بعد مشوبة بقدر من الخرافة . فهوميروس مثلا يتحدث عن الربة أثينا فيصفها بأنها « ذات عين كعين البومة » فهل معنى هذا أنها كانت في وقت معين تعبد على أنها بومة ؟ لقد كان الآلهة في الإلياذة يشبهون البشر في ميولهم ونزعاتهم . وكانت لديهم القدرة على التنكر في صور حيوانات ، وهو نفس ماعكس به هوميروس أفكار الإغريق في عصره .

التفكير العلمي البدائي

هذا هو التفسير الديني للخرافة في الأساطير . على أن الأساطير لا تفسر العنصر الديني فحسب ، ولكنها تفسر أيضا - أو تحاول أن تفسر - الأفكار العلمية البدائية .

فالواقع أن الرغبة الفضولية في معرفة أمور الحياة ، جعلت الإنسان متعطشا دائما إلى المعرفة ، وإلى تنشيط إدراكه العقلي .

يقول الدكتور تيلور في كتابه « الحضارة البدائية » : « حين كان ذهن الإنسان في المرحلة الأسطورية يعجز عن تفسير أية ظاهرة ، ولا يجد لها سببا مقنعا ، كان يخترع أية قصة لكي يبررها ويفسرها » .

ونجد مصداق هذا القول في كل الأساطير البدائية . فمعظم هذه الأساطير ليس إلا محاولة لتفسير ظواهر معينة ، وللإجابة على أسئلة غامضة مثل : ماهو أصل هذه الظاهرة أو تلك ، وماهو سببها ؟ . كيف خلق العالم والإنسان ، وكيف أصبح على ماهو عليه الآن ؟ كيف تكونت هذه العادات والأوضاع والطقوس ؟ ماهو السبب في تعدد ألوان الحياة ؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة هي التي أدت إلى وجود الأساطير . . . بل إنها أدت إلى وجود العلوم . صحيح أنها كانت علوما بدائية ، إلا أنها على أية حال كانت علوما . ذلك أن من أهم وظائف العلم تنوير الإنسان ومساعدته على إدراك طبيعة الأشياء والقوى المحيطة به وأسبابها وآثارها . وهذا ماوضحته الأساطير ، وإن لم تكن وسيلتها في الإجابة عليه علمية ، بل اتخذت أسلوبا قصصيا في كشف الستار عنه . ومع هذا

فمجرد وجود هذه الإجابات يعنى ضمنا أن ثمة أسئلة قد أثرت ، وأن محاولات قد بذلت للإجابة عليها . ومن البديهي أن الإجابات لايمكن أن توجد بدون أسئلة .

هذه هى الحقيقة

هكذا نستطيع أن نقول ، كما قال الدكتور لانج : « لقد كان الناس فى العصور القديمة يؤلفون قصصهم تبعا لنظرتهم الخاصة للأشياء ، وأسلوبهم فى تفسير الأمور . وهذا وضع طبيعى ، لأنهم لم يكونوا يفكرون على أساس المبادئ التى يضعها الباحثون فى العصر الحديث أمامهم عند تفسيرهم لهذه الأمور » .

يقول الدكتور مويلر : « إن الإنسان البدائى ، لم يكن يفكر كما نفكر نحن ، بل ولم يكن يفكر بالطريقة التى نتصور نحن الآن أنه كان يفكر بها أيضا » .

وهذه هى الحقيقة . . التى يستطيع القارئ أن يكتشفها من خلال الأساطير والحكايات الشعبية التى أقدمها فى هذا الكتاب .

سليمان مظهر

أسطورة إغريقية أبوللو رب الشمس

قصة الآلهة كما تصورها اليونان القدماء هي أن أقدمهم اثنان : « أورانوس » السماء ، وزوجته « جى » الأرض وأكبر أبنائها « تيتان » ثم « ساتورن » ثم « كرونوس » ، وكانت جى تفضل ابنها الثانى « ساتورن » على أخيه الأكبر « تيتان » فأخذت تملق « تيتان » ليرضى بالتنازل عن العرش لأخيه . . ولكن تيتان اشترط لقبوله التنازل أن يتعهد « ساتورن » بأن يتلع كل طفل ينتجبه حتى لا يكون له نسل . ووافق « ساتورن » ، وقبل أن يدفع الثمن خاليا مقابل أن يفوز بالعرش .

إلا أن « ريا » ، زوجة ساتورن ، هالها أن يقتل زوجها أبناءها وهم فى المهد ، ففكرت فى حيلة تنقذهم ، وعندما جلس « ساتورن » على مائدة العشاء ، وهتف طالبا أبناء الثلاثة : « زيوس » و « نبتون » و « بلوتو » ليتلعهم . . أنت إليه بثلاث صخور كبيرة ملفوفة فابتلعها وهو يحسب أنه ابتلع أبناءه ، فى حين أرسلت هى الصغار الثلاثة إلى بعض أصدقائها لإخفائهم .

وعلم « تيتان » بما كان ، فأعلن الحرب على أخيه « ساتورن » وزوجته « ريا » ، وطردهما إلا أن « زيوس » أكبر أبناء « ساتورن » استطاع بعد ذلك أن يحارب عمه تيتان ، وأبناءه العملاقة ، ثم استولى على عرش أولمب ، وأصبح أقوى الآلهة . يحكم السموات والأرض ، وجعل أخاه « نبتون » إلها على البحار ، و « بلوتو » ملكا على العالم السفلى .

فوق قمة أولمب ، وعلى عرش رائع من ذهب . . . جلس رب الأرباب « زيوس » - أقوى الآلهة ، وحاكم الأرض والسماء - فى لحيته الوقور ، وبإحدى يديه مزراق الصاعقة ، وباليده الأخرى صولجان الملك الكبير .

وإلى جوار رب الأرباب كانت زوجته « هيرا » ، تشاركه الملك العظيم ، وتفرض سلطانها على الجميع لقربها من حاكم الأرض والسموات ، وتتدخل فى كل شىء .
من فوق هذا العرش حكم « زيوس » العالم كله ، بعدما قضى على أعدائه من أبناء

عمه « تيتان » الرهيب ، بأن أرسل عليهم سهامه المدمرة التى صنعها « السيكلوب »
أمهر الحدادين العمالقة ذوى العين الواحدة فى وسط الجباه . . . الذين كانوا يوقدون
النيران فى جوف الأرض ، ومن أفرانهم تنطلق أعمدة رهيبة من النيران والدخان تقذفها
البراكين .

وكان « زيوس » خليقا أن ينعم بتلك الحياة . . . إلا أن زوجه « هيرا » التى تشاركه
عرش الأولب ، ملأت نفسه سأمًا مريرا ، بطباعها السيئة وخلقتها البغيض ، وعنادها
الذى لم يكن يقف فى وجهه شىء .

ولم يجد « زيوس » العظيم - فرارا من حقد زوجته ، ومقتلها - بدا من أن يحاول الهرب
منها بين الحين والحين وفى كل مرة كان يعيش سرا مع حب جديد . وعندئذ لم يكن يهتم
بأن تكون زوجته الجديدة من بين ربوات السماء ، أو من بين نساء البشر .

وكانت « لاتونا » واحدة من زوجات زيوس العظيم ، وواحدة من الربوات اللاتى
صبت عليهن « هيرا » جام غضبها وحقدها ، بعد أن رأت فى جوفها جنينا خشيت أن
يجتذب قلب أبيه العاشق إلى أمه ، فيجلسها معه على العرش بدلا منها .

وأخذت « هيرا » ، مندفة بحقدها الرهيب ، تثير غضب « زيوس » على « لاتونا » .
ووقع رب الأرباب فى الشرك ، فطرد « لاتونا » من فوق أولب ، وأرسلها إلى الأرض شقية
معذبة .

ومع ذلك فقد ظلت لعنة « هيرا » تلاحقها وهى حائرة على الأرض . وحاولت
المسكينة عبثا أن تجد مكانا تختفى فيه من لعنة « هيرا » . ولما عجزت عن الحصول على
المخبأ الأمين . . ألقى بنفسها فى البحر .

وكان « بوسيدون » إله البحر يتبع بنظراته الزوجة الحزينة التائهة ، وأبت عليه الشفقة
أن يدعها تغرق فى الماء ، فاستقبلها فى جزيرته « ديلوس » ، التى صنعها ليرفع منها أمواج
البحر بضربات رحمة ذى الشعبين . . .

وهناك - فى هذه الجزيرة السحرية - وضعت « لاتونا » أجمل توءمين من أبناء زيوس
العظيم : ديانا ، وأبوللو !

ومع ذلك ، فقد ظلت « هيرا » تلاحق « لاتونا » بحقدها ولعنتها . . فى حين كانت
الأم مشغولة بتربية ولديها ، اللذين وهبا جمالا رائعا وذكاء نادرا أشارا عليهما حقد أهل
الجزيرة .

وراحت «هيرا» تملأ صدور النساء حقدا على لاتونا، حتى أثارت عليها إحدى ملكات الجزيرة، فاحتكت بالأم المسكينة . . . وكان نقاش وصدام، ثم وجدت «لاتونا» نفسها، وقد حكم عليها أن تعود مرة أخرى طريدة، شقية هائمة .

غير أن «لاتونا» - قبل أن تمضى - ثارت على المعاملة السيئة التى لقيتها، ومست الإهانة كبرياءها، فسلحت «أبوللو» بالدروع، وأعطت «ديانا» حرايا مسنونة، وأمرتهما أن يقتلا أبناء الملكة فراحا يضربان بكل مافي شبابهما من قوة وغضب حتى قضيا على الجميع .

وعادت «لاتونا» تبكى من جديد . ومست دموعها قلب زيوس الذى كان لايزال يحمل لها في أعماقه بقايا غرام . . . فعطف عليها، ولم يجد وسيلة لإنقاذها من غضبة هيرا إلا أن يحيلها تمثالا رائعا من رخام . . ناصع الجمال !

وشب «أبوللو» و«ديانا»، فكانا موضع إعجاب في السماء والأرض، وخفق قلب زيوس لولديه، فأرسل يستدعيهما ليصبحا من الآلهة . . . وقدمت لهما «هيني» شراب الخلود، لينقطع كل مايربطهما بالأرض . وأمر زيوس ابنته الصغيرة بأن تكون ربة للصيد، في حين جعل ابنه ربا للشمس، وقائدا لمركبتها الذهبية الرائعة في رحلتها كل يوم بين الشرق والغرب .

* * *

ولما كانت الآلهة تحب . . فقد أحب «أبوللو» فتاة من البشر تدعى «كليمني» وتزوجها . وأنجب منها أولاده : «فايتون»، و«كرونيس»، و«أيسكلوبيس» .

وشب أبناء أبوللو، كما شب أبوهم من قبل، بارعين في كل ميدان نزلوا فيه . وبرع من بينهم «أيسكلوبيس» في دراسة خواص النباتات والمعادن، واستخلص منها أدوية تشفى جميع الأمراض . . . وأعلن «أيسكلوبيس» عن اكتشاف دواء يعيد الحياة إلى الموتى !

ووقد الناس أفواجا على «أيسكلوبيس» يطلبون منه أن يرد الحياة إلى موتاهم، ويشفى مرضاهم . وهنا ثار «زيوس» . . . فما كان يعجبه أن يتحدى حفيده رغبات آلهة أولب . وما كان يرضيه أن يترك الناس تقديم القرابين إلى محاولة استرضاء الفتى الطيب . . فأرسل صواعقه المدمرة، فقضت على «أيسكلوبيس» بن «أبوللو»، وأحرقت أدوات طبه ومكتشفاته .

وحزن « أبوللو » لما أصاب ولده ، ولم يعرف كيف ينتقم لابنه القتل من قاتله . وكان كل ما يمكنه أن يفعل هو أن ينزل غضبه بصانعي الصواعق التي يستخدمها زيوس . . . فانطلق إلى براكين ليمنوس ، وانحدر من فوهتها إلى حيث يعمل السيكلوب ، وأهلكهم جميعا .

وانطفأت نيران البراكين ، وانقطعت أصوات المطارق الهائلة . . . وانتبه « فولكانوس » ، الإله الحداد ، إلى السكون الغريب ، فانطلق إلى مكان صناعه المهرة ، فوجدهم جثثا هامدة على الأرض .

وانفجر « فولكانوس » غاضبا ، وانطلق يحجل بساقه العرجاء صاعدا إلى السماء ، حيث شكا لزيوس ماصنعه ولده أبوللو بعمالقته الحدادين ، وقدم له السهام التي استخدمها في القضاء عليهم .

وتأجج الغضب في صدر زيوس ، وارتعد جبل أولب مع زفرات رب الأبواب وهو ينطق بحكمه الرهيب بنفى أبوللو إلى الأرض ، ليرعى الأغنام تحت إمرة واحد من البشر .

وهبط « أبوللو » إلى أرض البشر . وعمل راعيا للأغنام عند أدمينوس ملك تساليا . وسرعان ما أدرك الملك أن الراعى الجديد من نوع لم ير مثله من قبل . فقد سحرت الأغنام السماوية التي تصدر من ناي « أبوللو » سكان المملكة جميعهم . وكانوا يتجمعون حول الراعى الغريب ، وهو جالس على شاطئ نهر أمفريسوس ، ليستمعوا إلى شذوه الساحر في نشوة تبلغ حد الذهول . . . وكم حاول زملاؤه الرعاة أن يتعلموا منه هذا النغم الرائع فاستعصى عليهم الأمر ، واكتفوا بالالتفاف حوله أينما ذهب ليتمتعوا بألحانه السماوية على الدوام . لقد تحول أبوللو من قائد مركبة الشمس إلى رب الشعر والفن والموسيقى !

وأحب الملك راعى الغنم الجديد ، وازداد له حبا عندما مكنه بموسيقاه من قلب « الكستيس » ابنة الملك « بيلاس » الذي قرر ألا يزوج ابنته الأميرة إلا لمن يحضر إلى قصره في مركبة تجرها السباع .

لقد انطلق « أبوللو » يعزف على أوتار قيثاره السماوى ، فهرعت إليه السباع من كل صوب ، نشوانة باللحن السحري . . وأسلس له قيادها ، وامثلت لأمره أليفة مستكنة ، وهو يربطها إلى المركبة المذهبة التي انطلق بها الملك « أدمينوس » إلى قصر الملك بيلاس . . .

وَأَن لأبوللو أن يستريح . . فقد بلغ من تعلق الملك « أدمينوس » به أن اتخذ صفيا ولم يعد يرهقه بالعمل في رعى أغنامه . وسارت به الحياة رخية ناعمة إلى أن مات ك . . . فلم يطق « أبوللو » البقاء في المملكة بعد وفاته ، وهام رب الموسيقى على به لا يستقر في مكان .

وفي ذلك الوقت كان « بوسيدون » قد طرد هو أيضا من السماء وكلف ببناء أسوار إدة . ولم يكن ذلك بالعمل السهل . وناء بوسيدون بحمله ، وأوشك على الهلاك . ثم التقى « أبوللو » ببوسيدون ، وأشفق عليه ، وقرر أن يساعده . . فأخرج نايه من بته ، وانطلق يشدو بألحان تحركت لها الصخور ، واهتزت لها طربا ، وصارت تقفز حيث يومئ لها أبوللو بمؤخرة نايه . . . واستمر في العزف حتى تراصت الصخور في ت ، واستقرت مكونة سور طرواده العظيم !

* * *

ومضى « أبوللو » على ظهر الأرض يؤدي للبشر خدمات عظيمة لم يكونوا ليبلغوها ردهم . . . وبالرغم من ذلك ، فإنه لم يكن موفقا في صداقاته !

كان يلعب ذات يوم مع صديقه « هياكتوس » ، ويتسلان بقذف القرص ومرهما روس ، رب الريح الغربي ، فلم يرقه لعب الصديقين ، وامتلا قلبه الحقود حسدا رة للمرح البادى عليهما ، فقرر في الحال أن يضع حدا له .

وانتظر « زفيروس » حتى قذف أبوللو القرص ، فأرسل ريحا عاتية من الغرب غيرت ه سير القرص ، وإذا به يصدم رأس « هياكتوس » صدمة قوية قضت عليه عته . . . وصرخ أبوللو في ألم وذهول ، وألقى بنفسه على جسد حبيبه الميت يكيه في لة وأسى . وأفاق من غمرة حزنه ، ووارى جثة صديقه التراب . . ثم تناول بعض هار البرية وغمسها في بقايا دمه الأرجواني ، ثم غرسها فوق مثنوى الصديق . . . مرعت الزهور الجميلة ، وسميت منذ ذلك اليوم « زهرة الهياكتوس » .

ولم يكن هذا آخر حادث يصيب صديقا من أصدقاء « أبوللو » . فقد حدث في يوم - أن أخطأ « كيبارسوس » - وهو من أصدقاء أبوللو المقربين - ورمى غزالا جميلا يعتز ب الموسيقى فأرداه . . . وحزن أبوللو لفقد غزاله ، فتألم « كيبارسوس » لأنه كان بب في حزن صديقه ، ولم يحتمل تأنيب ضميره ، فقتل نفسه ! وصرخ أبوللو ثانية . ولكنه لم يكن يملك أكثر من أن يحول جسد صديقه الميت إلى شجرة سرو . اعتاد

الناس من بعده أن يغرسوها في المقابر رمزا للحزن والأسى على فقد أعزائهم .

* * *

حتى في الحب . . . كان « أبوللو » شقيا . فحين كان يرعى الغنم على سفوح جبل أوسرا . . التقى بحورية حسناء اسمها « دافنى » - إحدى بنات رب النهر بنيوس - فأحس نحوها بميل شديد ، سرعان ما تحول إلى وجد مشبوب غمر حواسه كالفيضان . . . وكثيرا ما حاول « أبوللو » أن يجتذب إليه نظر حوريته الحسنة ، وأن يستميل قلبها إليه ، ولكن جهوده ذهبت كلها أدراج الرياح . . حتى أنغام قيثاره السحرى ما كانت لتؤثر في « دافنى » فقد كانت دائما تفر من طريقه ، وتهرب من أى مكان يكون فيه .

وقرر « أبوللو » أن يلجأ إلى القوة ليجبر فتاته على التحدث إليه . وذات صباح انتظر عند منحنى على سفح الجبل ، ولم يكد يراها تمر حتى وقف في طريقها ، وتدفقت من فمه عبارات الحب تفضح هواه المكبوت ، وتنبئ عن نار الشوق المستعرة في صدره . وكاد قلب الفتاة يرق للواعج غرامه . . . إلا أن ذهول المفاجأة زال أثره سريعا ، وتماكت نفسها ، وفرت في رشاقة الظبي الشارد من طريقه .

واندفع « أبوللو » وراءها كالريح . . . فما عاد يتمالك وعيه ، بعد أن طغى الحب على وجدانه ، وأعمى بصره وبصيرته عن كل شىء ماعدا جمال حوريته . . . وتمكن من اللحاق بها . ولم يكد يمد يده إليها حتى صرخت مستغيثة بأبيها :
- النجدة يا أبى . . . أدركنى . . . أنقذنى .

وأسرع إليها رب النهر ، ولكنه عجز عن اللحاق بها لبعدها عن شاطئه .
وعادت الفتاة إلى صراخها الموجه :

- حولنى يا أبت إلى أى صورة أخرى ، أو اجعلنى أغوص في الأرض قبل أن تمسنى يداه !

مد « أبوللو » يده ، وقبضت أصابعه على شىء حسبته في نشوته الغامرة ذراع الفتاة ، وتحسسه في لذة . . . فإذا أصابعه تكاد تنهرا . وفتح عينيه فإذا أمامه شجرة غار يانعة الفروع ، وإذا بيديه تقبضان على فرع منها . أما الحبيبة فلم يعد لها أثر !
وانطلق « أبوللو » والأسف يغمر نفسه ، لأنه كان السبب في أن صارت الفتاة الممتلئة حيوية شجرة جامدة صماء . ومد يده فجمع بعض أغصان الشجرة الخضراء ، وصنع

منها تاجا وضعه على جبينه ليكون ذكرى دائمة لفاتنته . . ومضى في الطريق يعزف على
قيثاره لحنا حزينا مؤثرا . . .

* * *

كل ذلك كان يحدث على الأرض ، في حين كانت عربة الشمس تجرى وحدها بين
الشرق والغرب ، بلا قائد ينظم سيرها ويقودها خلال منعرجات السماء .

وبالرغم من أن « زيوس » كان يوجه من عليائه جياذ المركبة الذهبية بنفسه ، إلا أن
سيرها اختل ، وبدأت الجياذحائرة مضطربة . . . حتى الساعات الأثنتى عشرة التي
تحيط بالمركبة ، وتدور حولها خلال رحلتها الأبدية ، اختل نظامها فما عادت تحس رقبيا
أو حسيبا .

وأحس الآلهة جميعا بقيمة « أبوللو » وبراعته في قيادة المركبة . . فانطلقوا إلى « زيوس »
يكررون الرجاء ، ويلحون في طلب العفو عن رب الشمس وإعادته إلى مكانه
الساوى .

ولم تكن « هيرا » جالسة إلى جوار « زيوس » في ذلك الوقت ، فأصدر أمره بالعفو عن
ولده وإعادته إلى مكانه بين الخالدين . . قائدا لمركبة الشمس الحائرة ، ليعود إليها
النظام الذى افتقدته طويلا .

وترك « أبوللو » قيثاره ونابه ، وصعد إلى السماء ليقیم في قصر تيميش ، ولينطلق مع
الفجر حين تفتح « أورورا » أبواب الشرق ، فيخترق بمركبته الفضاء ، ويظل سائرا في
طريقه المرسوم حتى يصل إلى الغرب حيث يستريح مع جياذه الأربعة في انتظار اليوم
الجديد .

في ذلك الوقت كان « فايتون » بن أبوللو يعيش مع أمه « كليمنى » في أرض البشر .
وبالرغم من أن الفتى الصغير كان عفيفا طيب الخلق . . . إلا أنه كان دائما يفاخر لداته
بأنه من نسل الآلهة ، وأن أباه « أبوللو » رب الشمس ، وجده « زيوس » رب الأرباب .

ولم يكن أصحابه يصدقون دعواه قط . . بل طالما سخرُوا منه وهزءوا . فكان
« فايتون » ينطلق إلى أمه صارخا باكيا ، طالبا منها البرهان على أنه ابن رب الشمس
حقا . وكانت أمه تقسم له على صدق ماتقول ، فيصرخ فيها دائما : أين الدليل ؟

وضاق صدر الفتى ذرعا ، ولم يعد يحتمل سخرية أصحابه . . . وعندما وقف أمام
أمه كعادته يطالبها بالدليل على بنوته لرب الشمس ، صاحت قائلة :

- فايتون . . . إذا كان الشك يعذبك إلى هذا الحد ، فإن الجبل الذى تشرق منه الشمس غير بعيد . . . اذهب إليه بنفسك ، واسأل رب الشمس : أنت ولده حقا ، أم إننى أغرر بك .

وارتاح الصغير لهذا رأى ، وفرح فرحا شديدا ، ونهض من فوره ومضى فى طريقه إلى جبل المشرق . . فبلغه بعد عناء وجهد ، وصعد إلى القمة ، وقد أنهكه الإعياء والتعب ، وارتمى فوق صخوره ريثما يسترد أنفاسه المتقطعة .

وكان فجر جديد قد بزغ . . . وتفتحت عينا الفتى على ضياء بهر وأخذ بلبه ، وفغر فاه من روعة المنظر الذى بدا لناظريه : قصر الشمس . . يتلأأ فى فيض من أشعتها الذهبية ، وقد انتصب القصر على عمد من ذهب يغطيه سقف من عاج ، وأبوابه من فضة خالصة .

ووقف الفتى مبهور الأنفاس ، ثم خطا إلى الأمام فى وجل ، ودلف من الباب الكبير إلى القاعة الكبرى للقصر . وهناك رأى « فايتون » منظرا عجبا . . . لقد كان « أبوللو » جالسا فى رداء أرجوانى زاه ، على عرش من الماس يخطف بريقه الأبصار ، تغمره هالة من النور الساطع المتألق ، وحوله الساعات والأيام والأعوام فى صفوف منتظمة رائعة .

ولمح « أبوللو » ولده « فايتون » واقفا فى خشية ، وقد بهر الضوء ، فناداه فى وداعة ورفق :
- أى بنى . . . ما جاء بك هذه الساعة ؟ اقترب ولا تخف .

وتقدم الفتى فى بطء ، تحذو خطواته الرهبة ، ويملا نفسه الإعجاب . . . وقال :
- أبتاه . . . يانور كل نور إن صحبى يهزون بى كلما أنبأهم أننى ابن رب الشمس ، ولم أعد أحتمل إهاناتهم لى . ولقد جئت لك ولى رجاء عندك : إن كنت ابنك حقا . . . فأعطني الدليل !

ونهمض « أبوللو » عن عرشه المهيّب ، وأزاح عن نفسه هالة النور ، وأمسك بيد ولده ، واجتذبه إلى صدره ، وقبله فى حنان ، ثم خاطبه قائلا :

- بنى . . لك أن تطمئن إلى نسبك الرفيع . وإنى لأقسم لك بسيكس ، ربة العز والقوة ، أن أجيبك إلى ماتطلب كى تخرس السنة الهازئين بك ، وترفع رأسك تيهها على كل أبناء البشر . . سل يابنى ماتريد ، ولن أرفض لك طلبا .
وغمرت الصغير نوبة من الفرح الجارف ، وهتف بأبيه فى جذل :

- أحقا يا أبتاه؟ إذن فأقصى أملى أن تسمح لي بأن أقود مركبة الشمس بدلا منك يوما واحدا لن أزيد عليه!

وفوجئ «أبوللو» بطلب صغيره، واضطرب ميزانه . . . فقد أدرك أنه تسرع بالقسم العظيم الذى لاحث فيه . وراح يحاول أن يثنى ولده عن هذه الأمنية الغريبة، ويعدده أن ينفذ له أى مطلب عداه مهما يبلغ من العظم أو الغرابة . . إلا أن ابن «أبوللو» أبى إلا هذا المطلب، وصمم عليه وهو موقن أنه مجاب، فما كان لأبيه أن يبحث فى قسمه . وعاود «أبوللو» محاولته قائلا:

- إن فى إجابة طلبك خطرا عظيما يهددك . . . فإنك معدود من البشر، إلى جانب حادثة سنك . وهذان السببان لا يسمحان لك بقيادة مركبة الشمس .
فهز الفتى رأسه . . . واستأنف أبوه قائلا:

- أى بنى . . إنه لا يمكن لمخلوق مهما تكن قوته أن يسيطر على مركبة الشمس . . .
فإن الطريق شديد الانحدار لاتصعده الخيل إلا بجهد يقصر عنه الوصف، كما أن نهاية الطريق لشدة وعورتها تكاد تسقط فيها المركبة منى أنا نفسى رغم حيظتى وتحكمى فى قيادتها . . . ناهيك بالوحوش الكاسرة والمهاوى السحيقة التى تعترض المركبة فى كل رحلة . والحياد يابنى جامحة تنفث من صدورهما الحمم . وإننى أنصحك أن تعدل عن هذا المطلب الخطير، لأنك إن أبيت، فمعنى إباءك الهلاك لك وللعالم بسببك .

ولكن الفتى تشبث بطلبه، ولم يتزحزح قيد أنملة عما عقد عليه العزم . فما كان لأبيه - وقد تورط فى قسمه العظيم - إلا أن يذعن، فقاد ابنه من يده إلى حيث وقفت المركبة الذهبية المرصعة بالزبرجد والياقوت والألماس، وقد شدت إليها الخيول الأربعة، وأخذت تضرب بحوافرها الأجواء فى تحفز واضطراب، وتزفر الحمم من أنوفها استعدادا لرحلة اليوم .

ولم تمض لحظات حتى فتحت «أورورا» أبواب الشرق القرمزية . . وعندئذ أمر «أبوللو» ولده بأن يثبت نفسه فى مكانه من المركبة، ثم مسح وجهه بالدواء الواقى من الحرارة والوهج، ووضع على رأسه هالة الأشعة وهو يقول: «مازال أمامك الفرصة يا ولدى لتعدل عن رأيك فالأمر جد خطير» .

وكانت إجابة الفتى صرخة حمقاء أطلقها فى آذان الخيل وهو يهز أعتتها فى قوة، فانطلقت المركبة كالسهم المارق فى طريقها المرسوم .

وسارت الجياد، كما اعتادت أن تسير كل يوم، دون أن تحس أن في الأمر أى تغيير. . . فقد كانت بداية الطريق مرحلة هينة لا تحتاج إلى حزم القائد وإرشاده . ولكن ما إن بدأت وعورة الطريق ، وتلمست الخيل حكمة القائد حتى انقلب الحال إلى غير ما كان عليه . فقد أحست الجياد بخفة المركبة وعدم اتزان الزمام . . . وبدلاً من أن يعتمد الفتى إلى التقليل من سرعة الخيل ، ترك لها العنان فاندفعت في انطلاق مجنون لا حاكم له ولا رابط ، وفقدت المركبة اتزانها فمضت تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، تندفع إلى أعلى ، وفجأة تسقط إلى أسفل . وتأزم الموقف ، وأفلت الزمام تماماً من يدى «فايتون» ، وامتلاً قلبه رهبة ، وخافته شجاعته ، فاكتفى بأن أحكم قبضته على سياج المركبة . . . ولم يلبث أن راح في غيبوبة من شدة الرعب وهول الفزع .

ومضت الجياد في انطلاقها الجامح . . . وكلما أحست باضطراب المركبة خلفها ، اندفعت في سرعتها المجنونة . وبين ارتفاع المركبة وانخفاضها ، وتمايلها يمينا وشمالا . . . كانت تصطدم بالجبال فتشتعل قممها نارا وهاجة ، وتزلزل الهواء فجفت مياه السحب ، وتهاوت النجوم شواظا محترقة ، وهلك الزرع ، واستحالت الأرض صحارى قفراء جرداء ، وغاضت مياه البحار والأنهار، وتعالّت في الجو صرخات الاستغاثة يطلقها الإنسان والنبات والحيوان!

وامتلاً قلب ربة الأرض رعباً، فانطلقت على عجل إلى « زيوس » رب الأرباب تستحلفه وتتضرع إليه أن يرفع عنها هذا البلاء . وفزع « زيوس » وهو يرى من عليائه ذلك الفتى الأحمق يجرى بالمركبة على غير هدى في فضاء اللانهاية . وخشى رب الأرباب أن يدمر طيش هذا المخلوق الصغير الكون ، فدعا إليه الآلهة كلها، فهرعوا إليه ومن بينهم « أبوللو » رب الشمس الذى تخلى عن واجبه ، وأخذوا جميعاً يفكرون في وسيلة لإنقاذ الكون .

وعجز الجميع عن التفكير، ولم يجد « زيوس » بداً من أن يطلق أحد سهامه الصاعقة نحو الطائش الصغير الذى تثير صرخاته نائرة الخيل فتندفع في انطلاقها .

واستقر سهم « زيوس » فى صدر « فايتون » ، فسقط صريعاً على أرض المركبة ، ولم يلبث أن سقط منها فى الفضاء إلى نهر بادوس .

أما « أبوللو » فما كان فى وسعه إلا الحزن على ولده ، ثم انتظار وصول المركبة إلى قصر تيميش بعد أن تهدأ نائرة الجياد . . . ثم ليبدأ مع اليوم الجديد رحلته الجبارة الخالدة ! ومضت الحياة تسير . . .

أسطورة إغريقية هرقل

لم تكن الربة « هيرا » زوجة رب الأرباب « زيوس »، على شئ من طيبة القلب وحسن الخلق . بل كانت عنيدة حقودا سيئة الطباع ، فأشقت زوجها حتى لم يعد يطيق الحياة على عرشه في السماء وهي إلى جواره ، ووجد لذة في أن يهبط إلى الأرض بين الحين والحين ، فرارا من حقد زوجته ، حيث يتخذ صورة مخلوق بشري ويتجول في الأرض باحثا عن مغامرات عرامية .

وقاسل في إحدى مغامراته « الكميني » إحدى بنات البشر فتزوجها . . . وكان هذا الزواج أحد أسباب الصراع الضخم بينه وبين « هيرا » زوجته التي تشاركه عرش أولمب .

لم تكره الربة « هيرا » أحدا كما كرهت ذلك المولود الذي أنجبته « الكميني » من الإله « زيوس » العظيم . فلم تكذب عينا هرقل الصغير تتفتحان على الحياة ، حتى انطلقت « هيرا » إلى ربات الحظ ، تطلب منهن أن يقطعن خيط حياته . .

وكانت الربة « هيرا » - أقرب زوجات زيوس إليه وأقواهن - تعلم أنها ستنتصر . فقد كانت عزيزة على الربات الثلاث : « كلوتو » ناسجة خيط الحياة ، و « لأكسيس » مقسمة الحظوظ ، و « أنروبوس » المؤكلة بقطع الخيوط التي تنسجها « كلوتو » .

إلا أن « زيوس » العظيم كان يملك - متى أراد - أن ينقض حكم كل الربات ، فعجزن عن القضاء على الوليد الذي كان مقدر له أن يعيش ، وأن يجتاز كل المخاطر والأهوال . ولم يكن أمام الربات بعد ذلك لإرضاء صاحبتهن ، إلا أن يجعلن حياته كلها مشقة ونصبا وإجهادا !

وبدأت متاعب « هرقل » وهو لا يزال في المهد . فبينما هو راقد ذات يوم ، أطلقت عليه الربة « هيرا » أفعوانين هائلين ليفتكوا به ، وانقض الوحشان على الطفل ، والتفا حول جسده ، وكادا ينفشان سمومهما . . إلا أن الصغير الذي وهب قوة لم توهب إلا للآلهة ، أطبق على عنقيهما بقبضتين جبارتين ، وأخذ يضغط عليهما في قوة وعنف حتى احتبست أنفاسهما ، وهمدت الحياة فيهما .

وبهت كل من فى الدار وهم يرون الصغير يضحك وفى يديه أفعوانان لم ير مثل ضخامتهما أحد قط . ومنذ هذا الحادث آمنت « الكمينى » أم هرقل بأنه سيكون لابنها هذا شأن عظيم ، وقررت من فورها أن تعده لحياة البطولة الخالدة التى كان قد قدرها له رب الأرباب .

ومرت السنون . . . والصبى يتنقل بين أيدي معلمين يدرّبونه على القتال والصراع ، وإصابة الأهداف ، وقيادة العربات ، ويلقنونه الغناء والإنشاد والعزف على القيثارة . . . إلى أن برع فى ذلك كله ، وملاً صيته الآفاق ، وبذ فتیان عصره من الأمراء والنبلاء ، وأبناء الآلهة جميعاً !

وذات يوم أخطأ الفتى وهو يتلقى دروس الغناء على أستاذه « لينوس » . وأراد المعلم أن ينزل عقابه بالفتى المخطئ . . . ولم يكذب يمد إليه يده ، حتى دفعه الفتى بيده دفعة جبارة ألقت به إلى الأرض جثة هامدة !

ولم يكن بد من أن يعاقب البطل الصغير على جريمته ، فصدر الحكم بنفيه فى الجبال ، حيث اضطر أن يمارس فنون المصارعة والقتال مع الوحوش ، فازداد بذلك دربة وقوة ، كما ازداد شهرة حين صرع بيديه أسداً كان يثير الرعب فى قلوب أهل « طيبة » .

والتقى البطل الصغير ، فى منفاه ، بامرأتين : « كاكيا » الأثمة ، و« اريث » الفاضلة ، وعرضت عليه كل من المرأتين أن تكون رفيقته ومرشدته ، وأغرته أولاهما بأن تمنحه الشراء والسلطان ، ووعدته الثانية بأن تهبه القدرة على الكفاح والنضال . ونجحت تعاليم أستاذه « ردامنتوس » فوافق الثانية ، فكانت قصة الكفاح الخالد الطويل .

فى ذلك الوقت كان « أمفريون » حاكم « طيبة » فى صراع دائم مع « أوركمنيوس » . وأبلى هرقل إلى جانب « أمفريون » بلاء رائعاً فى ذلك الصراع ، فرأى الحاكم أن يكافئه على بلائه الرائع بتزويجه من ابنته الأميرة « فيجارا » .

وعرف هرقل منذ ذلك اليوم ، سنوات طويلة ، معنى السعادة بجوار أخلص زوجة وأعز أبناء . ولكم تمنى أن تدوم هذه السنوات ولا تنتهى أبداً . . . إلا أن « هيرا » الخانقة كانت لاتزال تلاحقه ، فتسللت مسرعة من قمة الأولمب إلى حيث مضجع هرقل ، ولمست جبهة البطل ، وهو نائم ، بأطراف أناملها ، فإذا به يصاب بلوثة جعلته يتوهم أن كل من يحيطون به أعداء يضمرون له الشر ، وإذا به يندفع دون وعى إلى غير هدف . . . يطوح بيديه يمينا وشمالاً ، ويردد صرخات مجنونة تثير الذعر فى كل من يصادفه . والويل

لمن شاء له سوء حظه أن يعترض طريقه ! حتى لقد هب ذات يوم من نومه في ثورة مجنونة ، وانقض على أبنائه ففتك بهم جميعا . . .

وإزدادت لوثة « هرقل » حتى كاد يقتل « أمفثريون » نفسه ، وأطلت عليه الربة « أثينا » من عليائها - وقد أحزنها جنونه ، ومس شغاف قلبها - فهبطت إليه ، وضربت رأسه بحجرها المقدس الكريم ، فأذهبت عنه لوثته .

وأفاق الفتى ، وقد عاد إليه عقله ، واستعادت ذاكرته كل ما اقترفه من آثام ، فاستبد به حزن عميق ، ولم يعد يطيق الحياة بين قوم شهدوا محنته ولحققتهم لوثته ، فلم يجد بدا من أن ينفي نفسه بعيدا عن العالم . وهام على وجهه شريدا ، وظل يجوب الأفاق شهورا . . حتى انتهى إلى معبد « دلفي » ، فاجتاز أبوابه ، وجثا على ركبتيه أمام المحراب يبكي ويتضرع للآلهة أن تهديه إلى ما يكفر به عن إثمه الكبير . . .

وأسرعت « هيرا » إلى جوار « زيوس » في محرابه على قمة الأولب وهو يستمع إلى توسلات « هرقل » . . . وحين لمست منه انعطافا إلى العفو عنه ، لجأت إلى وسائلها الملتوية ، حتى اضطرت به إلى الحكم على الفتى بأن يخضع لسلطان « يوريسيثوس » ملك أرجوس ، وأن يمثل لكل ما يكلفه من أعمال .

وشهد بقية آلهة الأولب ما كان ، وعرفوا مدى الصعاب والمشاق التي سيلقاها الفتى من تنفيذ العقوبة . . . فأسرع كل منهم يمد يد المعونة للبطل الفتى : فمنحته الربة « أثينا » خوذة لرأسه ، ووهبه « هرمز » سيفا حادا ، وأعطاها « أبوللو » سهما وقوسا ، وأهداه « بوسيدون » جوادا ، وسلمه « هيفايستوس » حذاء من نحاس . . . حتى « زيوس » ، رب الأرباب نفسه ، قدم له درعا قوية رائعة .

كانت نفس « يوريسيثوس » مملوءة حقدا وغيرة . . . ولطالما أذله وأثار كامن حقهده ، أن يكون أضعف قوة وأقل بطولة من ابن عمه « هرقل » الذي طبقت شهرته الأفاف فقرّر أن يستغل حكم الآلهة لإرضاء غروره ، وإطفاء نار حقهده بأن ينزل بالبطل الذي وضع تحت سلطانه بالرغم منه ، كل ما يستطيع من أذى وبطش . وملأت الربة « هيرا » رأسه أفكارا عجيبة عن اثني عشر عملا من أشق الأعمال التي يمكن تصورها ، وهي تعلم أن فشل هرقل في أداء عمل واحد منها ، قد يؤدي به إلى الهلاك . . . وهو ما كانت تريد !

وجلس « يوريسيثوس » فوق عرشه ، ومن حوله أضخم رجال حرسه وأقواهم ، في انتظار وصول هرقل . وكان جل همه أن يسخر بشجاعة البطل ويهزأ به أمام الجميع . .

إلا أنه لم يكذب يرى هرقل - بقامته العملاقة الرهيبة ، وجسده الذى تهتز من تحته الأرض - داخل قاعة العرش ، حتى ارتعش بدنه واضطرب ، وتجمدت أطرافه ، وأحس قلبه يكاد ينهار . . . وتلاحقت أنفاسه فى رعب ، وهو يحاول كبج جماع نفسه . واتجه إليه «هرقل» وقال فى غير وجل :

- أيها الملك . . . إن «زيوس» - رب الأرباب ، وسيد جميع البشر - جعلنى تحت إمرتك . وقد جئتكم مليا أمره ، ممثلا لمشيتته ، لأنجز كل ما تكلفنى من أعمال . . . فاطلب ماتريد ، تجدى رهن أمرك وطوع إشارتك .

وأجاب «يوريستشوس» وهو يجهد أن يثبت صوته المرتعش :

- نعم يا ابن العم . . . إنك لتعلم أن إرادة «زيوس» هى إرادة الآلهة جميعا ، وأن أوامره تسرى على الجميع ، صغيرا وكبيرا ، وغنيا وفقيرا . . . وإنى لذلك مضطر أن أكلفك مهام شاقة ينبغى أن تقوم بها . إلا أنى سأحاول أن تكون هذه المهام سبيلك إلى الصيت والشهرة والمجد . وأول ما أطلبه منك أن تقضى على أسد «نيميا» الذى يجتنب فى غابة أرجوس ، والذى يقطع الطريق على الجميع ، ويثير الرعب والفرع فى قلوب أهل البلاد!

وأحنى هرقل رأسه فى هدوء وثقة ، ودار على عقبيه ، واتخذ طريقه إلى غابة نيميا ، لتنفيذ أوامر «يوريستشوس» .

اخترق هرقل منحنيات غابة نيميا ، بحثا عن الأسد الذى أقص مضاجع أهل أرجوس . ولم يكن يشعر بشيء من الخوف أو الرهبة . . . فقد سبق أن قتل أسد «طبية» يديه فى غير مشقة أو جهد كبير . ومن أجل ذلك ضحك البطل ساخرا عندما دوى فى سمعه ذلك الزئير المروع ، الذى هز الغابة ، ونبهه إلى الجهة التى يكمن فيها الليث الكاسر . وكان الليث قد أحس اقتراب عدوه ، فانتفض وكشر عن أنيابه ، وأطلق زئيره الرهيب ، كأنه أمواج صاخبة تلاطم الصخر الصلد فى بحر عريد .

وثبت هرقل أمضى سهامه فى قوسه ، وشد القوس بقوة ، فانطلق السهم فى سرعة وعنق ، ولكنه لم يصب الأسد فى جنبه ، بل انزلق على جلده السميكة بعد أن انكسر طرفه . وثار الأسد للعدوان المفاجئ ، فالتفت إليه ، وتوثب لهجوم هائل عنيف . وأسرع هرقل إلى سهم آخر أطلقه كبرق خاطف ، غير أنه تهشم وسقط على الأرض ، دون أن يصيب الأسد بأذى ضرر . . . وفى لحظات كان الأسد الغاضب قد وثب عرضا ،

واستعد للانقضاض على عدوه الرهيب . وملأت نشوة القتال قلب هرقل ، فاستعد له . . . وقبل أن ينقض عليه الأسد ، كان هو قد أسرع فأهوى على رأسه بهراوته الثقيلة ذات البروز . وترنح الأسد الضخم ، إلا أنه احتمل الضربة ، وإن جعله الإعياء يهرب في تشاقل وبطء إلى داخل الأحراش . . . وانقضت تلك الليلة ، وكانت الجولة الثانية في الليلة التالية .

وفي هذه المرة ، انقض هرقل في قوة بهراوته على رأس الليث ، ولم يترنح الأسد ، بل وثب في دفاع خاطف على عدوه . وتلقاه هرقل بذراعين مفتوحتين تزخران بالعنفوان والقوة ، بعد أن ثبت قدميه العريضتين في الأرض ، وطوق عنق الأسد في عنف جبار ، وتخللت أظفاره لبد الأسد لتشب في عنقه . وحاول الأسد التخلص من القبضة الهائلة ، وأخذ يدور بجسده في صخب . . . وحمل القتال الرهيب ، وملاً الزيتير المزعج جو الغابة . . . إلا أن ذراعى هرقل وأصابعه كانت كحلقة من فولاذ يشدد بها الضغط على عنق الليث ، حتى اختنق . . . فانهار في النهاية ، وسقط على الأرض جثة هامدة لأحراك فيها .

وحمل هرقل جثة الأسد ، بعد أن شق جلده وارتماه ، وراح يخرق شوارع أرجوس في طريقه إلى قصر الملك . والتف الناس حول البطل يحيونه في حرارة ، ويصفقون له . ولم يهتم هو بشيء من ذلك ، قدر اهتمامه بأنه أتم أحد الأعمال التى عليه أن ينجزها ليوريسيثوس العنيد .

ودخل هرقل قاعة العرش ، حيث يجلس الملك ، ورفع جثة الأسد بيديه ، وأخذ يورجحها بقوة ، ثم ألقى بها بين قدمي «يوريسيثوس» !

وروع الملك . . . وقبل أن ينهض مسرعا من القاعة ، أصدر أوامره بعدم السماح لهرقل قط ، إذا عاد من إنجاز أى مهمة ، باجتياز أبواب المدينة ، بل عليه أن يقف خارج الأسوار ، ويقدم تقريراً بما قام به .

وهز هرقل كتفيه بلا مبالاة ، ومضى منصرفاً ، وهزهما مرة أخرى في سخرية عندما أبلغ بالمهمة الثانية التى عليه أن يتمها . . . وكانت القضاء على «وحش ليرنا» .

* * *

وكان «وحش ليرنا» أفعواناً ضخماً له مائة رأس ، اتخذ من مستنقعات ليرنا مأوى يعيش فيه ، لا يغادره إلا للبحث عن فريسة . ولم يتمكن أحد قط في بلاد اليونان من

القضاء على هذا الوحش الرهيب ، الذى كان كلما بتر له رأس برز مكانه رأسان جديدان . . وهكذا كانت رؤوسه تزداد عقب كل محاولة لقتله ، ويزداد معها الوحش ضراوة وعنفا .

وانطلق « هرقل » إلى المستنقع الرهيب . . . ولم يكد يقترب منه حتى أبصر رؤوس الوحش تتموج فى الهواء ، فاغره أفواهاها ، وتنطلق من ألسنتها زفرات من نار . . . ووقف « هرقل » عند حافة المستنقع ، وأمسك بقوسه ، وأرسل منها فى لحظات سربا من سهام القاتلة ، أصاب كل منها أحد الرؤوس البارزة . فوجئ « هرقل » بالرؤوس يزداد عددها ، فما كان من وسيلة إلا أن يهاجم الأفعوان بهراوته ليسحق الرأس دون أن يبتريها ، فأخذ ينهال بضربات هائلة عنيفة سريعة على الرؤوس الرهيبة ، إلا أنه لم يحرز نجاحا قط ، خاصة حين لجأ الأفعوان إلى الاختفاء فى مياه المستنقع . . . ولم يجد « هرقل » بدا من أن يؤجل مهمته بضع ساعات .

وفكر « هرقل » فى وسيلة يقضى بها على الأفعوان . . . ولما اهتدى إليها انطلق إلى حداد صنع له قضيين من حديد ، لكل منهما طرف عريض ، وأشعل على حافة المستنقع نارا قوية ، ووضع طرفى القضيين فيها حتى توهجا . . . وكان قد طلب إلى تابعه أن يسرع خلفه بأحد القضيين ، فكلما بتر رأسا من رؤوس الأفعوان ، أسرع التابع فكوى مكان الرأس المبتور بالحديد المحمى قبل أن يظهر الرأسان الجديدان .

ودام القتال الرهيب يوما كاملا ، ولم تنبت للوحش فى هذه المرة رؤوس أخرى . . بل راحت الرؤوس تتناقص ، والقضيب المحمى لا يدع فرصة لخروج غيرها . . حتى سقط آخر رؤوس الأفعوان ، وغمر دمه سطح المستنقع كله . وأسرع هرقل - وهو يعلم أن ذلك الدم سم زعاف - فغمس أطراف بعض سهامه فيه ، لتصير مسمومة لا يبرأ من جرحها مخلوق !

* * *

وانتهت المهمة الثانية . . لتبدأ مهمة شاقة جديدة ، فقد كان على « هرقل » أن يأتى بالغزال الأركادى المقدس حيا ، ويقدمه ليوريسيثوس . . . !

وكان غزال أركاديا المقدس ، ذو القرون الذهبية والخوافر النحاسية ، معبود أرتميس ربة الصيد ، التى منحته سرعة فائقة ، فلا الخيل تلحقه ، ولا الريح تسبقه . . .

وتذكر هرقل الحذاء النحاسي ، الذي كان «هيفايستوس» إله الكفاح قد منحه إياه ، فلم يجد إلا هذا الحذاء عوناً له على السباق الرهيب الذي كان عليه أن يؤديه حتى يستطيع اللحاق بالغزال العجيب !

والحق أن السباق كان سباقاً رهيباً عجيباً . . إنه سباق بين حذاء نحاسي مقدس ، وحوافر نحاسية مقدسة .

وفي هذا السباق الغريب ، كان النحاس يحدث رنيناً هائلاً فوق الحقول وممرات الجبال ، وظل الرنين يملأ أجواء الأرض ، أياماً وأسابيع وأشهرًا . . والغزال يمرق هارباً في سرعة عجيبة ، وهرقل خلفه مطارداً : يجتازان الجبال والوهاد ، ويعبران البحار والمحيطات . . حتى قاما بدورة كاملة حول العالم ، وعادا ثانية إلى بلاد اليونان !

وكان الغزال قد أصابه التعب ، فأبطأت حركته ، وهدأت سرعته ، وأخذ «هرقل» يقترب منه رويداً رويداً . . حتى بلغه . وحين هم بالقبض عليه ، أحس بالأرض تميد به ، وسمع من خلفه صراخاً رهيباً لم يكذب يلتفت إليه ، حتى وجد الربة «أرتميس» وراءه ، غاضبة مزججة تصرخ فيه :

— أنت الذي تحاول خطف معبودي ؟ ألا تعلم أنني لو شئت لأرديتك بأحد سهامى ؟

وخر «هرقل» ساجداً تحت قدمي الربة وتضرع إليها قائلاً :

— أيتها الربة . . إننى لا أتبع غزالك من تلقاء نفسى ، ولكنها مهمة أمرت بإنجازها لإرضاء لزيوس رب الأرباب . ولست أريد بالغزال سوءاً ، وإنما على أن أخذه حياً إلى «بوريسيثوس» ، ومتى قدمته إليه انتهت مهمتى ، فأعيده إليك فى سلام وأمان .

وانحنى الربة ، وأخذت تداعب عنق الغزال المجهد وتربت عليه ، ثم انجهدت إلى عيني «هرقل» فأبصرت فيهما الصدق ، وتذكرت أنها لم تقدم إليه أى عون يوم صدر الحكم الغاشم ضده ، فقررت أن تعينه فتسمح له بأن يأخذ الغزال إلى «بوريسيثوس» . . على أن يعيده إليها سالماً بغير جراح . . وقد كان .

وأتى هرقل مهمته كما أمر ، ثم أثار الرعب فى قلب الملك ، حتى استسلم وتخلّى عن الغزال بعد أن كان قد صمم على الاحتفاظ به . وعاد الغزال الأركادى المقدس حراً ، يجرى ، ويلعب . . ولا يستطيع أحد قط الاقتراب منه !

ثم كانت المهمة الرابعة أمام «هرقل» أن يأتى للملك ، بخنزير «أريبانثوس» . . حياً !

وكان الخنزير الضخم يعيش بالقرب من جبل «أريمانثوس» بأركاديا ، مشيراً الرعب في قلوب الأهالي الذين هجروا أراضيهم ، وتركوه يعيش فيها تخريباً وإفساداً دون أن يجرؤ واحد منهم على التعرض له خوفاً من بطشه الرهيب .

وكانها أدرك «بوريسيثوس» أن في مقدور هرقل أن يقتل هذا الوحش الهائل . . ومن أجل ذلك لم يترك له الفرصة للقضاء عليه ، فكان أمره بأن يحضره إليه حياً ، حتى يكلف هرقل من المشقة والنصب ما قد يؤدي به إلى التهلكة !

وانطلق هرقل إلى حيث يكمن الخنزير الوحشى ، ومعه كلاب صيد كثيرة يستعين بها على مطاردته ليجهده ، ويتمكن من القبض عليه حياً . . . وأحس الخنزير بكثرة أعدائه من الكلاب ، فخرج من مكمنه ، وأخذ يصعد سفح الجبل . . . والكلاب من ورائه ، وهرقل فى أثرها ، يتتبع آثار أقدام الخنزير . وكلما استمر الخنزير فى صعوده ، اختفت آثاره بسبب الجليد المتساقط على أعلى الجبل . . . الذى كان عائقاً لهرقل وكلابه عن التقدم السريع .

ومضت الأيام والأسابيع ، والخنزير لا يزال مندفعاً فى جريه صاعداً ، وهرقل وكلابه يتبعونه ، والتعب قد أدركهم جميعاً ، وكادوا يسقطون صرعى الإجهاد والإعياء .

واضطر «هرقل» آخر الأمر إلى التوقف ، وأخذ يفكر فى وسيلة يصل بها إلى غايته . . واقتنع ، وهو يدبر الأمر ، أن من العبث الاقتراب من الخنزير ومصارعته بيديه ، لما لهجمات من عنف وضراوة ، وما لأنياحه من حدة وقوة . . كما أن من العبث متابعتها ، ومحاولة إمساكه على أرض صلبة ، يستطيع أن يصل فيها ويجول . وأدرك «هرقل» أن سبيله الوحيد هو أن يدفع بالخنزير إلى أماكن جليدية ، ذات مغارات عميقة يمكن أن يقع فيها ، ويكون من السهل بعد ذلك الإمساك به حياً . . ودبر هرقل الأمر ، فأطلق كلابه خلف الخنزير بحيث تضيق عليه وتدفعه إلى الممرات العليا من الجبل . . واستمر الصيد والصائد فى مطاردة عنيفة خمس ساعات ، أجهدت الخنزير وبلغ به التعب حدًا بعيداً ، فلم يتبته إلى مغارة جليدية عميقة كانت تمتد هناك ، فانكفأ على وجهه ، وسقط فى الهوة صارخاً صرخة هائلة .

وكانت هذه هى الفرصة التى انتظرها هرقل طويلاً ، فاندفع إلى حيث سقط الخنزير ، وألقى عليه شبابه ، وحمل البطل صيده الرهيب ، وسار فى طريقه حتى بلغ أبواب القصر . . .

وكان حارس الباب ، حين وصل «هرقل» ، يغط فى نوم عميق ، فتسلل البطل

بحمله إلى الداخل ، وولج باب قصر الملك ، ثم واصل سيره حتى دخل إلى قاعة العرش حيث يجلس «يوريثيوس» ، وكان قد ضاق ذرعا بحمله الثقيل ، فألقى به من فوق ظهره ، وحل الشبكة التي تحيط به .

وحمل «يوريثيوس» في الخنزير الذي بدأ يثوب إلى رشده ، وفوجئ الملك بالوحش يدور على عقبه ، وينفخ بمنخاريه استعدادا للهجوم وملاً الرعب قلب الملك ، فانطلق هاربا ومن خلفه الخنزير الثائر . . . وهرقل يكاد يستلقى على ظهره من شدة الضحك . ولم ينقل يوريثيوس إلا دخوله إحدى حجرات القصر وإغلاقها من خلفه بالمئاريس . ومنذ ذلك اليوم . . . ازداد حقه على هرقل ، وقرر أن يبحث له عن مهام وضيعة حقيرة تحط من كبريائه مدى الدهر !

* * *

وهكذا . . . وجد هرقل نفسه مكلفا بالمهمة الخامسة ، وكانت تنظيف «زرائب» «أوجياس» أمير «أوليس» .

والحق إن هذه المهمة ، كانت أحقر المهام التي كلف بها هرقل . . . فقد كانت «زرائب» أوجياس التي تقع على جبل «أوليمبوس» ، تضم قطيعا من الثيران ، يتجاوز عددها ثلاثة آلاف رأس ، غير بضعة آلاف أخرى من الماعز .

ومرت سنون تجاوزت الثلاثين ، والحظائر مهملة لم تنظف قط . . . حتى انبعث منها روائح كريهة ، وتراكت تلال الروث فوق التربة فأفسدتها ، وتآكلت أخشاب الحظائر ، وانهارت سقفها وحوائطها .

وعجب هرقل ، وهو ينظر إلى هذه الحظائر الواسعة ، من تصميم «يوريثيوس» على أن يتم تنظيفها كلها في يوم واحد . . . ولكنه مع هذا أخذ يفكر طويلا ، وهو يصعد التل إلى حيث يقع «قصر أوجياس» . . . وتقدم منه وقال له :

«أى أوجياس . . . أنا قادم إليك بأمر من «زيوس» لأنظف حظائرك ، وأزيل أقذارها !

وضحك أوجياس ساخرا وقال :

«ولكن هذا أمر فوق طاقة البشر . فقد كلفت مائة من أشد رجالى القيام بهذا العمل ، وظلوا يعملون شهرا ، وكانت النتيجة هي ماترى . أصبحت الزرائب أقذر مما كانت .

وضحك هرقل ، وقال :

- ولكنى أراهنك على أن أقوم بهذا العمل في يوم واحد . . فكيف تكافئنى إذا أديت المهمة بنجاح؟

وأجاب أوجياس : لأعطيك عشر ما أملك من ماشية وأغنام عن طيب خاطر.

ووافق البطل ، ثم قال لأوجياس :

- إذن مر رعاتك بأن يخرجوا كل مافى الحظائر من ثيران وماعز بعيدا عن الوادى ، فإن الأرض ستهتز وأنا أقوم بتنظيف الحظائر دفعة واحدة .

ولم يكن هرقل كاذبا فيما قال . . فقد انطلق ، ويده معول ضخيم ، إلى بقعة كان قد اختبرها جيدا على جانب نهر بنيوس الصغير ، وأخذ يضرب بمعوله لتحويل مجرى النهر إلى سفح التل حيث تقع الحظائر. وانحدرت مياه النهر انحدارا عنيفا إلى أسفل ، مكتسحة أمامها في سرعة عظيمة مزججة . . كل شىء ، حيث تصب آخر الأمر في مجرى نهر قديم كان هرقل قد اكتشفه في بطن الوادى .

وأخذ هرقل يضحك مقهقهها وهو يرى المياه الجارفة تكتسح الأقدار من الحظائر في لحظات وعندما اطمأن إلى أن كل شىء قد تم كما يريد . . عاد من جديد يضرب بمعوله في قوة هائلة ، فسد الثغرة التى كان قد فتحها في شاطئ نهر بنيوس وعندما نجح في وقف فيضان النهر ، انطلق إلى «أوجياس» وطالبه بالمكافأة ، ولكن هذا رفض ، قائلا : إن النهر هو الذى قام بعملية التنظيف وليس هرقل ! فسكت هرقل على مضض . . ثم انطلق عائدا إلى «يوريستشوس» ، بعد أن قال :

- فلتحذر منى يا أوجياس . . فإن عشر أغنامك التى منعتها عنى ، لاتساوى مقعد عرشك الكبير.

وقد تحقق تحذير «هرقل» ، فلم تكد تمضى سنوات حتى ذهب لمحاربة «أوجياس» ، وقتله . . وضاع بذلك عرش «أوجياس» مقابل عشر ماكانت تضمه حظائره .

أثبت نجاح «هرقل» للجميع بطولته الخارقة وقوته التى لاتجارى . . ومع ذلك ظل «يوريستشوس» مصرا على تكليفه بأعمال أخرى كثيرة شاقة . وكانت المهمة السادسة هى قتل طيور «ستيمفاليان» المتوحشة!

وكانت هذه الطيور التى تبنى أعشاشها فى جزيرة وسط بحيرة قريبة من ستيمفاليان ذات مخالب وأجنحة ومناقير من نحاس . . . غذاؤها لحم الإنسان الذى تهاجمه بمناقيرها المخيفة ومخالبها المروعة ، حتى تقضى عليه ، ثم تحمله إلى الجزيرة لتعيد الكرة مع غيره من البشر!

لقد كانت مهمة « هرقل » هذه المرة رهيبة حقا . غير أن الآلهة التى كانت تناصره ، لم تتركه هذه المرة أيضا . فقد أطل « هرقل » أمامه ، فإذا الربة « منيرفا » قادمة ، ومعها آلة نحاسية لها صليل يثير الرعب فى القلوب ، وعرف أن عليه أن يهز هذه الآلة ، فتنزعج الطيور وتخرج من أعشاشها . . . وعندئذ يتمكن من إصابتها وهى طائرة بسهامه السامة .

وفعل « هرقل » ما أمرت به منيرفا . . . وخرجت الطيور منزعجة من أعشاشها ، وصوب سهامه المسمومة إليها . ولم يكن الأمر بالسهولة التى تصورها . . فقد كان عدد الطيور ضخما لم يكد يسقط بعضها حتى تحولت نحوه سحبات كثيفة منها تهاجمه فى قسوة ، وتحاول تمزيقه بمخالبها ومناقيرها .

وبدأ « هرقل » يتراجع ، ثم أخذ يضربها بهراوته ذات البروز . . وتراجعت الطيور قليلا ، ثم عاودت انقضاضها عليه فى قسوة رهيبة أيقن معها أنه هالك لا محالة .

وفجأة . . . وقبل أن يستسلم ، رأى درعا ذهبية تحول بين الطيور وبينه ، وسمع صوت الربة « أثينا » تقول له : أرسل سهامك يا « هرقل » ، وأنجز عملك الكبير ، فدرعى تحميك ، وشجاعتك تستحق حمايتى .

وانتهت المعركة بالقضاء على كل طيور « ستيمفاليان » . . . وعاد « هرقل » منتصرا إلى « يوريسيثوس » ، ليجد أمامه مهمة جديدة شاقة . . هى القضاء على ثور كريت .

* * *

كان هذا الثور منحة قدمها إله البحر « بوسيدون » لملك كريت ، ليقدمها قربانا فوق مذبحه . . . إلا أن روعة جماله سولت للملك أن يقدم للقربان ثورا آخر ، وأن يخفى هدية رب البحر فى أحد مخابئ القصر .

وأدرك « بوسيدون » ما كان من أمر الملك ، فثار غضبه ، وقرر أن يصيب الثور بجنون مسعور ليكون لعنة على صاحبه . وأصبح الثور لعنة حقا . . فقد أخذ يحطم كل شىء فى الجزيرة ، ولم تعد تعوقه حواجز ولا أسوار ، ودب الرعب فى قلوب الأهالى .

وانطلق «هرقل» ليؤدي مهمته . ولم يكن يحس ضيقا بعمله في هذه المرة، بل لقد أحس أن العمل الجديد لن يكون شاقا . فمن السهل عليه أن يهاجم ثورا مهما تكن قوته ، وأن يمسك به ويكسر شوكتة . . ثم يعود إلى «يوريستوس» بالثور وقد صار وديعا كالحمل . وعلى هذا النحو أتم هذه المهمة فعلا .

ولعل هذا العمل الذى لم يجد فيه كبير مشقة ، كان فرصة قصيرة حظى فيها بشيء من الراحة قبل أن يبدأ تنفيذ المهمة الثامنة .

* * *

كانت المهمة الثامنة إحضار خيول «ديوميد» إلى أسوار «طيبة» . وكانت هذه الخيول خيولا مفترسة تعيش على أكل لحوم البشر . ويحتفظ بها في «تراقيا» حاكم ظالم بالغ القسوة، اسمه «ديوميد» . كان يطلق هذه الخيول على قومه كلما أراد أن يتمتع بشيء من التسلية .

وأحس «هرقل» باحتقار شديد للحاكم الجبان ، فأرسل إلى بعض أصدقائه الشجعان ليعاونوه في مهمته . وانطلقوا جميعا إلى «ديوميد» ، فانقضوا عليه واعتقلوه ، وقرروا أن يسقوه الكأس نفسها التى طالما سقاها للناس . . . فألقوا به إلى خيوله التى أخذت تركله ، وتلاعب به ، وتتقاذفه فيما بينها قبل أن تنهش جسده ، كما نهشت من قبل أجساد رعيته .

أما الخيول نفسها ، فلم يجد «هرقل» وصحبه بعد ذلك مشقة فى أن ينزلوها واحدا واحدا . . . وكل منهم يحمل هراوة وأنشودة . واستطاعوا بذلك أن يقودوها جميعا إلى «يوريستوس» ، الذى أمر بها فألقيت على منحدرات جبل «أوليمبوس» حيث لا تخطو أقدام البشر .

* * *

ثم جاءت المهمة التاسعة . . .

كانت مهمة جديدة فى نوعها . . فقد كان على «هرقل» أن يحصل على زنار «هيوليت» ملكة نساء الأمازون .

وكانت الأمازون أمة من النساء تقطن بالقرب من مكان شروق الشمس . وكن يمتن الرجال ، ولا يسمحن لأحد منهم بالنزول فى أرضهن . ومن أجل ذلك تدربن

على حمل الرماح وقذف السهام ، حتى برعن فى فنون القتال براعة فائقة . . لذلك أحس «هرقل» ثقل المهمة وإن أبى أن يتراجع عنها .

وألقى هرقل ، فى هذه المرة ، سلاحه إلى حين ، وقرر أن يستعمل براعته فى العزف على القيثارة ، وطلاقة فى الحديث الرقيق ، والعبارات الخلابة . وهى مؤهلات تجذب النساء . . خاصة إذا كن قد سمعن عن المعجزات البطولية التى حققها هرقل .

وهكذا . . . لم يجد هرقل أية صعوبة فى الدخول إلى بلاد الأمازون ، بل ولم تمض ساعات حتى دعته «هيوليت» إلى قصرها ، وعرضت عليه صداقتها وحبها ودخل «هرقل» بهو القصر الذى ترابط أمامه حارسات مدججات بالسلاح . . كلهن فتيات فارعات القوام ، تتوثب أجسامهن حيوية وقوة وشبابا وأطل «هرقل» أمامه ، فإذا «هيوليت» تنتظره فى ثوب رائع من نسيج ذهبى ، وشعرها مسترسل فوق كتفها ، يلتف حوله زنار مرصع بالجواهر النفيسة التى لم ير مثلها قط فى بلاد اليونان . . . وابتسمت «هيوليت» وهى تستقبل هرقل مرحبة :

- مرحى بك أيها البطل المغوار . . . لقد بلغتنى أنباء أعمالك الخارقة ، وشجاعتك الفائقة ، وانتصاراتك فى كل الميادين . . . من أجل ذلك لن أحملك مشاق جديدة لتتمكن من الانتصار على هيوليت . . . فخذ بيد الصداقة مالا يمكن أخذه بالقوة وهاهو ذا زنارى الذائع الصيت ، أهديه إليك طوعا واختيارا !

وانحنى «هرقل» ، وقدم لأول مرة خلال المهام الشاقة التى كلف بها ، فروض التبجيل والاحترام للملكة التى تنازلت بمنحه زنارها العجيب .

وعاد «هرقل» منتصرا ، وقدم الزنار إلى «يوريستوس» الذى لم يفرح للزنار الذهبى ، قدر ما أغضبه ذلك النصر السهل ، الذى أحرزه هرقل بغير مشقة أو جهد . . فقرر أن تكون مهمته العاشرة عملا شاقا رهيبا !

ومن ثم أمره بالرحيل إلى «قادش» للقضاء على الوحش «جيريو» ، والاستيلاء على ثيرانه .

* * *

كان «جيريو» هذا وحشا له ثلاثة أجسام ، وثلاثة رؤوس ، وستة أذرع . . يحرس ثيرانه كلب عملاق له رأسان ، يعدو بسرعة الريح ، وعندما ينبح يهتز الفضاء كله !

ونسى «هرقل» نفسه ، وهو واقف على الشاطئ يتأمل «جيريو» وكلبه ، ويضحك ملء شذقيه . وأحس «جيريو» باقتراب عدوه ، فمد أياديه الستة كلها وأمسك بصخرة هائلة ، ثم رفعها وألقى بها دفعة واحدة على البطل ، ولكن «هرقل» تحول فجأة عن طريقها ، وألقى بنفسه في خفة بين الأمواج ، ثم استدار في سرعة إلى قوسه وسهامه السامة ، وأطلق منها ثلاثة أصاب كل منها جسما من أجسام «جيريو» في مقتل . . . فخر مضرجا بدمائه ، وصبوب سهمين آخرين إلى رأس الكلب العملاق فسقط إلى جوار سيده . . ثم اتجه هرقل إلى الثيران فجمعها وساقها إلى السفينة ، وأقلع عائدا إلى «يوريستيوس» .

وكاد «يوريستيوس» ينفجر غيظا وحقدا لانتصارات هرقل المتوالية ، وذئوع صيته ، وخشى على نفسه وعرشه من نفوذ هذا البطل الذى أصبحت تصفق له بلاد اليونان كلها . فقرر هذه المرة أن يرسله بعيدا جدا . . إلى أرض موحشة تقع عبر المحيطات ، ليحضر له منها تفاحات الهسبيريدا الذهبية .



لم يكن «هرقل» يعلم مكان هذه الحديقة ، فراح يضرب في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى التقى بحوريات على ضفة نهر في إيطاليا ، قلن له : إن الإله العجوز «نيريوس» الذى يسكن على شاطئ بحر إيجه ، هو الوحيد الذى يمكنه أن يدهله عليها .

وانطلق «هرقل» إلى «نيريوس» . . إلا أن هذا رفض أن يرشده ، وتحول في الحال إلى جراداة سوداء ، سرعان ما قفزت لتختفى من وجه البطل . . . وانتبه هرقل ، ومد يده بسرعة وأطبقها على الجراداة ، فلما بها تتحول إلى ثور ضخم تقهقر إلى الخلف قليلا واندفع بقرنيه الحادين إلى هرقل . . . فحاد هذا عن طريقه ، والتف حول الثور ، وقبض على قرنيه بيد من حديد ، ولوى عنقه بشدة خار لها الثور خوارا مروعا ، ولم يحتمل وطأة الألم القاسى ، فعاد شيئا فشيئا إلى طبيعته الأولى . . ثم جثا أمام «هرقل» معلنا استعداداه لإجابته إلى طلبه ، وأخبره أن يتوجه إلى جبل شامخ في أفريقيا ، يجلس فوق قمته الملك «أطلس» الذى قضت الآلهة عقابا له ، منذ أزمان بعيدة ، بأن يحمل السموات فوق كتفيه !

وتقدم «هرقل» إلى الملك الشقى ، وعرض عليه أن يريجه من حمله ريثما يسترد قوته ونشاطه ، مقابل أن يحضر له تفاحات «الهسبيريدا» . ووافق الملك على الفور ،

وانحنى هرقل قليلا ، فنقل أطلس السموات إلى ظهره ، وانطلق ليحضر التفاحات من حديقتها .

غاب الملك بضعة أيام تعتمد أن يطيلها قدر إمكانه . وعندما عاد زعم هرقل أنه استغرق الوقت كله في البحث عن مطلبه . وأراد الملك اللئيم أن يتحلل من اتفاهه ، فأخذ يساوم هرقل في أن يبقى حاملا للسموات بدلا منه ، ويمنيه بالعودة والأمانى المعسولة .

كل هذا والبطل يعمل فكره للاهتداء إلى وسيلة تخلصه من المأزق الذى يحاول أن يوقعه فيه ذلك الملك اللعين والتفت «هرقل» إلى «أطلس» قائلا :

- إنه لشرف كبير ذلك الذى أغدقته على بحمل السموات أيها الصديق . وأى فخر سيضيفه هذا الشرف على اسمى ! لقد قبلت أن أبادلك ، إلا أن الحمل ثقیل لا أحتمل بقاءه فوق عظامى المجردة . . . فاحمله عنى قليلا ريثما أحضر وسادة ناعمة من الريش تخفف عنى وطأة الثقل . وانحنى «أطلس» بسرعة ، فى نشوة الفرحة ، ووضع التفاحات جانبا وهو ينقل السموات إلى ظهره . . . ثم أوصى هرقل بألا يغيب وإلا أصبح اتفاهها منقوضا .

ومد «هرقل» يده فاخطف تفاحات الهسيريديا ، وانقلب عائدا إلى «يوريسيثوس» .

* * *

وبقيت أمام هرقل المهمة الأخيرة . . . وكان «يوريسيثوس» قد أعمل فكره ، مدة غياب هرقل ، فى تدبير المهمة التى تستعصى على البطل ، ويشق عليه أن ينجح فيها . . . فيما لو عاد سالما ومعه التفاحات . واستقر رأيه أخيرا على أن يأمره باحضار «الكلب كروبيروس» . . حارس أبواب العالم السفلى !

وكانت هذه المهمة شاقة حقا ، تفوق فى قسوتها ومشقتها المهام الإحدى عشر السابقة كلها مجتمعة .

ومع ذلك ، انطلق «هرقل» إليها ، فى جرأة عجيبة ، واستخفاف ظاهر . . . وصعد جبال «أركاديا» إلى النبع البارد الذى تنحدر مياهه إلى وادى «نهر ستكس» الذى يصب بدوره فى الوديان السفلية المجهولة .

وبالرغم من أن «هرقل» كان يعلم مدى عنف هذا النهر واصططخاب أمواجه في قسوة تغل الحديد . . . إلا أنه حزم أمره، وألقى بنفسه في دوامة النهر الجارفة، فحملته بأسرع من لمح البصر من طبقة سفلية إلى أسفل منها . . . حتى وجد نفسه خلال لحظات في «بحيرة ستكس» .

وهناك على حافة البحيرة : كان «خيرون» - ناقل الأرواح الأزلى - قابعا إلى جوار قاربه المصنوع من لحاء الشجر، مرسلا بصره النافذ يتفحص القادمين لينقلهم إلى أغوار العالم السفلى . ولمح «خيرون» هرقل فتعجب من أمره وقال له :

- أى ريح قذفت بك أيها الحى إلى هنا؟ ابتعد عن هذا المكان، فإن قارى لا يحمل إلا الموتى !

فأجابه هرقل :

- أنا «هرقل» بن «زيوس»، رب الأرباب . . . كلفنى أبى أن أنفذ أوامر «يوريستوس» التى تقضى بأن أعود إليه ومعى «الكلب كروبيروس» .

وهذا روع «خيرون» واقترب بزورق الموتى من هرقل ، ودعاه إلى الركوب بجانبه .

ولم يكد الزورق يصل إلى الشاطئ الآخر، حتى قفز منه «هرقل» ، واتجه صوب مدخل «قصر بلوتو» المظلم . . . رب العالم السفلى .

وعلى أبواب العالم السفلى ، ربض «الكلب كروبيروس» ذو الرؤوس الثلاثة، وحين أحس بقدوم «هرقل» أخذ كعاداته في إرهاب الأرواح، ينبح نباحا أجش منكرا في وحشية وقسوة . ولم يعبا «هرقل» وتقدم في طريقه في جرأة، أذهلت الكلب عن مهمته ، فأخذ يتقهقر إلى الوراء كلما خطا البطل إلى الأمام . . . حتى وصل الكلب إلى قاعة «بلوتو» فألقى أمام ربه ، وعيناه تحدقان في القادم الغريب !

وكان رب العالم السفلى جالسا على عرشه الأبنوسى المرتفع ، وإلى جواره حبييته «برسيفون» . . . وحين أبصر «بلوتو» هرقل قادما، عبس في وجهه، وصاح في غضب :

- كيف تجرأت على دخول مملكتى أيها الحى ؟ !

فأجاب هرقل في قوة وترفع :

- أنا «هرقل» بن «زيوس» ، أمرنى «يوريستوس» بأن آتية بالكلب كروبيروس ، حارس الأبواب .

وأدهشت هذه المرأة «بلوتو» ، وقال متسائلا :

— أمجنون أنت؟ كيف تطلب منى أن أعطيك كلبى . . . من إذن يحرس أبواب المملكة؟

فأجابه هرقل :

— إنه أمر «زيوس» ، ولابد من تنفيذه . . . لقد كلفت قبل ذلك إحدى عشرة مهمة فنجحت في إتمامها جميعا ، ولم تبق أمامى سوى هذه المهمة الأخيرة . . . وإن لديك من الحراس عددا كبيرا يستطيع أن يؤدى عمل «كروبيروس» . وأظن أنه خير لك أن آخذ «كروبيروس» بدلا من أن أهدم مملكتك على رؤوس سكانها .

وانتفض «بلوتو» ، وأدرك أنه خير له أن يجيب طلبه ، فقال فى هدوء :

— لا بأس . . . خذ «كروبيروس» ، ولكنى أستحلفك أن تعيده إلى .

ومد هرقل يده ، وربت على ظهر الكلب الذى استكان له ، وقاده «هرقل» ومضى عائدا إلى عالم الأحياء . . . إلى قصر «يوريستيوس» .

وما كاد الأخير يرى الوحش حتى غاض الدم من وجهه ، وصرخ فى رعب طالبا إعادة الكلب إلى عالمه .

وأحس «هرقل» لأول مرة - وهو ينطلق عائدا إلى عالم الأرض - راحة غامرة ، وخاصة بعد أن رد «كروبيروس» إلى «بلوتو» . . . وتنفس الصعداء حين بات حرا طليقا ، وقد سقطت عنه عقوبة الخضوع «ليوريستيوس» بعد أن أدى المهام الاثنتى عشرة بنجاح كبير.

أسطورة إغريقية اختطاف برسيفون

كانت « ديميتير » واحدة من بنات الإله « ساتورن » ، أول من جلس على عرش « أورانوس » - من روحته « ريا » واستطاعت « ديميتير » أن تكسو الأرض منذ هطت إليها بالأزهار والغابات والحقول .
فجعلها اليونان ربة الأرض ، ومثلوها امرأة تنوح رأسها سنابل القمح وأزهار الحقول ، وتمسك بإحدى يديها منجل الحصاد ، وباليده الأخرى حرمة من نأت القمح ، واعتادوا أن يحتفلوا بها كل عام عند قدوم الربيع ، حيث يقدمون لها حنريرا لترضى عنهم وتبارك محاصيلهم !

لم يكن لوادى « انا » نظير بين أودية الجبال . ومع أنه كان يقع فى أعلى قمة من قمم جبال صقلية ، كانت الرياح العاتية لا تستطيع أن تقترب منه ، بل كانت تهب عليه نسائم رقيقة حانية من رياح الغرب .

وكانت حشائش الوادى ، لذلك ، خضرا لا تحف ، وأزهاره متفتحة لا تذبل . أما الأشجار ، فكانت تنساب من خلالها غدران باردة تتلأأ مياهها ، فتبدو كأنها انعكاسات فضية من السماء . وكانت « ديميتير » - أعقل الآلهة جميعا : أم الأرض ، وربة كل ما ينبت فيها من نبات ، وما يدب على سطحها من حيوان - تعيش فى أعماق هذا الوادى الجميل .

وكانت « ديميتير » تسمح لابنتها الصغيرة « برسيفون » بالخروج بضع ساعات كل يوم للعب فى مروج « انا » العجيبة . ولذلك لم يكن غريبا أن تخرج « برسيفون » فى ذلك اليوم لتلعب مع أترابها من بنات حوريات الوادى . . . يخلعن نعالهن ، ويعدون بأقدامهن العارية على الحشائش الرطبة اللينة . وصاحت « برسيفون » فى لداتها خلال الضحك والمرح :

- هيا بنا نقطف الأزهار .

وهللت الصغيرات ، وطفقن يجمعن ما طاب لهن من زهور جميلة بين بنفسج وزنبق وسوسن أرجوانى .

ولفتت الأصوات المرحة الضاحكة انتباه « بلوتو» . . إله العالم السفلى ، حين كان مارا في مركبته الداكنة التى تجرها أربعة جياد ، فى سواد الليل البهيم .

وأطل « بلوتو» إلى الصغيرات ، فأعجبته تلك الصبية الضاحكة الحلوة ، التى كانت تقفز هنا وهناك ، فى مرح لم ير مثله قط فى عالمه المظلم المخيف .

وتوقف « بلوتو» ، واستغرق فى دوامة هائلة من التفكير . . لقد تصور مملكته الكثيرة القائمة ، ومحاولاته الدائمة فى البحث عن ربة ترضى أن تشاركه الجلوس على عرش العالم السفلى ، وماكان يقابل به دائما من رفض الربات كلهن الاستماع إلى توسلاته ، فلم تقبل واحدة منهن الهبوط إلى عالم مظلم لا تشرق عليه الشمس ، ولا تشدو فى أجوائه الطيور .

وكان بلوتو - لشدة شوقه إلى ملكة تجلس بجواره ، ويأسه وألمه من محاولات الحصول على بغيته عن طريق الإقناع - قد قرر أن يستعمل القوة للوصول إلى تحقيق مرامه .

ورأى بلوتو - فى هذه اللحظات بالذات - « برسيفون» ، وأيقن أن جمالها الوضاء ، وفتنتها الطاغية ، هما القادران على بعث الحياة فى مملكته الخاملة الكثيرة . . . وهكذا قرر أن يختطفها !

أما « برسيفون» فلم تنتبه إلى وجود غريب فى مكان مرحها . وانطلقت فى ضحكها ومرحها . . . متنقلة من زهرة إلى زهرة .

وفجأة . . . لمحت « برسيفون» زهرة رائعة لنوع عجيب من النرجس ، ملكت عليها حواسها ، وأنستها كل ماعداها .

وقفزت الصبية إليها ، ووقفت إلى جوارها ، وراحت تتأملها فى سرور وإعجاب . . . لقد كانت تختلف عن كل زهرة رأتها من قبل ، وكانت ساق الزهرة تحمل مالا يقل عن مائة نورة ، أما شذاها فقد ملأ أريجها العطر أرجاء الوادى ، وانتشرت على قمة الجبل .

ونادت « برسيفون» رفيقاتها ليشهدن معها جمال الزهرة العجيبة ، إلا أنهن لم يسمعنها ، فقد كن ابتعدن عنها كثيرا فى عدوهن بين المروج .

واندفعت « برسيفون» لتقطف الزهرة ، وأمسكت بعودها فأحست كأنه حية رقطاء تتلوى بين أصابعها . . . وحاولت أن تكسر العود ، فلم تتمكن ، ولم تجد وسيلة إلا أن تقتلعه من جذوره ومالت على الشجيرة تقتلعه ، فأحست بالتربة السوداء تلين حولها ، ثم انشقت الأرض فجأة عن مغارة سوداء فسيحة ، وثبت منها أربعة جياد سود ، تجر مركبة داكنة ، يجلس فيها ملك متوج ، لم يسبق لعين أن رأت مثله على ظهر الأرض !

وارتعدت الصبية مذعورة ، إلا أن «بلوتو» كان قد قرر أن يأخذها عنوة . . فلم يترك

لها الفرصة لتسترد أنفاسها اللاهثة ، فانقضض عليها ، ورفعها بين يديه وأجلسها بجانبه ، ثم ألهب ظهور جياده ، فانطلقت تسابق الريح !

ظل « بلوتو » ينهب الأرض بمركبته ، والقلق يملأ قلبه خشية أن تلاحقه « ديميترا » ، فتسترد ابنتها الحبيبة . ولم يحاول أن يتوقف قليلا ليريح الجياد . . . بل كان كلما تباطأت ، أو خيل إليه أن سرعتها قلت عن ذى قبل ، انهال عليها بسوطه في قسوة ، فاندفعت والزبد يتناثر من أشداقها .

وبلغ بلوتو آخر الأمر نهر « سيان » ، فوجد أمواجه صاخبة مرغية مزبدة ، تقطع عليه طريق الحرب . . . وأصبح محاصرا لا يمكنه أن يتقدم إلى الأمام ، ولا يجرؤ على أن يعود إلى الخلف .

ثم تذكر رحمة المقدس ذا الشعبين ، فتناوله ورفعته إلى أعلى ، وضرب به الأرض ضربة قوية ، فانشقت عن هوة واسعة ممهدة . . . انحدر إليها بعربته وجياده وأسيرته ، وراح يخترق أعماق الأرض حتى بلغ مملكته في عالم الموت .

* * *

أما « ديميترا » ، فقد كانت تشرف على الحصاد في بلد آخر بعيد عن وادي « انا » . . . إلا أن صرخات « برسيفون » المتعسة سكت - على بعد الشقة - سمعها ، فاندفعت إلى الوادي صارخة مولولة تنادى ابنتها ، ولكنها لم تسمع لنداءاتها ردا سوى رجع الصدى ! وامتلأ قلب « ديميترا » أسى ولوعة ، وراحت تذرع الوادي طولا وعرضا باحثة عن ابنتها . . . تندبها وتبكيها في حرقة ولوعة ، وقد يئست تماما من العثور عليها .

ونادت « الربة » رسولها الخاص . . . طائر الكركى الأبيض ، الذى يجلس الأمطار . . . وأمرته بالبحث عن ابنتها ودار الطائر حول العالم دورة سريعة ، جاب فيها الأقطار ، وعاد إلى ربه بلا خبر .

ومضت الأيام ، ولم تعد « برسيفون » .

وصعدت « ديميترا » إلى قمة جبل « أثنا » ، ثم راحت تقطع الفياض والقفار ، وتطوف مشارق الأرض ومغاربها . . . تتسلق المرتفعات ، وتهبط الوديان ، وقد ولى صباها ، وانحنى ظهرها لثقل ماتنوء به من هم على فقدان ابنتها .

وكانت « ديميترا » تخترق ، ذات يوم ، صحراء جرداء قاحلة ، فاشتد بها العطش وأدركها الإعياء فسقطت على الرمال . . . وما كادت تنهض حتى تعثرت وسقطت ، وأحست ببوارد الهلاك تدب في جسدها ، وراحت في غيبوبة طويلة .

وفتحت « ديميتير » عينيها ، فوجدت إلى جوارها « هيكيث » حاملة في يدها مصباحا ، وتبدو كمن تبحث عن شيء . . . وقدمت إناء ممتلئا إلى « ديميتير » فشربته إلى آخر قطرة . ثم سألتها عن قصتها ، فحكّت لها « ديميتير » قصة ابنتها . وأخبرتها « هيكيث » أنها سمعت هذا الصراخ ، مصحوبا بقرقرة عجالات رهيبة ، ونصحتها بأن تلجأ إلى « أبوللو » إله الشمس . . . فهو الوحيد الذى يمكنه أن يدها على مكان ابنتها .

وانغلقت « ديميتير » إلى رب الشمس ضارعة متوسلة وكان « أبوللو » جالسا في مركبته استعدادا لاستئناف رحلة كل يوم عبر السماء . وعندما سمع توسلاتها ، أوقف جواده النارية ، وأخبرها أن « بلوتو » رب العالم السفلى هو الذى خطف ابنتها ، وأخذها لتقيم معه في الأعماق المظلمة !

وعندما عرفت « ديميتير » حقيقة الأمر ، أدركت أن ابنتها لن تعود . . فنضت عنها ثياب الآلهة ، وقررت أن تعيش على الأرض متنكرة في زى عجوز حطمتها السنون . .

وعاشت « ديميتير » على الأرض تجوب أرجاءها آناء الليل وأطراف النهار دون أن يعرفها أحد . . . إلى أن وصلت ، ذات يوم ، إلى « اليوسسس » مجهدة قد نال منها الإعياء والتعب . . . وأخذت تتجول في شوارع المدينة ، حتى وجدت نفسها داخل حديقة جميلة ، فاستندت إلى سياج رخامى يحيط بنافورة تتوسط الحديقة .

وشاهدت « ديميتير » بعد برهة أربع فتيات في سن ابنتها يمرحن في الحديقة . . . وتصورت « برسيفون » الضاحكة ، وكيف كانت تمرح كالزهرة بين الزهور ، فتحدت على خديها خيوط متصلة من الدموع . . . وانتبهت الصبيات إلى العجوز الباكية ، فاقتربن منها ، والتفنن حولها وأخذن يسألنها عن سر بكائها وحزنها .

فأجابت بأن لصوصا اختطفوها من بين أهلها ، ولكنها تمكنت من الهرب منهم ، وظلت تجرى حتى وجدت نفسها في هذا المكان ، ولم تعد تعرف مكانا تأوى إليه .

وتركتها الفتيات الصغيرات بعد أن استأذن منها وانطلقن إلى قصر أمهن الملكة « ميتانيرا » ، وأخذن يحدثنها عن العجوز الطيبة ، ويطلبن منها أن تدعوها إلى القصر . واستجابت الملكة لفتياتها الصغيرات ، وأذنت لهن باستدعاء العجوز .

ودخلت « ديميتير » القصر ، فأكرمت « ميتانيرا » وفادتها ، وجلست تتجاذب معها الحديث . وعرفت « ديميتير » من ثنايا الحديث ، أن ابن الملكة الصغير يعاني مرضا عضالا ، حار في علاجه الأطباء . . وطلبت « ديميتير » أن ترى الطفل ، فقادت الملكة إلى فراشه ، فنظرت العجوز إليه ، وقالت لأمه إن علاجه سهل عليها ، وإن في إمكانها إنقاذه ، وإن كان في حاجة إلى عناية فائقة حتى ينجو من الخطر .

واستعظفت الملكة ضيفتها العجوز أن تبقى معها ، وأن ترعى الطفل . . . فقبلت ديميتري ، وطلبت أن تخصص لها حجرة تقيم فيها مع الطفل حتى تتمكن من علاجه .

ومرت الأيام . . وصحة الصغير تتقدم يوما عن يوم حتى تم له الشفاء . ثم مرت الشهور ، والطفل ينمو ، ويزداد تعلقه بالعجوز التي لم تعد تطيق فراقه لحظات . . بيد أنها خلال ذلك لم تكن لتنسى ابنتها الغائبة « برسيفون » ، فكانت متى هبط الليل ، وأغلقت عليها حجرتها ، تبكى بكاء مرا حتى يغلبها النوم على أمرها .

وكانت الغرفة التي تقيم فيها « ديميتري » ، متى جاء الهزيع الأخير من الليل ، تضئ كأن نور الشمس يسطع فيها ، وتنبعث من جسمها نار ذات لهب ، فتنهض من فراشها ، وتمسك بالطفل بين يديها ، وتغمره في تلك النار المقدسة . . . والطفل يضحك ، ويضرب برجليه في الهواء . . ثم تحمد النار بغتة ، وتظلم الحجرة ، فتعود « ديميتري » إلى فراشها وبجانبها الطفل .

ولم يكن أحد يدري سر ما يحدث ، حتى سرت إشاعات في القصر بأن العجوز تشعل النيران في حجرتها ، وأنها تحاول إلقاء الطفل فيها . وأسرت بعض الوصيفات ، ممن تجسسن على العجوز ، الأمر إلى الملكة . . . فامتلاً قلبها رعباً ، ونهضت في الوقت الذي حددته الوصيفات ، وأطلت من ثقب باب حجرة العجوز ، فرأت نوراً يهر البصر . ولم تطق الأم صبرا ، فدفعت الباب بقوة فانفتح على مصراعيه ، فإذا النار تملأ الغرفة ، وتندلع ألسنتها من جسم العجوز ، وإذا بتاج من النيران ينعقد فوق رأسها ، والطفل في أعماق اللهب !

وصرخت الأم مذعورة . وفي لمح البصر تبدل كل شيء . . . خمدت النيران ، وأظلمت الغرفة إلا من الضوء الباهت المنبعث من المشعل الضئيل . وأطلت الأم فرأت طفلها نائماً نوما عميقاً في فراشه . أما « ديميتري » فكانت واقفة والشرر يتطاير من عينيها ، وأسرعت الأم إلى طفلها تحتضنه . . . وتكلمت ديميتري في صوت رهيب :

- أيتها الأم . . لقد حرمت ولدك نعمة الخلود بجهلك وتسرعك !

وأدركت الملكة أن ضيفتها ليست إلا إحدى الربات الخالدات ، فجثت على ركبتيها متوسلة :

- عفوك يامولاتي . . لقد رأيتك تلقين بابني في النار ، فلم أتمالك نفسي .

وأجابت « ديميتري » :

- لقد جاهدت طوال هذه الشهور لكى تبيد النار المقدسة عناصر الفناء في جسم

ولذلك فيمنح الخلود ، وكادت جهودى تكمل بالنجاح لولا تدخلك .
وبكت الأم فى أسى ، وتحرك قلب «ديميتر» شفقة ، فابتسمت قائلة :
- حسنا . . لئن كان ابنك قد حرم الخلود . . إلا أن الآلهة ستهبه ذكاء نادرا ، وقوة خارقة . . وسيكون طويل العمر ، محبوبا من الناس جميعا .
ولم يكن أمام « ديميتر » إلا الرحيل ، بعد أن افتضح تنكرها ، واضطرت إلى الظهور فى زيتها المقدس . . إلا أنها قبل أن تمضى وعدت بالعودة إلى المدينة إذا أقيم فيها معبد تقدم فيه القرابين .
ولم تمض أشهر قلائل ، حتى كان أهل «اليوسس» قد أقاموا معبدا عظيما للإلهة «ديميتر» . . . وماهى إلا أيام ، حتى عادت الربة لتقيم فى معبدها الخاص . . وقد عقدت العزم على اعتزال جميع الآلهة إلى أن تعود إليها « برسيفون » !
ومرت الأيام . . . وكانت «ديميتر» قد أهملت الحب فى الأرض ، فلم يعد ينمو فيها نبات ولا زرع ، ونذر القمح حتى خلت منه الطواحين ، وجفت الحشائش ، وتجردت الأشجار من أوراقها ، ورحلت الطيور عن الأرض ، وهزلت الماشية . . وبدأت معالم الحياة تختفى ويبدأ رويدا رويدا على ظهر الأرض .
وارتفعت صرخات الإنسان والحيوان ، متوسلة إلى «زيوس» ، رب الأرباب ، أن يتدارك الكون بحكمته قبل أن يحل به الخراب .
وأطل « زيوس » من عليائه فوق قمة الأولمب ، فرأى الأرض يخيم عليها شبح الفناء ، وأدرك أن الآلهة غضبى لحرمانها من القرابين التى كانت تقدمها « ديميتر» .
واستدعى زيوس الربة «ايريس» وحملها رسالة إلى « ديميتر» أن تعود إلى الأرض . . ولكن «ايريس» عادت باكية بكاء مرا . . فقد أثار حزنها منظر ربة الأرض فى نحيبها الشقى على ابتتها الحبيبة «برسيفون» .
وأرسل «زيوس» الآلهة واحدا واحدا . . إلا أنهم فشلوا جميعا فى إقناع ربة الأرض بالعودة إلى مكانها ، وعادوا إلى «زيوس» يجرّون أذيال الفشل .
ولم يجد «زيوس» بدا من أن يرسل رسوله «هرمز» إلى مملكة «بلوتو» لإقناعه بإعادة «برسيفون» إلى أمها . . إلا أن الإله الكئيب ، لم يكدر «هرمز» حتى سخر منه ، وأبى أن يرد «برسيفون» .
أما هى فلم تكدر ترى رسول رب الأرباب ، حتى استخفها الطرب ، وطار لبها شوقا إلى أمها ، فوثبت من فوق العرش !

وهنا وجد «بلوتو» نفسه مضطرا إلى القبول فأمر بإعداد مركبته ذات الجياد السود، لكي تنقل «برسيفون» إلى الأرض .

وقبل أن تصعد إلى المركبة، سألتها «بلوتو» أن تأكل رمانة من أشجار حديقته، فتناولت «برسيفون» واحدة، أكلت منها أربع حبات، ثم انطلقت بها المركبة ومعها «هرمز» إلى حيث كانت أمها «ديميتر» جالسة تبكي .

وهتفت «ديميتر» في فرحة فياضة، عندما رفعت رأسها فرأت أمامها ابنتها تناديا، واندفعت إليها تحتضنها، وتقبلها في نشوة غامرة وعاطفة جارفة .

وبينما الأم وابنتها على هذه الحال . . تذكرت «ديميتر» فجأة شيئا كان قد غاب عنها، وهتفت في ابنتها تسألها في قلق :

- خبريني يا بنيتي . . هل تناولت طعاما منذ انتقالك إلى العالم السفلي ؟

فأجابت «برسيفون» :

- أربع حبات فقط من الرمان . . .

واستولى على «ديميتر» ذعر رهيب، ورفعت رأسها إلى «زيوس» ولكنها كانت تعلم الرد الوحيد الذي لا يمكن لأحد، حتى رب الأرباب نفسه، أن يقضى بسواه !

- إن على «برسيفون» أن تعود إلى العالم السفلي لتقيم مع «بلوتو» أربعة أشهر من كل عام، شهر لكل حبة من حبات الرمان .

وكان ما لا بد أن يكون !

وعادت «ديميتر» ربة الأرض إلى واديها الجميل في «انا» ومعها «برسيفون». ومع عودتها نبت الحب، واخضرت الأشجار، وأزهر الزرع، وعادت أسراب الطيور إلى تغريدها، وعلى رأسها «الكركي» رسول ربة الأرض . . وأصبحت «برسيفون» من ذلك الوقت ربة الربيع .

إلا أن ذلك كله كان يختفى ويتوقف، أربعة أشهر من كل عام، وهي أشهر الشتاء المظلمة، عندما تأتي مركبة داكنة تجرها أربعة خيول سود، فتحمل «برسيفون» إلى العالم السفلي !

ولم تعد «ديميتر» تبكي . فإن ابنتها الحبيبة «برسيفون» تسعدها بجوارها ثمانية أشهر في كل عام !

أسطورة سويدية نجمة من السماء

اشتهرت بلدان الشمال - وهي ايسلندا والدانمرك ، والنرويج والسويد - بشراء واسع في الأساطير والحكايات الشعبية التي ازدهرت لأكثر من ألف سنة .

وأبرز أساطير هذه الدول الأربع ، الأساطير التي اشتهرت بها ايسلندا . إذ كان لها أكبر الأثر في كل ما أبدعته الآداب الدانمركية والنرويجية والسويدية بل وآداب إنجلترا وفرنسا وألمانيا .

وقد ظلت هذه الأساطير مطوية في مجموعات الميثولوجيا والدين والتاريخ ، حتى ظهر كتاب في القرنين التاسع عشر والعشرين جعلوا مهمهم الأول إحياء هذه الأساطير وإخراجها إلى عالم النور .

أحس أنها مغامرة مجنونة . . . ولكنه مع ذلك شعر بلذة كبيرة ، وانطلق إلى قصر الملك فأعلن أنه يقبل الشرط الذي تطلبه الأميرة ممن يريد زواجها . . .

فقد كانت الأميرة ذات جمال ساحر يبهر النظر ، ويأخذ بمجامع القلوب . وكانت على حق حين اشترطت ألا تتزوج إلا من يأتي بالمعجزات . وحددت الأميرة المعجزة التي تطلبها من فتاها المختار . . . كان عليه أن يحضر للأميرة نجمة من السماء !

وكان الفتى يعرف أن أحدا من أهل الدنيا لم يجزؤ على التقدم بطلب يد الأميرة ، لأنه ما من أحد يستطيع أن يحقق هذا المطلب المستحيل ، ولأن الملك كان قد أعلن أن من يدعى القدرة على تحقيق هذه المعجزة ثم يفشل ، سيكون جزاؤه الموت .

وأعرض شباب المملكة عن خطبة الأميرة ، وكفوا أنفسهم عاقبة الفشل في تحقيق المستحيل ، وقد أدركوا أن الأميرة إنما اشترطت هذا الشرط لتقف في وجه أبيها الذي لا يفتأ يلح عليها في الزواج . . . بعد أن صممت على ألا تتزوج بعد مصرع حبيبها في مبارزة كان أبوها الطرف الثاني فيها !

وبالرغم من ذلك ، فقد قرر هذا الفتى أن يتقدم للزواج من الأميرة ، وأعلن في جراءة متهورة أنه من أجل الحصول عليها ، سيحقق لها شرطها ، وسيحضر لها نجمة من السماء .

وانطلق الفتى إلى بغيته ، واتخذ وجهته صوب جبال تناطح السحاب ، وتبدو في الأفق البعيد كأشباح باهتة تختفى وراء سحب من الضباب الداكن . ومضى في طريقه يجتاز الصحارى القفرة ، والوهاد الجرداء ، ويصعد التلال ويهبط الوديان . . . واضعا نصب عينيه أن يبلغ أعلى قمة في جبال الدنيا قاطبة ليسهل عليه أن يمد يده من فوقها فيمسك بنجمة في السماء . . . وكلما بلغ قمة عالية ، راعه ما بينها وبين السماء من مسافات شاسعة ، فيمضى باحثا عن أعلى منها . وظل على هذه الحال حتى نال منه الإعياء وبلغ به الجهد غايته ، وتهالك فوق أعلى القمم . . . وشبح الموت يخيم فوق رأسه : فلا هو بقادر أن يعود إلى بلده فاشلا ، ولا هو بقادر أن يبقى حيث هو . . . فالموت متربص به في الحالتين . وانهارت آماله ، وانتابه يأس مرير ، وخارت قواه تحت وطأة الفشل الذريع ، فراح في إغماء طويلة .

وأفاق الفتى في ذهول ، لا يدري من أمر نفسه شيئا ، وأخذ يستجمع شتات فكره ، ويحاول أن يستعيد في ذهنه المكدود أسباب وجوده في هذا المكان .

وترامت إلى مسامعه - وهو على هذه الحال - خطوات ثقيلة يزلزل وقعها قمة الجبل . ولم يلبث أن رأى أمامه عملاقا هائل الحجم يقترب حتى وقف أمامه ، وإذا بالعملاق الرهيب يسأله في رقة بالغة :

- أى بنى ! ما الذى أتى بك إلى هذا المكان؟ وما سبب الحزن البادى عليك . . هل ضاع منك شيء؟

فأجابه الفتى في فزع :

- كيف لأحزن والموت يوشك أن يتخطفنى ! ولكنى لا ألوم إلا نفسى . . . فقد ملأنى الغرور ، فادعيت أن بإمكانى إحضار نجمة من السماء للأميرة . وكان في تقديري أن السماء لا ترتفع إلى قمة أعلى الجبال ، ولكن خاب تقديري . وهأنذا عاجز لا أملك إلا أن أعود إلى قصر الملك معلنا فشلى ، فيطيح برقبتي سيف الجلاد !

قال الغريب :

- لاتحزن يا بنى . . اركب فوق ظهري ، وأمسك جيدا بعنقي ، وتذكر دائما ، عندما نرتفع في الفضاء ، أن النظر إلى الأرض محرم عليك !

واعتلى الفتى ظهر الغريب الذى ارتفع كعقاب الجو، وظل طائرا والفتى مغمض العينين لا يحس من حوله سوى الفضاء . . . إلى أن سمع صوت العملاق بعد فترة يقول له :

- افتح عينيك ، وارفع رأسك ، وانظر . . . ماذا ترى؟!
وفتح الفتى عينيه ، وأطل إلى فوق . . . كانت السماء فى متناول يده ، والنجوم تسبح فيها ، وتكاد تصطدم به!

وصرخ الفتى :

- إنها النجوم . . . النجوم!

فهتف العملاق قائلاً :

- أسرع الآن واخطف أقرب نجمة إليك .

ومد الفتى يده فى سرعة ، واختطف نجمة قريبة .

وفى نفس اللحظة اختفى الغريب ، وصار الفتى معلقا فى الفضاء ، يتأرجح يمينا وشمالا . . . يعلو ويهبط ، ولا شىء يحمله على الإطلاق! ولكنه رغم ذلك لم يفلت النجمة من يده ، بل ظلت أصابعه قابضة عليها فى قوة . .

وفجأة أحس بجسده كله يرتطم بالأرض ، بعد أن ألقت به فى الهواء دوامة عاتية . وعندما سكنت الريح ، أطل حوله فإذا به فوق بساط رقيق من الحشائش السندسية . وتحسس يده فإذا النجمة لاتزال فيها ، فملأه الفرح ، وأدخل كفه فى جيبيه ليضع النجمة فى مكان أمين ، ثم مضى ليعلم إلى أين يسير ، ولا إلى أى مكان تقوده قدماه . . .

وفى أثناء سيره لمح ثلاثة رجال ، وقد أمسك بعضهم بخناق بعض فتقدم منهم بقصد تهدئتهم ثم سألهم :

- فيم تتنازعون أيها الرفاق؟!

فأجابوا فى صوت واحد :

- نحن أخوة ثلاثة ، مات والدنا ولم يترك لنا سوى قبعة واحدة . ولسنا ندرى كيف السبيل إلى اقتسامها ، ولا كيف يحصل كل منا على نصيبه؟!

قال الفتى :

- أمن أجل قبعة تافهة يختصم الأخوة ويتضاربون؟ . . . يالكم من أغبياء جهلة!
قال أحدهم:

- لسنا أغبياء يا صاح ، وليست القبعة شيئا تافها ، فإنك لاتدرى أى معجزة تحمل
هذه القبعة . إن من يضعها على رأسه ، يختفى عن الأنظار فورا! وذلك سر قوتها ، وسر
اهتمام كل منا بالحصول عليها .

فهز الفتى كتفيه ، وقال فى استخفاف :

- هل تسمحون لى برؤيتها ، حتى أحكم على مقدار قوتها ، ثم أفصل فى الأمر
بالعدل؟!!

ومد يده فتناول القبعة ، وأخذ يقلبها بين يديه فى ازدراء ، ثم رفعها إلى رأسه فى بطاء ،
مظهرا علامات الاستهانة وقال :

- لأجربها حتى أعلم عن يقين قيمتها!

وهتف الأخوة الثلاثة فى صوت واحد :

- حذار . . . فإنك لو وضعتها على رأسك ، فستختفى عن أنظارنا فلا نستطيع أن
نراك!

فقال الفتى وهو يثبت وضع القبعة فوق رأسه :

- لاتخشوا شيئا ، فلن أتركها على رأسى طويلا!

وماكاد يتم قوله ، حتى اختفى تماما . . . وأسرع فى هدوء مبتعدا عن مكان الأخوة
الثلاثة . ومكث هؤلاء ينتظرون أن يخلع الفتى القبعة ، ويصدر حكمه فى الأمر . . . إلا
أن انتظارهم طال دون جدوى ، وتملكهم القلق ، وقال واحد منهم آخر الأمر ، وهو يهز
رأسه فى ارتياح :

- حقا . . لقد حكم بيننا بالعدل ، وليس فىنا الآن من يملك شيئا يزيد على أخيه!

وانتهى الخلاف بين الأخوة ، فلم يعد هناك شىء يختلفون عليه!

ومضى الفتى مسرعا يبغي الوصول إلى قصر الملك ، وقد اطمأن إلى أن أحدا لن
يستطيع سرقة النجمة منه ، مادام مختفيا تحت القبعة السحرية .

وظل الفتى سائرا . . . والطريق طويل ، وقصر الملك لايريد أن يظهر قط .

وصادف في أثناء سيره ثلاثة رجال يتجاذبون حذاء كبيرا، وكادت تنشب بينهم معركة عنيفة، حال دونها ظهور الفتى المفاجئ بعد أن خلع قبعته وتقدم منهم متسائلا عن سبب النزاع؟ فأجابه الثلاثة في نفس واحد:

- نحن ثلاثة أخوة . . . مات أبونا ولم يخلف لنا سوى هذا الحذاء . ولا نعرف كيف نقتسمه، ولا كيف ينال كل منا نصيبه من ميراث أبينا دون أن ييغى أحد منا على حق الآخرين!

وقال الفتى:

- عجباً لكم أيها الأخوة! أينازع الأخ أخاه من أجل حذاء تافه؟! يالكم من أغبياء! فأجابه أكبرهم:

- إن لهذا الحذاء قيمة لا تعدلها سبيكة من الذهب الإبريز. . ما إن تضعه في قدميك حتى تجد نفسك في أى مكان تريد، مهما بعدت شقته، دون أن تشعر بتعب على الإطلاق.

وتعجب الفتى، وهز رأسه في إنكارا

فقال الأخ الأكبر:

- خذ، جربه، فستعلم أننا لا نكذب عليك.

وتمنع الفتى في مبدأ الأمر، ثم تناول الحذاء بيديه، وأخذ يقلبه في ترو وحرص. وبدأت عليه علائم الحكمة العميقة والوقار. . . والأخوة يتهايمسون فيما بينهم بأنه قد آن لهم أخيراً أن يحلوا المشكلة على يدى هذا الحكم العادل الذى وضعتة الأقدار في طريقهم. وألح الثلاثة على الفتى أن يضع الحذاء في قدميه ليتأكد من صدق دعواهم. . . فأذعن أخيراً لإلحاحهم، ورضى أن يجرب الحذاء!

وما كاد يدخل قدميه في الحذاء، حتى ثبت القبعة المسحورة فوق رأسه، واختفى عن الأنظار.

وطال انتظار الأخوة لعودته. فلما يشوا، وأدركوا أن ماكان يدعوهم للتنازع قد ضاع من أيديهم. . . تصافحوا، وكان لم يكن بينهم أى خلاف.

وطار الفتى بحذائه وقبعته المسحورين، متعجلاً الوصول إلى قصر الملك. . . وفى طريقه ترامت إلى أذنيه أصوات عراك، فتوقف وخلع قبعته، فإذا به أمام ثلاثة

يتشاجرون ، فحدث نفسه بأنهم لابد أخوة يتنازعون على ميراث . . . وصدق حدسه فقد كان جوابهم - حين تقدم منهم سائلا - مصدقا لما جال بخاطره .

وأبصر الفتى . . . فإذا الشيء الذى يتنازع عليه الأخوة الثلاثة ، عصا معقوفة تبدو كفرع مكسور من شجرة . وكاد الفتى يمضى منصرفا إلى حال سبيله ، لولا أن جذبه أحدهم وطلب إليه أن يحكم بينهم بما ينهى النزاع ، وأعلنوا جميعا قبولهم لحكمه دون أدنى اعتراض ، وقالوا له :

- لا تظن قيمة هذه العصا في مظهرها . . . إنها مسحورة إذا غرستها في الأرض ساعة النزال حمتك أنت ومن معك من الموت ، في حين هى على العكس من ذلك مع عدوك ورجاله . . . إنها تفنيهم جميعا ، وكأنها قد أصابهم الطاعون !

وتناول الفتى العصا بإحدى يديه ، وكانت يده الأخرى تثبت القبعة فوق رأسه . . . وتلفت الأخوة حولهم في دهشة وذهول باحثين عبثا عن الفتى الذى اختفى كأنما انشقت الأرض فبلعته . وما حدث لأصحاب القبعة وأصحاب الحذاء ، حدث لأصحاب العصا . . . انصرفوا متصافين متحابين ويلعنون هذا الميراث الذى كاد يثير بينهم العداء .

وتابع الفتى مسيره . . . والقبعة فوق رأسه تخفيه عن الأنظار ، والحذاء في قدميه يزيل عنه متاعب الطريق ، والعصا في يده تقيه شر من يجروء على التعرض له .

ورأى الفتى خلو الطريق من الناس ، فخلع القبعة عن رأسه ، وسار حتى وجد نفسه أمام بيت صغير جميل ، تحيط به الحدائق والحقول ، وتطير حوله عصافير مغردة تشجى سكانه بصداحها العذب . ودفع باب البيت فلما بدا به وجهها لوجه أمام امرأة عملاقة بشعة المظهر ، تنفرج شفتاها الزرقاوان عن قواطع حادة كأنياب الضواري ، ويتنفش على رأسها ووجهها شعر مجعد كالح . . . وانطلقت من أعماقها ضحكة رهيبة حادة زلزلت كيان الفتى ، ثم قالت في صوت كأنه خارج من ظلام القبور :

- ها . . . ها . . . تعال إلى يا صديقى ، فقد طال شوقى إلى مثل لحمك الطرى . . . أقدم فإنك وليمة العمر التى تمنيتها منذ سنين !

ولم تكذب قولها حتى قفزت قفزة رهيبة إلى الباب فأغلقتة دونه . وقبل أن تستدير إلى صيدها ، كان الفتى قد استرد شجاعته ، وأعد عصاه لتورد المرأة موارد التهلكة ، ثم خاطبها قائلا :

- أيتها المرأة، لا تحسبى حساب لحمى . . . فإنى قد هزلت هزالا شديدا من قسوة الجوع، ومشقة السير عشرات الشهور. وما كان الجميلة رائعة الجمال مثلك أن تستسيغ أكل اللحم البشرى، وإنما أنت خليقة أن تكونى زوجة لأمر جليل الشأن ينعم بحبك وتسعدينه سعادة أبدية!

واغترت المرأة بهذا الثناء العاطر الجميل الذى ماسمعت مثله قط فى حياتها، وشعرت بانعطاف نحو هذا الشاب، وقالت له فى صوت جاهدت أن يبدو رقيقا ناعما. - لقد أسرتنى بعذب حديثك أيها الشاب الجميل، فاطلب ماتريد، فإنى منذ الساعة لن أرد لك طلبا.

فشكرها الفتى على رقتها، وقال لها:

- إنى أقصد قصر الملك، وقد غابت عنى مسالكه . . . فهلا ساعدتنى على بلوغه؟
فقالت المرأة:

- إننى لا أبارح هذا المكان قط. فكيف لى أن أعرف مكان هذا القصر؟ إلا أننى سأبذل ما فى وسعى لمعاونتك.

ورفعت المرأة عقيرتها بنداء خاص تجمعت على أثره طيور الحديقة، وهبطت أمامها منتظرة تلقى أوامرها. فأشارت المرأة إلى طائر ضخم أن يقترب منها، وخاطبته قائلة:

- أنت الذى تحمل فوق ظهرك البشر كلهم . . . خبرنى: أين يوجد قصر الملك؟
ونظر الطائر إلى المرأة نظرة يكاد يتطاير منها الشرر، ثم نكس رأسه إلى الأرض دون أن يجير جوابا.

ومدت المرأة يدها الضخمة فأحاطت بها عنقه، ومدت يدها الأخرى إلى باب المدفأة ففتحته على مصراعيه، فبرزت منه ألسنة اللهب المحرقة . . . فلم يلبث الطائر، حين أدرك ماتعنيه المرأة الرهيبة، أن صرخ فى رعب، وصاح فى صوت مرتعش:

- سأخبرك يامولاتى، سأخبرك . . . أريد فقط أن تغلقى هذا الباب اللعين!
وأقفلت المرأة باب المدفأة، وأخلت سبيل الطائر، وأمرته أن يحمل الفتى على ظهره إلى قصر الملك.

وفى ثوان كان الطائر الضخم يحط بالفتى أمام باب القصر. . . فلبس الفتى قبعته،

وانطلق يجوس خلال أهباء القصر وممراته حتى بلغ حجرة الأميرة . . . وكانت في تلك اللحظة متكئة على أريكة ، تطرز منديلا من حرير .

ولم تلبث الأميرة أن نادت وصيفتها ، وأمرتها أن تحضر لها قدحا من الماء . وعندما عادت الوصيفة بالقدح ، مرت أمام الفتى المتخفى . . . فمد هذا يده بفرع من فروع النجمة السماوية ، وألقى به في القدح .

ولمحت الفتاة ، حين همت بالشرب ، فرع النجمة طافيا على وجه الماء ، فأخذها العجب ، ووضعت القدح جانبا ، وأمرت وصيفتها أن تحضر قدحا آخر . وعندما أقبلت الوصيفة ، كرر الفتى فعلته ، وألقى في القدح بفرع ثان . . .

واضطربت الأميرة ، وانتابها قلق مجهول ، وحملت في الفضاء ، ثم هتفت :

- هل هنا أحد غريب ؟ ليظهر ، وليس عليه من عقاب .

ونزع الفتى قبعته ، فهتفت به الأميرة :

- من أنت ؟ وماذا تريد ؟ !

مد الفتى يده إلى جيبه ، وأخرجها فإذا النجمة تتلألأ بين أصابعه . . . وقدمها للأميرة ، وقص عليها قصته منذ بدايتها . . . وحين انتهى منها ، هزت الأميرة رأسها في إعجاب وأسى ، وقالت :

- يالك من فتى شجاع ! ولكنك لن تستطيع أن تخطبني الآن فإن أبى قد خرج لمحاربة بعض أعدائه ، وإن الأنباء لتتري عن هزائمه المتوالية مما يرجح أنه قد لايعود حيا .

وسرعان ما انتفض الفتى ، وسألها عن مكان الموقعة ، ووضع الحذاء المسحور في قدميه ، واستعد بعصاه العجيبة ، وانطلق إلى الميدان فور أن نطقت له باسم المكان .

ووقف الفتى إلى جوار الملك ، وقال له :

- مولاي . . . لقد جاءتك نجدة من السماء ، فلا تبتئس . . . وإننا لمنتصرون .
وغرس الفتى عصاه في الأرض ، فلم تمض لحظات حتى تبدل الحال غير الحال ، وفوجئ الأعداء بقوى غير منظورة تطيح بجيوشهم ، وتصرع الألوف من رجالهم تلو الألوف . . . ومضوا عبثا يتلمسون سبيل الهرب ، حتى تم القضاء عليهم جميعا ، دون أن يصاب من جنود الملك أحد .

وعاد الملك إلى مملكته ، تحيط به أكاليل الغار ، وتدق أمامه طبول النصر. . .
وبصحبه الفتى الشجاع الذى قرر الملك أن يرغم ابنته على قبول الزواج منه ، وأن يثنيها
عن شرط الحصول على نجمة السماء .

ولشد ما فرح الملك فرحا مزدوجا ، عندما رأى ابنته تستقبله وفي يدها النجمة
تتألأ . ولم تمهله حتى يستفسر عمن أحضرها ، وإنما أشارت فى زهو إلى الفتى الذى
يقف إلى جواره . وعانقه الملك فى سرور . ولم تمض أيام ، حتى أقيمت الأفراح فى طول
البلاد وعرضها احتفالا بزواج الأميرة من فتاها الشجاع .

أسطورة إنجليزية الثوب الخفى

الحديقة . . . طاسع واضح ، وصفت لصقت بأخلاق الإنجليز منذ أقدم العصور . . . ولا تكاد
أسطورة من أساطيرهم تخلو من صورة حية من صور الحديقة والمكر والدهاء . حتى الحكايات
الشعبية التى يفخر بها الإنجليز، لا تخلو من هذا الطابع الذى يبدو واضحاً فى « الثوب الخفى »

كانت أمور المملكة كلها فى يد الوزراء ، يديرونها كما يشاءون . أما الملك ، فما كان
يهتم بهذه الأمور أبداً . . . شىء واحد فقط كان شغله الشاغل وهدف حياته كلها : هو
الأناقة فى ارتداء الثياب ، والولع بالبحث عن كل ثوب غريب جديد !

من أجل ذلك لمس الجميع مقدار فرجه ، حين قدم إلى المدينة رجلاً ، زعماً أنها أبرع
من نسج القماش ، وأمهر من خاط الثياب . وأعلننا فى البلد كلها أن لديها نولاً ينسجان
عليه قماشاً ليس له مثيل فى جمال ألوانه ، وروعة نقوشه . أما وجه الغرابة والعجب فى
القماش ، فهو أن الأغنياء والحمقى إذا نظروا إليه لم يروه . أما الحكماء الذين أوتوا رجاحة
العقل ، وذكاء الفهم ، ودقة الإحساس . . . فهؤلاء وحدهم يستطيعون لمسه ورؤيته !

وفرح الملك للنبا الجديد فرحاً شديداً ، وغمره فيض من السعادة والنشوة ، وأعلن
لوزرائه عزمه على ارتداء ثوب أنيق من ذلك النسيج العجيب .

وقال لهم ضاحكاً فى دهاء :

- سأجعل كل ملابسى من ذلك النسيج الرائع حتى أستطيع أن أكتشف كل أحمق
غيبى من أفراد رعيتى . . . ومن رجال حاشيتى أيضاً !

ولم يمض يوم واحد على وصول الرجلين ، حتى كانا بأمر من الملك فى ساحة القصر ،
ثم دعياً إلى المشول بين يديه .

وعندما اجتمع الملك بالرجلين ، أوصاهما بأن ينسجا له قطعة فاخرة من ذلك
النسيج ، وأن يصنعا له منه ثوباً يصلح لأن يرتديه وحده مع التاج الملكى .

وأبدى الرجلان رغبة صادقة وترحيبا حارا بتلبية طلب الملك ، ووعداه أن يتما الثوب خلال أيام قليلة جدا . ولم يهتم الملك حين طلبا منه أجرا غاية في الارتفاع . . . فقد أدرك من حديثهما أن صناعة هذا النسيج الفاخر العجيب تكلف نفقات طائلة ، فلم يضمن عليهما بكل ماطلباه من المال ، وزاد عليه من كرمه عطاء كثيرا ، ليشجعهما على السرعة في العمل وإتقانه والتفنن في إبداعه على أكمل وجه .

استولى الرجلان على تلك الثروة من الملك ، وبدلا من أن يبدأ العمل ، انطلقا معا إلى منزلهما يضحكان ، وأخذا يلهوان بلعب الشطرنج . . . وكان الوقت لايزال متسعا أمامهما لكي ينسجا الثوب الجديد .

ومضت أيام . . . واستبطأ الملك حضور الرجلين بالثوب ، فاستدعى كبير وزرائه ، لثقته في رجاحة عقله ، وفيض ذكائه ، ودقة إحساسه ، وكلفه بالتوجه إلى الرجلين قائلا :
- لقد تأخر الرجلان في إحضار الثوب ، فاذهب إلى بيتكما ، وانظر إذا كان النسيج قد تم صنعه ، وتأكد بنفسك من جمال لونه ، وروعة نقوشه !

وأحنى كبير الوزراء رأسه وانصرف . وبرغم إيمانه بأنه أكثر رجال المملكة حكمة ، وأرجحهم عقلا ، وأصوبهم رأيا . . . إلا أنه امتلأ خيلاء بثقة الملك فيه ، واطمئنانه إلى ما يتمتع به من فهم وعقل وإدراك . . . !

وانطلق الوزير إلى بيت الرجلين . وعندما فتح له الباب رحبا به ، واستقبلاه بحفاوة كبيرة . ومد أحد الرجلين يده فأزاح ستارا أسود لم يكن وراءه سوى غرفة خالية إلا من نول في أحد أركانها !

وأشار الرجل إلى النول وقال للوزير :

- انظر أيها الوزير جمال النسيج . ألا ترى ألوانه البهية ، وخيوطه الدقيقة ، ونقوشه البديعة ؟ !

ودار الوزير ببصره في أرجاء الحجرة ، فلم ير غير نول عتيق ليس عليه شيء !
واستبدت به الحيرة ، وحملق الرجل في ذهول ، وأخذ يفرق عينيه لعلهما عاجزتا عن الرؤية إلا أن النول كان ، كما يراه ، فارغا . . . لاخيوط ، ولا نسيج ، ولا ثياب !
وتذكر الوزير الأول فجأة ماقاله الرجلان من أن الحمقى والأغبياء هم الذين لا يستطيعون رؤية الثوب العجيب .

ودار رأسه فى رعب . . . فهل يكون غيبا أحمق، وهو الوزير الذى يدير شئون المملكة كلها، ويحل مشكلاتها، ويرجع إليه الناس فى كل أمر خطير؟!

وحملق الوزير فى النول مرة ثالثة، ولكنه لم ير جديدا. وتملكته الحيرة، وساده الاضطراب، وأدرك أنه لم يكن من حدة الذكاء، أو رجاحة العقل، أو رهافة الحس، كما كان يتصور من قبل. بيد أنه سرعان ما ضبط نفسه، وكبت شعوره، حتى لا يكشف الرجلان أمر حمقه، ويدركا سر غبائه، فيفتضح أمره، ويفقد منصبه، ويصبح سخرية القصر والناس والمجالس.

وحملق فى النول من جديد . . . وبدا فى هذه المرة كمن رأى شيئا، فأظهر إعجابه بما رأى، وقال للرجلين فى ثقة وسرور:

- ما أبرعكما، وما أمهر أصابعكما! كم هو دقيق الصنع ذلك الثوب! وما أبهى ألوانه وأروعها! فمتى تنتهيان من نسجه، وتحضران الرداء للملك؟
وأجاب الرجلان:

- لا يزال أمامنا بضعة أيام أخرى أيها الوزير. فالعمل دقيق، وثوب للملك يحتاج إلى إمعان فى الدقة، وإتقان فى التصميم . . . انظر أيها الوزير إلى هذه الصورة الجميلة التى نسجناها فى وسط الثوب . . . تأمل نقوشها البديعة! وهذه الورد الحمراء التى تزين طرفيه . . . هل رأيت أجمل منها؟ وهل شهدت أروع من رسم ذلك الطائر الذى يهيم محلقا فى الفضاء؟!

وهز الوزير رأسه إعجابا، وأجاب وقد ازداد إيمانا بغبائه الذى لم يكتشفه إلا اليوم:
- حقا إنها لرسم مبتكرة ذات ألوان جذابة . . . ولا ريب فى أن الملك سيعجب أشد العجب بالنسيج الجميل، وسيجزيكما عن براعتكما وإتقانكما خير الجزاء!

وهم الوزير يريد الانصراف. ولكن أحد الرجلين أشار إلى النول، وقال:
- كيف تنصرف أيها الوزير دون أن تلمس بنفسك نعومة النسيج ورقته. اقرب ياسيدى، والمسه بيدك لتتحقق من الرقة والنعومة، ولتصفهما لمولانا الملك!

وتقدم الوزير مترددا، ومد يده إلى حيث أشار الرجل . . . وبرغم أنه لم يلمس شيئا على الإطلاق، إلا أنه بدا كمن يتحسس النسيج فى اقتناع وإعجاب وقال:

- حقا . . . حقا . . . ما أروع هذا النسيج وأرقه وأنعمه، إننى لأستطيع أن أقسم أننى لم أر فى حياتى ثوبا يضاهيه جمالا ورونقا وبهاء!

وبدا على الرجلين سياء الفخر والرضا، وقال أحدهما :

— الآن وقد تحققت يامعالى الوزير من إتقاننا لعملنا وبراعتنا فيه . . فهل نطمع منك في التوسط لدى مولانا الملك ليزودنا بمبلغ آخر من المال ، نستعين به على الزيادة في الإتقان؟ إن المبلغ الذى أخذناه لم يكد يغطى التكاليف الباهظة للنسيج الفاخر العجيب !

وأجاب الوزير:

— إنكما على حق فيما تطلبان! فهذا الثوب يستحق أضعاف ما أعطاكم الملك، وسأتوسط لدى جلالته لكى يمنحكما ضعف ماحصلتما عليه من قبل . على أن تسرعا فى إنجاز المهمة ، فالملك جد مشوق إلى ارتداء الثوب !

وانطلق الوزير إلى القصر، حزينا كاسف البال لما اكتشفه من غبائه . إلا أنه عندما دخل على الملك أظهر الفرح والسرور، وبدأ مبتهجا بما رأى ، وأخذ يروى كيف وجد النسيج ، ويصف ما يمتاز به من روعة وذوق ونعومة وجمال . وعندما انتهى من وصف الثوب، طلب للرجلين مكافأة كبيرة أخرى تعينهما على سرعة إتمام عملهما الرائع العظيم !!

وفرح الملك فرحا شديدا ، وأمر وزيره الأول أن يمنحهما مكافأة جديدة .

وفى الصباح ، انطلق الوزير الثانى إلى الرجلين ومعه المبلغ الجديد . . . متشوقا هو الآخر لأن يرى ذلك الجمال الذى بهر رئيسه ، والروعة التى أثارت إعجابه !

دخل الوزير البيت ، فوجد الرجلين جالسين إلى نول فى ركن الغرفة ، منهمكين لا يكادان يحسان بأحد حولهما . وضرب بقدمه الأرض فانتبها ، وعندما رآياه استقبلاه أحسن استقبال ، ثم أخذوا يشرحان له مزايا النسيج الجميل الذى أوشكا على أن يتماه !

وأطل الوزير أمامه ، فلم ير شيئا ، وتأمل أصابعهما وهى تعمل فى غير كلل ، فيما يشبه شد الخيوط وربطها وحبك بعضها فى بعض ووقف حائرا فى ذهول شديد ، وقد داخله الشك فى ذكائه . . بل اعتقد أنه غبى أحق حصل على منصبه الكبير فى غفلة من الزمان .

وراح الوزير يغبط الوزير الأول على ذكائه ورجحان عقله اللذين أتاحا له أن يرى الثوب العجيب ، ويشهد ما فيه من روعة وجمال . وخشى أن يعرف الناس أنه عجز عن رؤية الثوب ، فيدركوا الفرق بين عقله وعقل زميله ، ويعرفوا أنه لم ينل مركزه الكبير عن

جداره ، فتضيع هيئته ، ويفقد مكانته ، ويصبح كواحد من الأغبياء والحمقى !
وانتبه الوزير إلى صوت أحد الرجلين يقول له :
- ماذا بك أيها السيد الوزير؟ لماذا لا تتقدم فترى النسيج الرائع الذى حظى بسرور
الوزير الأول وإعجابه؟
وثاب الوزير إلى نفسه ، وأجاب :
- لاشيء . . وإنما أتأمل النسيج من بعد لأمتع بصرى بما فيه من آيات الجمال
والروعة !
وقال الرجلان :
- ما رأيك فى هذه الزهرة التى تشبه ألوان قوس قزح؟ وكيف ترى ذلك اللون الأخضر
المتزوج باللون الأحمر فى هذا الطرف من الثوب؟
وأخذ الوزير يهز رأسه فى إعجاب . . فى حين استمر الرجلان فى عملهما وحديثهما
قائلين :
- وهذه النقوش الذهبية التى تزين حواشى الثوب . . أوجد لها مثيل فى أثواب الملك
الأخرى؟
وأجاب الوزير ، وهو ينطلق منصرفا :
- نعم . . نعم . . إنها فى غاية من الإتقان والروعة !
وعاد الوزير الثانى إلى الملك يحكى له كيف بلغ الإتقان بالثوب حدا سيجعله أروع
الأثواب الملكية وأحسنها جمالا ، وأبدعها لونا !
وأخذ الناس يتناقلون حديث الثوب الذى سيظهر به الملك فى حفل ذكرى التتويج .
وراح الجميع يتنافسون للحصول على ثوب من هذا النسيج العجيب حتى يظهروا به فى
الحفل الملكى . ولم يعد هناك رجل أو امرأة إلا ودفع مبلغا ضخما من المال للرجلين
لينجزا له ثوبا من النسيج نفسه وإن كان أقل روعة وفخامة من ثوب الملك .
وكان كل منهم يحسب أنه أوتى من العقل والحكمة ما سيجعله - دون رفاقه وجيرانه
- يشهد النسيج ويحسه ، ويمتدح النظر برسومه الباهرة .
وغص بلاط القصر ، ذات يوم ، بجمع حاشد ، وأقبل الرجلان ينوءان بحمل

صندوقين كبيرين ، أعلننا أن بهما الثوب الرائع العجيب !
ووقف الملك لاستقبالهما ، ومن حوله رجال البلاط ، والجميع فى شوق زائد إلى رؤية
الرداء الفاخر المسحور !

وفتح الرجلان صندوقيهما ، وامتدت أيديهما فى حذر إلى قطع الثياب ، وبدأت أيديهما
كأنهما تحمل شيئا ، ثم طلبا من الملك أن يخلع الرداء الملكى القديم ، وتقدما منه ،
والبساه الثوب السحري الجميل !

وقد كانت الثياب سحرية حقا . . فما كان هناك شىء على الإطلاق ، وبدأ الملك
عاريا أمام الجميع !

وهتف الوزير الأول لكى يثبت للجميع مقدار ما يتمتع به من ذكاء وإدراك :

- ياللروعة ! ألا ما أجمل هذا الرداء الأنيق ، وما أبدع تلك الصورة المنقوشة فى
وسطه ، وما أدق الوردة الحمراء التى تزين أطرافه . . . انظر يا مولاي إلى ذلك الطائر
الذى يهم بالتحليق فى الفضاء . . ما أجمله وأروع ! إننى لن أكون مبالغا يا مولاي إذا
قلت إنك لم تلبس رداء ملكيا من قبل أفخم من ذلك الرداء قط !

ولم يكن الوزير الثانى بأقل رغبة من الوزير الأول فى إظهار حدة ذكائه ، فهتف هو
الآخر:

- الحق أن الثوب بالغ الأناقة . . . ومما يثير عجبى حقا ذلك الإتقان الذى يبدو
واضحا فى نسج هذه الزهرة التى جمعت ألوان قوس قزح كلها ، وتلك الخضرة المشوبة
باللون الأحمر فى الطرف الأسفل من الثوب . . إنه رائع ، أكثر روعة مما كنت أتصور
وأظن !

وكان كل من فى القاعة من الوزراء ورجال البلاط وأفراد الشعب يحملون فى دهشة
وذ هول فما رأى واحد منهم ثوبا يغطى جسد الملك ، ولا الزهرة ذات الألوان التى تشبه
ألوان قوس قزح ، ولا تلك الرسوم البديعة والألوان الجميلة التى يصفها الوزيران . . .
إلا أن كل واحد ممن فى القاعة ، حاول أن يخفى حيرته ، حتى لا يبدو أمام الباقين غيبا
أحمق . وراح الجميع يتسابقون فى إبداء الإعجاب ، وإطراء الرداء الملكى الرائع ، وألوانه
البديعة ، وإتقانه المنقطع النظير !

ولم يكن الملك أقل حيرة ودهشة من أمر هذا الثوب العجيب، ودار رأسه متسائلا:
- أيعطى جسده هذا الثوب حقاً؟

إنه يحس بجسده عاريا لا يغطيه شيء . . . !

وقبل أن يفتح شفتيه، تذكر أن الأغبياء والحمقى فقط هم الذين لا يرون الثوب السحري، كما أن إجماع من حوله على وصف الثوب الرائع الذى يرتديه وتفصيل الوزيرين لدقائقه . . كل ذلك أرغمه على السكوت، ثم على الظهور بمظهر المعجب المسرور بالثوب الذى يراه أجمل ثوب ارتداه!

وأخذ الملك بين ثناء الناس على الخياطين وتهنئتهما بالتوفيق فى صنع هذا الثوب البديع . . . أخذ يسير مختالا فخورا فيما يشبه السرور والبهجة بهذا الثوب الجميل!
وفجأة . . هتف طفل صغير سائلا أباه:

- أين الثوب الذى تتحدثون عنه يا أبى؟ إنى لا أرى شيئا قط . . بل أرى الملك عاريا تماما ليست عليه ثياب!!

وأجابه أبوه، وهو يحاول أن يسكته:

- اسكت يا أحق لا ترفع صوتك . . . أنا أيضا لا أرى ثوبا قط، ولكنى لا أستطيع أن أعلن للناس أنى غبى!

وهنا ارتفع صوت آخر من ركن القاعة:

- إن الطفل على حق . فليس هناك ثوب قط . وتجراً صوت رابع فقال:

- تماما . . . إنى أرى رأيك يا صديق، فليست هناك ثياب!

وتناقل الناس فى سرعة نفس رأى . . . ومالبثت الصيحات أن ارتفعت فى القاعة تتساءل:

- أين الثوب . . . أين الثوب؟ إننا لا نرى ثيابا على الإطلاق!

ووقف الملك ورأسه يدور، وشجعتته صيحات الناس، فاتجه إلى وزيره الأول وقال:

- ألا تسمع كلام الناس؟ . . . إننى لا أكتمك أنى أرى رأى الآخرين . إن الثوب الذى وصفته ليس سوى خرافة . . . فهل ترى عيناك ثوبا حقاً؟

وانتفض الوزير، واحمر وجهه خجلا، ومد يده فى سرعة فوضع الثوب القديم على جسد الملك . ثم انسحب خارجا من القاعة فى سرعة، خافض الرأس فى ذهول .

أما الوزير الثانى، فقد انطلق باحثا عن الرجلين، ولكنهما كانا قد اختفيا عن الأنظار، ولم يعثر عليهما أحد قط !

أما الملك . . فقد ارتدى ثيابه القديمة، وتوارى فى غرفته، وأغلق من خلفه الباب .

ويقول الرواة : إن أحدا من الملوك لم يهتم بشؤون بلده، كما اهتم بها هذا الملك منذ ذلك التاريخ .

أسطورة نرويجية هروب الشيطان

كل فكرة عن الشر، يمكن أن تخطر على الدهن البشرى تمثلت في صورة من صور الشيطان . ومن هنا احتل الشيطان مكانا بارزا في أساطير القدماء . . ثمة محاولات كثيرة متباينة لشرح أثر الشر في الكون . هل هو قوة أصلية؟ هل هو قوة إيجابية عاملة ؟ هل هو قوة سلبية؟ هل هو اعدام الخير؟ هل هو نقص الخير؟ هل هو عقبة في طريق الخير؟ هل هو قوة تريد ، وتعمل ماتريد؟

من هنا اختلفت الصور التي ظهر بها الشيطان في جميع الأساطير.

كان الشيطان يجلس على مائدة منعزلة في حانة القرية ، وقد تنكر في صورة عملاق غريب ، أسمر الملامح ، ووضع على رأسه قبعة خضراء تزينها ريشة طويلة زاهية . وكانت حلبة الرقص أمامه صاحبة في جنون ، وقد امتلأت بالراقصين من شباب القرية وفتياتها ، والموسيقى ترسل ألحانا مثيرة ، تتخللها بين الحين والحين فرقة مكتومة ، تنبعث من سداة جديدة طارت عن زجاجة خمر .

ونظر الغريب إلى جواره فرأى على مائدة قريبة منه عجوزا شمطاء تفرك أصابعها في ضيق شديد ، لما تلقاه من إعراض الشباب عنها ، وعزوفهم عن مراقبتها . ولم يكن أحد يلتفت إليها ، إلا حين تومئ له فتاته برأسها في اتجاهها ، وتعقب ذلك ابتسامات ساخرة .

وأخذ الشيطان يرقب العجوز في تلذذ وفضول ، ولاحظ شفيتها تتحركان في تممة خافتة كأنها تحدث نفسها . . وأرهف أذنيه فسمعها تقول :

— آه لو تقدم لى واحد منهم لرقصت معه طوال الليل . . . لا أتركه ولو كان الشيطان نفسه !

وابتسم الشيطان من أعماقه حين سمع هذا التحدى ، وسأل من حوله وهو يشير إليها :

— من السيدة الجميلة ؟ !

ولم يهتم أحد بالإجابة عليه . . . فنهض من مكانه ، وتقدم إليها ، ونظرات القوم تتبعه في دهشة وعجب . وعندما اقترب منها ، انحنى أمامها في رشاقة وظرف بالغ ، وقال في رقة مهذبة :

- هل تسمح سيدتى الجميلة فتمنحنى شرف هذه الرقصة ؟

ونفضت العجوز على الفور وعيناها ترمقان كل من في الحلبة في شماتة وتحد ، وأسلمت قيادها إلى العملاق الغريب فأحاطها بساعده ، واندفع بها إلى وسط الحلبة .

وأخذت العجوز ترقص مع الغريب في نشاط وحيوية عجز الشبان والشابات عن مجاراتها فيهما . . . حتى بدأت حلبة الرقص تخلو من الراقصين الذين أنهمكهم التعب . . . إلا الغريب والعجوز . وكلما أحس الموسيقيون بالتعب ، قذف الغريب إليهم بقطعة من النقود الذهبية ، أثارت حماسهم وجددت النشاط . . فيندفعون في العزف الصاحب المجنون .

والتف الشبان والفتيات في دائرة حول الراقصين العجبيين ، وقد أذهلتهم قدرة العجوز ورفيقها العملاق الخارق على متابعة هذه الرقصة الثائرة . . . وانتصف الليل ، وانتهت الرقصة المجنونة بين تهليل الشباب والفتيات وإعجابهم ببراعة الراقصين . وقاد العملاق رفيقته العجوز بعيدا عن ساحة الرقص ، وغابا عن أنظار الجميع في الظلال الكثيفة بين ثنايا الأشجار . وظل العازفون والراقصون في دهشتهم مسحورين بهذه القدرة الخارقة .

وبين الأغصان المتعانقة . . وقف العملاق يناجى صاحبتة ، ثم تأهب للرحيل . فتعلقت العجوز به مستعطفة ، وقالت له في رقة وعدوبة :

- خذنى معك ، خذنى معك إلى بيتك !

وأجابها الغريب في ابتسامة غامضة :

- إن بيتى بعيد جدا عن هذه القرية .

ولم تعبأ العجوز بالابتسامة الغامضة ، ولا بالرد الغريب ، وتشبثت به قائلة :

- لاتهمنى هذه القرية قط . وسأذهب معك حتى ولو كان بيتك في نهاية العالم !

وعاد الغريب يبتسم في غموض . . وأمسك بذراعيها ، وطلب إليها أن تطوق عنقه بهما في قوة ، ثم دق الأرض بقدمه في عنف ، فانشقت ، ودوى في الجو صوت كالرعد ،

وأبرقت السماء برقاً يخطف الأبصار . . . وقبل أن ينتبه أحد ، كان الشيطان يهبط بالعجوز إلى جوف الأرض .

ودخلا معا إلى الجحيم . . . والشيطان مغتبط بما ملك ، فقد تحدى السماء وجعل امرأة بنى آدم تتبعه إلى الأعماق . وطلب الشيطان من المرأة أن تفك ذراعيها عن عنقه . . . إلا أنها أبت ، ورفضت رفضاً باتاً . وعبثاً حاول أن يضطرها إلى ترك عنقه ، فقد أصرت على أن تظل متعلقة به لا تتركه ، ولا تدع له حيلة في تخليص عنقه من ذراعيها المعقوفتين !

وبرزت شرايين وجهه من طول الجهد والغيط ، وانتابه سخط مجنون من نفسه ، وظل يذرع ممرات جهنم طوال الليل والنهار . . . ومضت الأيام والشهور ، والمرأة لاتزال متشبثة برقبتة ، كأنها قد صارت جزءاً منه ! فلما أنهكه التعب ، لم يجد بداً من أن يطلب العون من إبليس كبير الشياطين .

ونظر إبليس إلى المرأة العالقة بتابعه المسكين ، ثم هز كتفيه وقال :

— لقد جنيت على نفسك بيدك أيها الأبله . . . وليس أمامك إلا أن تعود بها إلى الأرض ، وتحاول أن تتخلص منها هناك . أما كيف تفعل ذلك ، وهل ستنجح أو لا . . . فهذا مالميس في مقدورى أن أفتيك فيه !

وصعد الشيطان إلى ظهر الأرض ، والشرر يتطاير من عينيه ، وهو يستنزل اللعنات على رأس المرأة التى لا تريد أن تترك عنقه أبداً .

ومضى الشيطان يذرع الطرقات متنكراً فى هيئة آدمى ، ناظراً هنا وهناك كالمجنون . . . ومر فى طريقه براع يسير وراء غنمه ، وقد ارتدى معطفاً من الجلد السميك ، له بنيقة عريضة . . . شأنه فى ذلك شأن كل فلاحى بلده .

وسار الغريب إلى جوار الراعى صامتا ، منتظراً أن يبدأ هذا بالحديث . . . إلا أن الراعى ظل كمن لا يحس أن أحداً يسير إلى جواره . ولم يلبث أن أخرج زمواره من جيب معطفه ، وراح ينفخ فيه فى نشوة وانسجام .

وانقضى وقت ليس بالقصير قبل أن يلتفت الراعى إلى الغريب السائر إلى جواره . . . وحين نظر إليه ، ابتسم فى سخرية مريّة ، وقال :

— ما أجمل هذه الطريقة الجديدة المبتكرة فى حمل زوجتك !

ورد عليه الغريب حانقا :

- أهذا كل ما في استطاعتك أن تقول ؟ ومع ذلك مايعنيك أنت . . . إننا نرحل دائما في مثل هذه الصورة ، ونفضلها على ماعداها !

وأجاب الراعى في لطف :

- لم أقصد إهانتك يا صاحبي ، وإنما أردت أن أنبهك إلى أن تلك الطريقة متعبة جدا بالنسبة لك .

ولح الشيطان فرصته ، فقال في حذر ، وهو يتمنى أن يقع الراعى في الفخ :

- صدقت يا صاحبي . . إنها لطريقة جد متعبة ، وإنى لأعترف بأننى في حاجة إلى فترة قصيرة من الراحة تتعلق هى خلالها برقبة أى إنسان غيرى .

ورد عليه الراعى في لطف وهو يعود إلى مزماره :

- مسكين . . . لشد ما أرثى لك !

ونفذ صبر الشيطان ، وكاد يتمزق غيظا وحنقا . ولكنه استطاع في جهد أن يتمالك نفسه ، ومال على الراعى فهمس في أذنه بشكواه . وعندما انتهى من سرد قصته ، قال له الراعى :

- إن الأمر مؤلم حقا . . . وإنى لعلى أتم استعداد لمساعدتك .

واقترب الراعى من عنق الغريب ، وأدخل رأسه بين ذراعى المرأة بعد أن أخرج العملاق رأسه . . . ولم تعترض المرأة على هذا التغيير مادامت قد ضمنت في قبضتها رجلا . . . أى رجل !

وكاد الشيطان ينكر أن عنقه قد تخلص من الذراعين المعقوفتين ، فقد تم انتقالهما إلى عنق الراعى في لحظة خاطفة . وعندما مد كفه يتحسس عنقه اطمأن إلى خلاصه حقا ، ثم أخذ العصا الغليظة من الراعى ، وتمنى له حظا طيبا . . وسار وراء القطيع يرعاه ، وهو يغنى ، ويكاد من فرط فرحته أن يرقص طربا لتخلصه من عناق العجوز الشمطاء . وسار الراعى في طريق آخر ، والعجوز مطبقة على رقبتة مستميتة في الإطباق عليها .

ومضت لحظات . . وتلفت الشيطان فإذا الراعى أمامه وحده ! وفرك الشيطان عينيه غير مصدق ، وحلق فيه مرة أخرى ، فإذا به يتأكد من صدق مايرى . . وفغرفاه دهشة ، وسأل الفتى كيف تخلص من العجوز؟ !

فأجاب الراعى فى بساطة :

- لقد ذهبت بها إلى البحيرة ، ونزلت إلى الماء ، ثم انسللت من معطفى وهى عالقة بياقته ، وتركتها معا فى الماء : المرأة ، والمعطف . وهأنذا قد جئت أسترد ماشيتى ، وسوف نعود معا إلى البحيرة حيث يكون معطفى طافيا على سطحها بعد أن تخلص بدوره من المرأة ، فأخذه وأمضى لسبيلى !

فهتف العملاق فى وجل :

- لا ، لا . . لن نعود إلى البحيرة أبدا . دع المعطف حتى لاتعود المرأة فتبتعنا . وسأمنحك ضعف ثمنه . . . بل ثلاثة أضعافه ، ولن نذهب مرة أخرى إلى هذه اللعينة .

وسكت الفتى ، وقد استغرق فى تفكير عميق . ولم يدع له الشيطان فرصة للرجوع فيما انتواه ، وقطع عليه تفكيره قائلا :

- سأجزيك يا صديقى عن صنيعك خير الجزاء . . . سأذهب الآن إلى المدينة ، وأتقمص جسد الأميرة ابنة الملك ، وسيثير ذلك ضجة وفزعا فى القصر ، وسيعلم الملك عن مكافأة ضخمة لمن يستطيع أن يطرد الشيطان من جسد الأميرة ، ولن يتمكن أحد من ذلك بالطبع ، حتى تحضر أنت . . . وما عليك إلا أن تتمم ببعض الألفاظ كمن يتلو تعاويذ سحرية ، ثم تميل على أذن الفتاة وتهمس قائلا : أنا الراعى . . . وعندئذ سأخرج أنا من جسدها ، وتنال أنت المكافأة الضخمة !

ولم يكد الشيطان ينتهى من كلامه ، حتى تحول فجأة ليوواجه الريح ، ثم بسط ذراعيه فى الهواء ، وطار فى الجو . . ولم يلبث أن اختفى عن الأنظار .

* * *

وسار الراعى يبحث الخطأ فى طريقه إلى المدينة ، فبلغها بعد أيام . وشاهد الناس أفواجا يمثلون الشوارع والنواصى ، وهم فى نقاش وجدال . . . فاقرب منهم ، فسمع الحديث حول قصة الأميرة التى تقمصها الشيطان . ولم يمض وقت طويل حتى وصل منادى الملك ، وأخذ يقرأ على الشعب مرسوما ملكيا يقول فيه :

« لقد أصيبت ابتتنا المحبوبة بمرض غريب ، وحل الشيطان فى جسدها الصغير . ولما كان هذا المصاب يملؤنا حزنا وغما ، ويؤذى عواطف أبوتنا الملكية ، فقد قررنا أن

نعلن في جميع أنحاء المملكة أن من يستطيع أن يطرد الشيطان من جسد الأميرة، وينجح في شفائها . . . فسيمنح شكرنا الملكي ، ويكون من حقه الزواج من الأميرة، ويولى حكم نصف المملكة في حياتي ، وله الملك كله من بعدى !!»

وكان عدد كبير من أطباء المدينة ، وكهانها ، وسحرتها ، قد انطلقوا إلى القصر منذ بدأ المنادى طوافه . . . ولكن أحدا منهم لم ينجح في طرد الشيطان أو في شفاء الأميرة .

وانطلق الراعى الشاب إلى القصر، وتقدم إلى رجال البلاط طالبا مقابلة الملك لأمر هام يتعلق بصحة الأميرة، فأدخلوه على الملك فورا . وكان الملك اليأس الحزين كالغريق الذى يتشبث بقشة، فلم يهتم بالملابس الرثة التى يرتديها الراعى، ولم يلتفت إلى مظهره المزرى . . . بل أمر بأن يدخلوه فورا إلى مخدع الأميرة التى رقدت هزيلة، شاحبة الوجه لاتقدر على الحركة . . . تحملق في سقف مخدعها دون أن تعي شيئا مما يحيط بها .

وطلب الراعى إلى الملك ورجال القصر أن يقفوا بعيدا في أطراف القاعة، وتقدم إلى فراش الأميرة، وأخذ يتمتم بألفاظ غريبة مبهمه . . . ثم انحنى على أذنها، وهمس في بطنها :

- أنا الراعى .

وئارت في الجو عاصفة من الدخان الأبيض الكثيف، وأبرقت القاعة بضوء يخطف الأبصار، وارتفعت صرخة مدوية أثارت الفزع والرعب في قلوب الملك وأتباعه . . . ثم هدا كل شيء، وسمع الراعى صوتا هامسا يقول :

- تذكر . . . لقد كافأتك على صنيئك . وهذه آخر مرة أطيع فيها أمرك !

ودهش الجميع حين رأوا الأميرة تنهض في خفة ونشاط كأن لم يكن قد أصابها شيء على الإطلاق . وأخذت تحبى الجميع في رقة، وتبتسم لهم في لطف . . . وانقلب الحزن الشامل إلى بهجة وفرح، ولبس القصر حلة زاهية من السعادة، وذاع النبأ في أنحاء البلاد ففرح الأهالى أفواجا أفواجا لتهنئة أميرتهم المحبوبة، وليحتفلوا بزفافها إلى الراعى الشاب ذى القدرة الخارقة الذى تمكن من شفائها وأوفى الملك بعهده، وولاه على نصف المملكة . . . فحكمها بالعدل، وساس رعاياه بالحكمة، فأحبوه، وأخلصوا له الولاء . . .

ومضى زمن طويل على ذلك اليوم الذى غادر فيه الشيطان جسد الأميرة . . . ويبدو أنه كان قد استطاب جسد الأميرات خلال تلك اللحظات التى لابس فيها جسد الأميرة . . . فقد عاد ، بعد مضى هذا الزمان ، فتقمص جسد أميرة أخرى من بنات الملك فى النصف الآخر من المملكة . ودار المنادون يعلنون النبأ فى كل مكان ، وتوجه رسل الملك إلى زوج ابنته فى نصف المملكة متوسلين إليه أن يحضر لإخراج الشيطان من جسد الأميرة بسحره القاهر ، كما سبق أن فعل مع شقيقتها .

وملاً الزهو نفس الراعى الأمير ، واغتر بنفسه ، وكاد أن يستجيب إلى نداء صهره لولا أن تذكر فجأة همسات الشيطان إليه قبل أن يغادر جسد زوجته الأميرة فى المرة الأولى ، وخاف أن يفشل فأعلن للرسول عدم استطاعته الذهاب معهم .

وعاد الملك فأوفد رسله إلى الأمير حاملين إليه توسلاته ورجاءه . . . إلا أن الأمير أمعن فى الرفض على كره منه ، بعد أن لم يعد قادراً على طرد الشيطان وإن كان لم يفصح عن عجزه لأحد وساء الملك ألا يستجيب الأمير لتوسلاته ، فأرسل إليه مرة أخرى . . . ولكن الرسول لم تحمل توسلات هذه المرة ، وإنما حملوا إنذاراً للأمير بأن الملك سيهاجمه بجيش عرمرم يقضى عليه وعلى مملكته ، إن لم يسارع بالحضور مع الرسول امتثالاً لرغبة الملك . . . ليعمل على شفاء ابنته .

وإزاء هذا الإنذار ، وتخرج الموقف بين الملك وصهره . . . لم يجد الأمير بدا من أن يودع زوجته ، وينطلق فى طريقه حزينا متألماً مكتئباً . . . لا يدري ماذا يفعل .

ودخل الأمير حجرة الأميرة المريضة ، وأشار إلى الجميع بأن يقفوا بعيداً عن مخدعها . ثم وقف فى ذهول وحيرة ، متظاهراً بأنه يتلو التعاويذ المقدسة مثلما فعل أول مرة .

وسمع الأمير صوت الشيطان يخاطبه فى سخرية قائلاً :

— ما هذا أيها الراعى؟ . . . أنسيت اتفاقنا؟ أهذا هو احترامك لى ، واعترافك بفضلى؟ . . . إذن فتحمل مغبة فعلك وعلى رأسك ستقع تبعة الفشل . أما أنا فلن أبرح مقامى هنا . ولننظر ماسيكون من أمرك ، حين يشهد الجميع مقدار عجزك !

ولكن الأمير ، بعد أن فكر فى الأمر كثيراً ، اهتدى إلى حل رأى أن يجربه عساه أن ينجح فى طرد الشيطان . وتقدم فى ثبات ومال على الأميرة وهمس فى أذنها مخاطباً الشيطان :

— ما كنت أحسبك تسمى الظن إلى هذا الحد بعرفانى لجميلك يا صاحبى ، وما أتيت

إلى هنا على عجل لأن بى رغبة فى شفاء الأميرة . . . فلتذهب هى وأبوها إلى الجحيم
وإنما أتيت لأرد لك بعض فضلك على ، فقد علمت أن تلك العجوز الشمطاء مازالت
على قيد الحياة ، وهى جادة فى البحث عنك ، وأكاد أسمع وقع خطواتها ورائى عندما
علمت أنك فى قصر الملك !

ولم يكذ الأمير يتم كلامه ، حتى ندت عن الشيطان صرخة فزع والهة ، دوى صداها
فى أرجاء القصر ، وارتاع منها كل من فيه ، وتكاثفت فى الحجرة سحائب الدخان ،
وأبرق الجو بضوء ساطع بهر الأبصار ، وتحطمت نافذة ضخمة كانت مغلقة ، فإذا هى
مفتوحة على مصراعها !

وانتفضت الأميرة من رقادها ، وكأنها كانت فى حلم طويل !
ومنذ ذلك الحين . . . وسكان هذا الجزء من العالم يتوارثون القصة ، ويقولون إن
الشيطان لم يحل بجسد امرأة فى مدينتهم قط !

أسطورة روسية ربة الشمس والساحرة

الأساطير الروسية غنية بمختلف الألوان من دينية، وبطولية، وخلقية، وفكاهية وكل أسطورة من هذه الأساطير تعد مثلاً حياً رائعاً للقصص الشعبي في مختلف قطاعات الأرض الروسية الشاسعة التي تصم أحاسنا متباينة لكل منها طامعه وخياله وتصوره القديم. ومن بين الحكايات الشعبية البارزة حكاية « ربة الشمس والساحرة » التي تمثل لونا شعبياً يرخر بجميع ألوان الأسطورة الأصلية

كان « إيفان تساريفتش » ولى العهد الوحيد لعرش أكبر الممالك في تلك الأرض البعيدة الشاسعة الأرجاء. ومع أن أباه وسكان المملكة جميعاً كانوا يحبونه حباً شديداً، ويعطفون عليه عطفاً زائداً . . . فإنه لم يشعر بالسعادة أبداً. وكان سر الشقاء الذي يعانيه إيفان تساريفتش أنه ولد أبكم. وقد بلغ السادسة عشرة ومازال يعاني مرارة هذا البلاء.

وكان يحلو لإيفان أن يقضى أوقاته مع سائس حظيرة الجياد. فقد كان السائس يحفظ كثيراً من الحكايات الغريبة التي تسرى عن إيفان ما يشعر به من شقاء . . . إذ كان يرى الناس جميعاً يتبادلون الحديث، وهو عاجز عن الكلام، مع أنه يسمع كل شيء ويفهمه!

وذات مساء، انطلق إيفان إلى الحظيرة، كما اعتاد أن يفعل كل يوم، وجلس إلى السائس المسن، وأشار إليه أن يحكى له قصة جديدة. ولكن السائس كان يحس انقباضاً في ذلك اليوم، فانفجر باكياً، وقال للصغير:

- لم يعد هناك وقت للقصص والحكايات يا إيفان. فبعد أيام قليلة ستلد أمك الملكة طفلة ملعونة، ستتحول مع مر الأيام إلى ساحرة رهيبة تأكل لحوم البشر. وسيكون الملك والملكة أول ضحاياها، ثم أهل البلاد جميعاً. فإذا كنت يا إيفان تحب الحياة، فتجنب ذلك المصير الذي كتب على سكان مملكة أبيك كلهم. . . اذهب يا إيفان إلى أبيك،

واطلب منه أن يعطيك خير جياده ، وانطلق به بعيدا جدا إلى حيث لا تلقى هذا المصير
الرهيب !

وأسرع إيفان إلى والده الملك . ولأول مرة في حياته ، لم يكذب يفتح شفثيه حتى انطلقت
من بينهما الكلمات واضحة صحيحة .

وفرّح الملك بنطق ابنه ، الذى طالما أشقاه بكمه ، فرحا شديدا ، فاحتضنه فى لهفة ،
ولم يحاول أن يستفسر منه عن سر طلبه أحسن الجياد فى المملكة وأسرعها . . . بل
أجابه إلى طلبه فى الحال ، ومنحه خير الجياد التى يملكها .

وامتطى « إيفان » الجواد ، ثم انطلق به فى سرعة لايلوى على شىء ، واندفع مخترقا
الجبال والوديان ، وكأن الجواد فى اندفاعه يطير طيارا فلا تكاد حوافره تمس الأرض .

ومرت الأيام . . . وإيفان منطلق بجواده ينهب الأرض على ظهره نهبا ، حتى إذا ما
ابتعد آمادا طويلة ، وبدأ الجواد يحس بالجهد ، وينوء براكبه . . . توقف إيفان ، وفوجئ
فى اللحظة التى توقف فيها بامرأتين عجوزين تجلسان على الأرض ، وفى يد كل منهما
إبرة طويلة ، وبكرة من الخيط ، وهما تنسجان ثوبا يبدو أنها توشكان على الانتهاء من
نسجه .

ودنا الفتى من العجوزين ، وطلب منهما أن تخفياه فى مأواهما بعيدا عن الساحرة
الرهيبة . وتبادلت المرأتان النظرات ثم قالتا فى وقت واحد :

- كان يسعدنا لو استطعنا أن نجيبك إلى ماتطلب يابنى . . . إلا أن الوقت يمر
سريعا ، ولم يبق لنا فى الحياة سوى وقت قصير ، ثم يأتينا ملك الموت الذى يقف
بالمرصاد فى انتظار أن تنتهى من نسج ثوب الحياة الذى ترتديه الأرض ، والذى ظللنا
ننسجه منذ بدأت حياة الأرض . إن نسج الثوب سينتهى بعد قليل ، وعندئذ تنتهى حياة
الأرض كما تنتهى حياتنا . فاذهب يا إيفان . . . اذهب بعيدا فلن نستطيع أن نحملك .
أسرع فربما استطعت أن تبتعد كثيرا لتجد مأوى آخر بعيدا عن سكان الأرض !

وانفجر الأمير باكيا ، ثم قفز من جديد فوق ظهر جواده ، وانطلق به ينهب الأرض
حتى التقى آخر الأمر بالعملاق « فرتودول » ، رب الرياح ، وطلب الفتى من العملاق
أن يمنحه ملجأ ، فقال له :

- كان يسعدنى أن أستضيفك يا إيفان ، ولكن الوقت الذى بقى لى فى الحياة قصير
جدا . أنت تعلم أن مهمتى هى اقتلاع الأشجار كلما أسرع فى هبوبى واشتد بى

الغضب . وقد اقتلعت معظم أشجار الأرض ، ولم يعد أمامي إلا هذه الشجيرات القليلة التي تراها . وعندما أنتهى من اقتلاعها لن تكون لى مهمة أخرى على الأرض ، وعندئذ سأستسلم بالرغم منى لملك الموت . فاذهب يا إيفان بعيدا . . أسرع فربما وجدت ملجأ آخر عند غيرى !

وصرخ إيفان ، وانطلق بفرسه مستأنفا هربه . وراح يقطع المسافات الطويلة فى رعب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع المارد « فرتوجار » رب الزوابع . . . وطلب الفتى منه أن يحميه ، فأجابه « فرتوجار » فى أسف :

- يؤسفنى يا إيفان أن أعجز عن إجابة طلبك . انظر أمامك فستجد أن الجبال التى تعودت أن أحمل تراها فى الجو لألقى به فى أنحاء الأرض قد انتهت جميعا ، ولم يبق أمامى سوى جبل واحد ، ثم تنتهى مهمتى على ظهر الأرض . وعندما يحدث ذلك ، فسيأتينى ملك الموت فىأخذنى بعيدا جدا . فاهرب يا إيفان . . . اهرب بعيدا عن هذه الأرض ، فربما وجدت مأوى آخر تختفى فيه !

وبلغ اليأس بإيفان غايته ، فكاد يسقط على الأرض ، إلا أن رب الزوابع أسنده وثبته على ظهر الجواد الذى انطلق به فى سرعة رهيبة لم يحس بها إيفان إلا عندما انتبه فوجد نفسه يسبح فى الهواء ، وقد عجزت عيناه عن مواجهة النور الساطع الذى كانت ترسله ربة الشمس من قرص بيتها الكبير .

وأغمض إيفان عينيه ، وقفز إلى الأمام . وفى اللحظة نفسها كانت ربة الشمس قد مدت أشعتها فالتقطته وحملته فى هدوء وأدخلته من الباب ، ثم أغلقتة من خلفه فى سكون .

* * *

عاش الأمير فى بيت ربة الشمس حياة رغدة سعيدة ، ومضت به الأيام دون أن يدرى عددها وذات يوم عادت به الذاكرة إلى أبيه وأمه ، واغتم غما شديدا حين أخذ يفكر فى المصير الذى صارا إليه ، وساءل نفسه : هل استطاعت أخته الساحرة أن تقضى عليهما وتأكل سكان مملكتها جميعا ، أم إنهم انتصروا عليها ، وظلوا يعيشون آمنين فى المملكة ؟ !

ومنذ ذلك اليوم بدأ ستار من الحزن ينسدل على وجهه ، وبخاصة بعد أن تعود الجلوس على حافة نافذة بيت الشمس يطل إلى الأرض . وفى إحدى جلساته أخذ يتأمل

الأرض طويلا حتى وقعت عيناه على المكان الذى كانت تقوم فيه مملكة أبيه . ولما أنعم النظر اكتشف أن المملكة كلها قد تحولت إلى خرائب ، ولم يعد هناك شىء قائم سوى قصر أبيه .

ولاحظت ربة الشمس آثار الدموع فى عيني فتاها رغم السعادة التى جهدت أن تحوطه بها . وسألته ذات يوم : ما سبب حزنك ، وهذه العبرات التى احتقنت بها عيناك من طول ماذرفتا ؟

وأجابها إيفان :

- لاشىء . . . إنما هو هبوب الريح وأنا جالس إلى النافذة !

وتكرر السؤال كل يوم . . . وتكرر نفس الجواب . ولم تجد ربة الشمس بدا من أن تمنع هبوب الريح بالقرب من بيتها .

وفى اليوم التالى لاحظت الربة الدموع نفسها فى عيني إيفان ، وأبصرت الاحتقان فى عينيه . وعندما سألته لم يعد فى استطاعته أن يكذب ، واضطر أن يعترف لها بالحقيقة ، وطلب منها أن تأذن له بالرحيل إلى الأرض ، ليشهد الأماكن التى ولد فيها ، وليبحث عن أبيه وأمه . . . فربما كانا لا يزالان يعيشان فى قصرهما الكبير .

وعطفت ربة الشمس على الفتى ، ورأت ألا تحرمه مما يريد . وعندما سمحت له بالرحيل أعطته زادا ليأكل منه طوال الطريق ، كما أعطته مشطا وفرشاة ، وتفاحتين خضراوين قالت له إن من يأكل منهما يعود إليه الشباب فى الحال حتى ولو كان هرما محطما !

وقبل إيفان ربة الشمس التى ودعته حتى الباب . وقفز الفتى على ظهر جواده الذى انطلق يسبح به فى الهواء حتى هبط إلى الأرض .

وقفل إيفان عائدا ، وفى نفس المكان الذى التقى فيه من قبل بفرتوجار ، رب الزوابع ، وجد فرتوجار يقترب نحو النهاية ، والجبل الوحيد الذى بقى أمامه قد أوشك على الزوال .

وأمسك إيفان المشط الذى أعطته إياه ربة الشمس وطوح به فى قوة . . . فإذا بجبال شاهقة تنهض على الأرض من جديد بعد أن تحول كل سن من أسنان المشط إلى جبل عملاق .

وملأت الفرحة قلب فرتوجار، فقد عرف أن حياته لن تنتهى مادامت قد عادت له أسبابها، وراح يقفز على قمم الجبال جذلان فرحاً، واستأنف عمله في وقوة ونشاط بعد أن اطمأن إلى أن ملك الموت لن يقترب منه لكثرة العمل الذى لايزال عليه أن يتمه!

واستمر إيفان في طريقه حتى اقترب من رب الرياح «فرتودول»، وأطل إيفان فإذا ما بقى أمام الرب ثلاث شجرات يوشك أن يقتلعها، ثم يستسلم للموت.

وتناول إيفان الفرشاة التى أعطتها له ربة الشمس، وقذف بها في قوة. وفي لحظة... امتلأت الأرض بملايين من الأشجار. ولم يكد «فرتودول» يراها حتى أخذ يرقص من الفرح، واحتضن الأمير في قوة وشغف، فقد أضاف إلى عمره سنين كثيرة لن يستطيع ملك الموت أن يقترب خلالها منه مادام العمل الذى عليه أن يؤديه قد زاد من جديد.

وعاد إيفان فاستأنف انطلاقه فوق جواده، حتى التقى بالمرأتين العجوزين، وأطل إليهما فإذا بهما تكادان تنتهيان من نسيج آخر خيط من خيوط رداء الحياة، وقد أعدتا عدتهما للاستسلام للموت بعد أن بلغت من العمر نهايته.

واقترب إيفان من المرأتين، وأعطى كلا منهما تفاحة من التفاحتين اللتين أعطته إياهما ربة الشمس.

ولم تكد المرأتان تقضمان التفاحتين حتى تورد وجهاهما، وعادت بشرتهما كبشرتي فتاتين في العشرين... وأطلت كل منهما إلى الأخرى في حيرة ودهشة لما طرأ عليهما، إذ صارتا شابتين رائعتي الجمال... لايزال أمامهما من العمر آلاف من السنوات تستطيعان خلالها الاستمرار في نسج ثوب الحياة للأرض!

وفي لحظات نسجت الفتاتان منديلا صغيرا، وقدمته للفتى تعبيرا عن شكرهما لصنيعه، وقالتا:

- إذا أحسست بأي خطر يلاحقك، فهز هذا المنديل، تنشق وراءك بحيرة كبيرة هائلة.

وأخذ الأمير المنديل، وانطلق في سرعة يقطع المرحلة الأخيرة إلى مملكة أبيه. وعندما وصل إليها أطل حوله فإذا بالمملكة كلها خرائب تغطيها الجماجم والعظام. أما القصر، فكان الوحيد الذى لايزال قائما في مكانه، لم يحدث له شيء.

وتقدم الأمير في ببطء نحو القصر، ووجد الباب مفتوحا فولوجه. وهناك، في وسط

القاعة الكبرى ، كانت تجلس شابة ، نهضت من مكانها عندما رآته ، ومدت ذراعيها تستقبله في سرور كبير، وقالت :

- إنك أنت إيفان تساريفتش . . . أخى الذى يكبرنى بأعوام . أهلا بك يا أخى ، اجلس هنا على الرحب والسعة . لشد ما أنا مشتاقة إليك بعد طول الغياب !
واستمرت الشابة تبالغ فى ملاطفة الأمير حتى أنس لها ، وجلسا معا يلعبان الزهر ، ويضحكان .

وبعد لحظات . . . توقفت الفتاة عن اللعب ، ونهضت من مكانها ، وقالت :
- استمر فى اللعب يا أخى ريثما أذهب لأعد لك إفطارك .

وهز الأمير رأسه موافقا ، واستمر يلعب بالزهر وحده ، بعد أن غادرت أخته القاعة . ولم تكد تمضى لحظات حتى اقترب من الأمير فأر صغير، وأخذ يتمسح به . ومد الأمير يده ليداعب الفأر، إلا أنه سمعه يقول :

- اهرب أيها الأمير فى سرعة ، فقد ذهبت أختك لتشحد أسنانها لتأكلك !

ونفض إيفان من مكانه ، وانطلق نحو الباب حيث كان الجواد لايزال واقفا هناك ، فامتطاه فى سرعة ، واندفع به فى رعب وفزع ، فى حين كان الفأر يحرك الزهر حتى لاتشعر الساحرة بتوقف إيفان عن اللعب .

وبعد لحظات ، انتهت الساحرة من شحد أسنانها ، ودخلت القاعة وعيناها تقدحان شررا رهيبا ، ولكنها أصيبت بذهول حين وجدت القاعة خالية تماما . . . حتى الفأر، كان قد اختفى فى جحره الصغير !

وزارت الساحرة فى غضب شديد ، وبدت أسنانها من خلال فمها المفتوح مخيفة رهيبة ، وانطلقت مهرولة إلى خارج القصر، وأطلت فلمحت الأمير يكاد الجواد يطير به وهو ينهب سطح الأرض فى سرعة مجنونة وأطلقت المرأة ساقبها خلفه . . . وعندما أوشكت أن تلحق به أطل الأمير وراءه ، فأدرك أنه بات فى خطر شديد . وتذكر المنديل الذى منحته له الفتاتان الجميلتان فأخرجه وهزه فى يده ، فإذا ببخيرة كبيرة واسعة تنشق عنها الأرض خلفه ، وتفصل بينه وبين الساحرة الرهيبة .

وفوجئت الساحرة بالماء يحيط بها من كل جانب فراحت تجاهد وتناضل ، وتضرب الماء بيديها فى جنون مندفعة فى سرعة إلى الأمام . وحين بلغت الشاطئ ، كانت المسافة بينها وبين الأمير قد أصبحت شاسعة .

ومع ذلك لم يهن عزم الساحرة ، بل دفعها الغضب إلى مواصلة الطراد في سرعة مذهلة . لقد أوشكت في لحظات أن تظفر بالأمير بعد أن أصبح كل ما يفصله عنها بضعة خطوات !

وكاد الأمير يستسلم . . إلا أنه حدث في هذه اللحظة أن أطل «فرتودول» - رب الرياح - فأدرك الخطر الذى يوشك أن يحيق بالأمير، فأرسل الرياح عاتية فعصفت بآلاف الأشجار، فاقتلعتها في سرعة ، وألقت بها في طريق الساحرة أكواما هائلة مرتفعة كأنها الجبال .

وفوجئت الساحرة بهذه الكتل الهائلة تسد الطريق في وجهها، وتعوق اندفاعها . . . ومع هذا لم تيأس ، بل أخذت تزيع الأشجار من طريقها في سرعة وقوة لتستأنف مطاردة الفتى الذى اندفع في عدوه حتى بعدت الشقة بينه وبين الساحرة اللعينة ! وفرغت المرأة من إزاحة الأشجار من طريقها ، وزودها الغضب بقوة هائلة ، فاندفعت تتابع الفتى في سرعة رهيبية ، وبدأت المسافة تقصر ، وأصبحت مرة أخرى على بعد خطوات من الأمير الهارب . . .

وكان «فرتوجار» - رب الزوابع - يطل في هذه اللحظة فرأى المأساة التى توشك أن تحل بالأمير، فأسرع إلى مجموعة من الجبال وضعها واحدا فوق الآخر، وسد بها الطريق في وجه الساحرة .

وفوجئت الساحرة بهذه العقبة الرهيبة التى تحول بينها وبين الفريسة ، فلم تستسلم لليأس . . . بل راحت تجهد في اجتياز الجبال في محاولة أخيرة للإمساك بالأمير الذى كان قد أحرز قصب السبق ، وبلغ نهاية الأرض ، وبدأ الجراد يطير به في الفضاء .

وطارت الساحرة خلفه بعد أن نجحت في اجتياز الجبال الشاهقة .

وارتفع صوت الفتى وهو يقترب من قصر ربة الشمس :

- أيتها الربة . . . أيتها الربة . . . افتحى لى نافذتك !

وأطلت ربة الشمس من نافذتها ، فإذا الأمير لايزال بعيدا جدا عن تناول أشعتها . . .

وهتفت الربة الحنون :

- أسرع واقفز إلى ميزان السماء الذى تراه أمامك بينى وبين الأرض .

وسمعت الساحرة النداء نفسه . . فصرخت في أخيها ، وهى تقيس المسافة بين
كفتى الميزان السماوى :

- لا بأس يا أخى . . . اقفز إلى إحدى كفتى الميزان ، وسأقفز أنا الأخرى ، وسنرى
من منا أثقل من الآخر !

وأدرك الفتى أنها تريد أن تخذعه ، ولكنه لم يجد مناصا من أن يقفز فعلا إلى إحدى
كفتى الميزان ، ووقف فى انتظار هبوطها هى إلى الكفة الأخرى .

وفى اللحظة التى مست فيها قدم الساحرة الميزان ، ارتفعت الكفة الأخرى بإيفان فى
سرعة ، وقذفت به وسط السماء إلى حيث قصر ربة الشمس . . . فى حين هبطت الكفة
الأخرى بالساحرة التى ازداد ثقلها ، فقذفت بها من حلق . . . إلى حيث لم تعد مرة
أخرى إلى الأرض على الإطلاق !

أسطورة تشيكية حفيد الشيطان

من أسماء الشيطان التي ظهرت في أساطير العرب اسم «لوسيفر» ومعناه «حامل النور»، وهو في أصله اللاتيني اسم الزهرة، أو «كوكب الصبح المبرق». ومن هنا اتجهت بعض الأذهان إلى ربط «لوسيفر» بالأسرار والعيبيات، وبالوحي الخفى والعرائب. حتى لو لم يكن لها صلة بالشر على الإطلاق بل عدته بعض الأساطير أميل إلى الخير منه إلى الشر.

أما الذى يضعونه في الوسط، فيقولون إنه يلمع ويختال بلمعانه، ويبلغ من العجب بنفسه حد السباحة والصفاقة، فهو الخطيئة الساطعة، أو الخيلاء المتحججة... ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق، وهم لا يشعرون له بالرتاء الذى يصاحب المجد المنهار.

« اذهب إلى الشيطان! »

كان هذا هو الدوى الهائل الذى يسك أذنيه، فلا يسمع سواه في أى مكان يذهب إليه... كان يسمعه في الطريق، وفي المدرسة، وفي المعبد... بل وفي بيت أبيه!

ماتت أم «بيتر» ولما يزل طفلاً. وسرعان ما أحضر أبوه امرأة من المدينة لتكون ربة البيت وأظهرت زوجة الأب للطفل من أول يوم دخلت فيه البيت شعور العداء الغريزي... بالرغم من استقباله لها بمظاهر الحفاوة والفرح البريء.

ولم يكن يحلو للمرأة شيء قدر ما يحلو لها تعذيب الطفل، وتحقيره، والسخرية به، والتلذذ بالكيد له عند أبيه.

ومضت السنوات، والطفل ينمو في هذا الجو الرهيب من القسوة والحقد، صابراً على الأذى، متحملاً القسوة، يلوذ بهم إلى دموعه يذرفها في نشيج مكتوم، كلما خلا إلى نفسه.

وكلما مرت الأيام، ازدادت المرأة قسوة وجبروتا، حتى أحالت حياة الفتى الصغير جحيماً يصل سعيه ليلاً ونهاراً... فهي تؤلب عليه المدرسين في المدرسة فيعاقبونه دون ذنب أو جريرة ويذيقونه من العذاب ما لا يحتمله جسده الضعيف. وفي البيت، لا تنفأ

تثير عليه غضب أبيه في كل مناسبة ، وتنقل إليه الوشايات عن أخطاء فاحشة ، لم تجل يوماً في خاطر الصبي ، حتى امتلأ قلب الأب غلا وحقدًا على ابنه البريء المسكين . وفي ثورة من الغضب الجارف أمسك الأب بابنه ذات يوم من عنقه وجره عبر ردهة الدار إلى الباب الخارجى ، وقذف به إلى عرض الطريق ، وصاح في ثورة :

- اذهب عنى . . . فقد أصبحت لا أطيق رؤيتك !

ووقف الفتى في ذهول ذليلاً يسأل أباه في حيرة وأسى :

- أين أذهب يا أبته ؟ !

فصرخ الرجل الغليظ القلب في ابنه قائلاً :

- اذهب إلى الشيطان !

ثم انثنى المزارع إلى الداخل بعد أن جذب الباب فأغلقه في عنف في وجه الصبي الصغير !

ومشى الصبي في الطريق متثاقلاً حزينا ، وأخذ يتلفت خلفه بين الحين والحين ليلقى نظرات الوداع على مزرعة أبيه التى نشأ في أحضانها ، ولعب في مراتعها ، حتى أصبحت قطعة من كيانه لايسهل عليه فراقها . وكادت الدموع تطفر من عينيه ، لولا أن تذكر أنه قد أصبح « رجلاً » لا يليق به البكاء !

ومضى في طريقه مسرعاً ، حتى اختفت المزرعة عن أنظاره . وعندئذ ، استعاد رباطة جأشه ، وقوة عزيمته ، وامتلاً قلبه ثقة ، فقرر أن يشق طريقه في الحياة دون معونة من أحد .

وبلغ الفتى مع مغيب الشمس قرية ، فدخلها وسار في طرقاتها حتى وصل إلى دار كبيرة تتوسطها ، فوقف أمام حديقتها ، حيث كان صاحب الدار - ويبدو أنه من أثرياء المزارعين - جالساً وأمامه منضدة عليها أطايب الأطعمة ، وقطع كبيرة من اللحم الشهى . . . ورفع الفتى قبعته يحياه قائلاً :

- فلنحمد الله جميعاً !

وأجاب الثرى وهو يلتهم طعامه بنهم :

- إلى يوم القيامة . . . ماذا تريد ؟ !

قال بيتر :

- أستطيع أن أقوم بأى عمل تكلفنى به ، فهل أنت فى حاجة إلى عامل نشيط قوى له خبرة بشؤون الحقل ؟

فابتسم الثرى ساخرا ، وأشار إليه بطرف أصبعه أن ينصرف ، وقال :
- أنت . . . ! وبهذه الملابس الجميلة ! إنك فى هذه الصورة لاتصلح إلا أن تكون سيدا مترفا يجيد الجلوس إلى المائدة ليلتهم الطعام دون أن يعمل . . ابتعد يا فتى ، فليس فى مزرعتى مكان لك . .

ولكن الفتى ألح فى الرجاء قائلا :

- ولكنى أجيد العمل ، فلتجربنى ياسيدى .
فغضب الثرى ، ونفذ صبره من فضول الفتى وتطفله ، وتعطيله عن متابعة الطعام ، فصرخ فيه قائلا :

- قلت لك اذهب من هنا . . اذهب أنت وخبرتك إلى الشيطان ، فلست فى حاجة إليك !

وأحس الفتى بغصة فى حلقه ، وقفل راجعا وقلبه ينوء بالمرارة والهم .
وانطلق قاصدا قرية أخرى ، وسأل عن مقر الشريف ، ولم تمض لحظات حتى كان يقرع بابه فى رهبة وحذر . .

وفتحت امرأة الشريف الباب ، وسألت الطارق فى حدة :

- من أنت ؟ وماذا تريد ؟

فأجابها فى رجاء وهدوء :

- إننى أبحث عن عمل أقنات منه . . . فهل أجده فى مزرعتكم ؟ إننى خبير فى شؤون الزراعة .

فتفحصته المرأة ، وهزت رأسها قائلا :

- انتظر . . إن زوجى يلعب الورق مع بعض أصحابه ، فاصبر حتى أسأله . . .
واختفت المرأة . ولم يطل انتظار الفتى ، إذ سمع صوتا غاضبا يقول فى خشونة وغلظة :

- كم مرة طلبت إليك ألا تزعجيني عندما أكون مشغولا . . ليس لدى عمل لأحد ، فأخبرى هذا الوغد أن يذهب إلى الشيطان !

وانسحب الفتى فى هدوء ، وسار فى الطريق إلى الغابة ، ومضى يخرق مسالكها فى صعوبة . . . وفى رأسه دوامة هائلة من الأفكار السوداء . وبين الحين والحين يطن فى أذنيه صوت له صدى رهيب يردد فى مسامعه كلما توغل بين الأحراش :

- اذهب إلى الشيطان . . اذهب إلى الشيطان .

وتكالبت عليه الأحزان ، وآلام التعب ، ووطأة الجوع . . . فتهالك إلى جوار حجر كبير ، واعتمد رأسه بين كفيه ، وأطلق لأفكاره العنان . . . ولم يستطع « بيتر » عندئذ كبت دموعه ، فانهارت العبرات على خديه فى حرقة ولوعة .

وسمع الفتى وقع أقدام تقترب منه فى هدوء ، ورفع رأسه فأبصر أمامه سيدا مهيبا يرتدى ثيابا فاخرة ، ويلتف بعباءة موشاة خضراء زاهية اللون . . . اقترب الرجل منه وعلى شفثيه ابتسامة غامضة ، ومال عليه ، وربت على كتفه فى حنان ، وقال فى رقة وعطف :

- ما هكذا تكون الرجولة يابنى ! لعل أمرا خطيرا يبكيك . قل لى يافتى ، فقد يكون فى وسعى أن أخفف عنك .

وكفكف الفتى دموعه ، ولاحت له فى حديث الرجل بارقة من أمل ، فأجاب فى أسى ظاهر :

- إن الناس جميعا يوصدون أبوابهم دونى . . . إبنى لا أستجدى ياسيدى ، وإنما أبحث عن عمل شريف أعيش منه . وكلما سألت أحدهم أن ييسر لى هذا المطلب ، لا أسمع منه سوى الزجر مشفوعا بجواب واحد لا يتغير « فلتذهب إلى الشيطان ! » فأين هو الشيطان لأذهب إليه ، فقد يكون أرق قلبا من الإنسان ! وازدادت ابتسامة الرجل ، وبدت أكثر غموضا من ذى قبل ، وقال :

- رويدك يابنى . . ألا تخشى الشيطان إذا قابلته ؟

فأجابه الفتى على الفور :

- دلنى عليه بربك ، فلن يكون أقسى على من أبى وامراته . . . و . . .

ولم يتم الفتى قوله . . . فقد رأى الرجل ينتفض فجأة انتفاضة سريعة ، وإذا به يتحول إلى مسخ رهيب : له عيتان تشعان فى ظلام الليل وميضاً من نار ، وقرنان مشرعان فى حدة الرمح المسنون . . . وأشار بمخالبه إلى صدره الضخم ، وقال من ثنايا أنيابه

البارزة :

- هأنذا أمامك . . أنا الشيطان !!

وبالرغم من هذه المفاجأة الرهيبة ، فإن الفتى لم يفرغ ، وإنما تعجب ، وقال فى هدوء وجنان ثابت :

- أحقا أنت الشيطان ؟ ! إنه لمن بواعث سرورى أن تحضر إلى فى الوقت الذى أبحث فيه عنك . . أيمكن أن يكون هذا حقيقة ، أم ترانى فى حلم ؟ !

إنها الحقيقية يافتى : فأنا « لوسيفر » ، وأنا أرحب بك إن كنت لاتزال على رأيك . ولا شك أنى سأجد لك من الأعمال مايرضى طموحك .

وسأله بيتر:

- مانوع العمل الذى يمكن أن أؤديه ؟

فأجاب « لوسيفر » باسمه :

- عمل بسيط : ساعاته قليلة ، وأجره ضخيم . . إنه عمل لايليق إلا بمن كان شجاعا غير هياب مثلك .

وأوما بيتر برأسه موافقا ، وقال :

- مرحبا بالعمل معك ياالوسيفر . . هيا بنا ، فإنى أتحرق شوقا لأثبت لك جدارتى .

فقهقه الشيطان قهقهة صاخبة تردد صداها الرهيب فى أرجاء الغابة ، ومد يده للفتى قائلا :

- مرحى . . مرحى . . سأستبقيك فى خدمتى سبع سنين ، أمنحك بعدها هدية تغنيك مدى الحياة . .

وشد كلاهما على يد صاحبه ، وطوق الشيطان حليفه الجديد ، وضرب الأرض فانشقت . . فغابا فى أعماقها حتى بلغا غيابة الجحيم . ولفحت الفتى حرارة السعير المحرق ، إلا أنه غالب إحساسه ، ولم يبد عليه أنه يعانى شيئا . . ففى سبيل أن يتعد عن جحود الناس ، رضى أن يقتحم الجحيم !

وناوله الشيطان عباءة من الجلد ، أمره أن يلتف بها جيدا ، وقاده إلى قاعة واسعة :

تتوسطها ثلاث قدور هائلة ، وتنعقد فوقها سحب من البخار تتخللها ألستة زرقاء من الشر المتطاير.

وقال الشيطان :

- هذا هو المكان الذى ستعمل فيه . . . إن عملك هو أن تمد النار تحت القدور الثلاث بالوقود حتى تظل مشتعلة دائما . والحذر، كل الحذر، أن تنطفئ جذوتها . . ولو ثوانى . وثمة أمر آخر : إياك أن تنظر إلى داخل قدر من القدور الثلاث .

ووجد بيتر أن المهمة سهلة ميسورة ، فhez رأسه قائلا :

- اطمئن ياسيدى . . . ولن أنسى تعليماتك قط .

وشمر عن ساعديه ، ومضى يباشر عمله فى غبطة وسعادة!

مرت الأيام والأسابيع . . وبيتر عاكف على عمله يؤديه فى إتقان ودأب دون أن يشعر بتعب أو ملل ، محافظ على الوعد الذى قطعه على نفسه : فهو يواصل مد النار بالوقود دون أن يحاول النظر إلى داخل القدور !

وكانت الشياطين الصغار التى ترح فى أرجاء الجحيم ، قد علمت بوجوده ، وتوطدت بينهما الألفة ، فكانت تقضى أغلب أوقاتها معه : تسليه بلعبها ، وتعاونه أحيانا فى عمله حين يشعر بالحاجة إلى شىء من الراحة .

واطمأن الشيطان إلى بيتر، وإلى إخلاصه فى عمله ، فأضفى عليه من ضروب الرعاية والمعاملة الطيبة ما جعل الفتى يشعر وكأنه يعيش فى الجنة لا فى الجحيم!

ومضت السنوات أسرع مما يتصور، وبدأ بيتر يحن إلى حياة البشر، ويشعر بالشوق إلى مشاهدة الخضرة والماء ، وتبادل الحديث مع القرويين . وخطر له يوما أن يسأل الشيطان عن المدة الباقية من السنوات السبع التى اتفقا عليها فأجابه لوسيفر:

- غدا . . . تنتهى المدة .

وأصبح الصباح ، وأقبل الشيطان على بيتر يحبيه ويشكره قائلا :

- لقد انتهت المدة التى اتفقا عليها . . وقد أصبحت منذ الآن حرا . وأشهد أنك خدمتنى بكل أمانة وإخلاص . . فتمن على ما تريد ، وإنى لك لمجيب .

فقال بيتر:

- أريد أن أكون غنيا!

وسأله لوسيفر:

- هل يكفيك أن تحصل على أى مبلغ من المال متى أردت وفى أى وقت من الأوقات؟!

وتهلل وجه بيتر، وقال على الفور:

- أجل . . أجل . . هو ذاك .

فقال لوسيفر:

- إذن خذ هذا الكيس السحري، واحتفظ به جيدا، فاذا احتجت إلى أى مبلغ من المال، فما عليك إلا أن تفتحه، وتطلب المبلغ الذى تريد، فتجده فى الحال بداخله!

وانبسطت أسارير الفتى . . واستأنف الشيطان قائلا:

- أحب أن أنبهك إلى شىء هام . . إنك ستجد المتاعب عند عودتك إلى الأرض، فإن السنوات السبع التى قضيتها فى الجحيم قد سودت بشرتك . ولا تنس أنك لم تغتسل طوال هذه المدة، ولم تقص شعرك أو أظافرك، ومن ثم فإن الناس سيظنونك الشيطان! وأجاب بيتر ذاهلا:

- أجل . . . هذا صحيح . لقد نسيت هذا الأمر ومع ذلك فإن من الممكن إصلاحه حالما أصعد إلى الأرض.

فأجاب « لوسيفر »، وفى لهجته شىء من الرثاء:

- إن أى حمام لن يجديك نفعا، وماء الأرض كله لن يزيل عنك الأوساخ . فاذهب إلى الأرض كما أنت . . . وعندما تصل، اقرع أول ناقوس يصادفك، فإذا اجتمع الناس حولك، قل لهم إنك حفيد الشيطان، وإنك عشت معهم كما عشت معى، فلم تجد فى أرضهم جزءا ضئيلا من السعادة التى نعمت بها فى جحيمي . . وسأراقبك دائما، فإذا وجدت نفسك فى حاجة إلى فنادنى تجدنى إلى جوارك على الفور!

وودع بيتر الشياطين السود الصغيرة، وألقى بنفسه بين ذراعى لوسيفر، فاخترق به الجحيم عائدا إلى سطح الأرض، وإلى المكان الذى التقى به فيه أول مرة منذ سبع سنوات .

واختفى لوسيفر فى باطن الأرض كما جاء ، ووجد بيتر نفسه وحيدا فى الغابة ، ومعه الكيس المسحور!

ومضى بيتر عائدا إلى قريته ، وقد فاض به الشوق إلى لقاء بنى جنسه . وأبصر قوما قادمين فى الطريق ، فأسرع نحوهم فى سعادة غامرة . وما إن وقف أمامهم ورفع يده لتحيتهم ، حتى دوت فى أذنيه صرخات الفزع ، وفر القوم من أمامه ، وهم يتعثرون فى خطوهم ، وصيحاتهم تخرق الفضاء فى رعب وفزع :

- الشيطان . . . الشيطان . . .

وأحس « بيتر » بحزن عارم يكاد يعصف به . . . إلا أنه تمالك شعوره سريعا ، ومضى فى طريقه غير ملق بالا إلى الناس الذين يفرون منه كلما اقترب منهم ، كما لم يعبا بالنسوة اللائى يجذبن أطفالهن إلى داخل الدور ، ويحكمن إيصاء الأبواب كلما رأينه . وتوجه من فوره إلى خان يعرفه . وكان صاحب النزل وامرأته يقفان على بابه فاقتربا منها فى خطو وئيد ، وهمس قائلا :

- فلنحمد الله جميعا !

ولم يسمع ردا على تحيته ، فما إن انتبه الرجل وامرأته إليه ، وأبصرا بشاعة خلقته ، حتى هرولا إلى الداخل ، وأوصدا الباب فى وجهه ، وصرخاتهما الفزعنة تشق أجواز الفضاء .

ودفع بيتر الباب الذى نسى الزوجان ، لفرط رعبهما إحكام رتاجه فانفتح على مصراعيه ، وحين ولج الباب رأى صاحب الخان وزوجته مطروحين على الأرض فى غيبوبة .

ومضى الفتى إلى منضدة منعزلة ، وجلس بعض الوقت ، ثم قام إلى الزوجين ، فسكب على رأسيهما كثيرا من الماء حتى أفاقا . . . وعاد إلى المائدة بعد أن أمر الرجل بأن يوافيه بأطيب الطعام وأجود الشراب !

ونفض الرجل مرتجفا يكاد يقتله الفزع ، ومضى ليلبى رغبة المارد الأسود الرهيب ، فى حين انطلقت زوجته إلى حجرات الخان الخلفية فتوارت فيها .

ونزل الرجل إلى القبو فى خطوات متعثرة واجفة ، وأطل من نافذة القبو على حظيرة الجياد ، ودعا فى همس أحد الغلمان فى الحظيرة وناولهم زقا من الخمر المعتقة ، وقال له فى صوت مرتعش :

— أسرع بها إلى القاعة يا «بيريك»، فهناك سيد غريب ينتظرها، ولا تخف من مظهره، فإنه لن يؤذيك!

وصعد «بيريك» بالزق إلى القاعة، وتقدم على مهل . . . ولم يكذ يلمح الغريب الجالس إلى المائدة، حتى صرخ في فزع، وانهارت أعصابه، فسقط الزق من يده وتحطم على الأرض، وسالت الخمر على سلم القبو حتى وصلت إلى صاحب الخان . . . واندفع الغلام هابطا، وكأنها في أثره ألف شيطان!

واستقبله الرجل وفي يده عصا ضخمة، وصرخ فيه:

— أهكذا تكسر الزق، وتريق مافيه من خمر؟ يا لخسارتى، وبالضيعة مالى! سأخضم ثمنها من أجرك أيها المجرم . . . هيا يالعين، خذ غيرها واصعد بها إلى السيد! ودفع الرجل الصبى الذى أخذ يصعد السلم حاملا إناء الخمر، ويجر ساقيه جرا إلى داخل القاعة وهو يتعثر.

وقال بيتر يدعوه فى رقة وحنو:

— اقترب أيها الفتى الصغير. . لا تخف! فإنى لست شيطانا كما يخيل إليك . . . اقترب، لا تخف فلن أؤذيك!

وتقدم «بيريك» والرعدة تسرى فى بدنه من رأسه إلى إخمص قدميه، وأحكم قبضته على الإناء خشية أن يسقط من يده، ووضع الإناء على المائدة محاذرا أن يرفع بصره إلى وجه السيد الذى يثير منظره الرعب فى أشد القلوب ثباتا.

وسأله بيتر وهو يعب الخمر فى نهم:

— من أين لكم مثل هذه الخمر اللذيذة المعتقة؟

قل لى : ما اسمك أيها الفتى؟!

وأجاب الغلام وعيناه إلى الأرض:

— بيريك اليتيم!

فقال بيتر:

— ولماذا تعمل فى هذا المكان؟!

فرد الفتى وقد بدأت الرعدة تزايله، ويحل بقلبه الاطمئنان:

- كان على أن أجد أى عمل . . . أى عمل مهما يكن!
وسأله بيتر:

- ولكن يبدو لى أنهم لا يعاملونك هنا معاملة كريمة . . . أليس كذلك؟

وأنس الفتى إلى السيد ، وارتاحت نفسه إلى حديثه ، وشعر بالاطمئنان والثقة ،
وأحس كأنه يتحدث إلى صديق قديم . . . وفعلت رقة السيد فى نفسه فعل السحر ،
فانحلت عقدة لسانه ، وأخذ يحكى قصة حياته ، وكيف لجأ إلى صاحب الخان الغليظ
القلب . . . الذى يستنزف قواه كلها مقابل خمسة عشر شلنا فى العام !

وأثارت قصة الغلام شجون « بيتر » ، وتذكر قصة حياته ، وقارن أوجه الشبه بين
القصتين ، وحملى فى الغلام متأملا معالم البؤس التى تخيم على سماته الحزينة . ولم يلبث
أن أخرج الكيس المسحور ، وهمس بمبلغ ضخيم من المال ، وأشار للغلام أن يخلع
قبعته ، ثم أفرغ فيها الكيس ، فامتألت القبعة بالدوكات الذهبية !

وكاد الغلام يطير فرحا ، وهو يرى تلك الثروة الضخمة تهبط عليه من يدى هذا
الملاك الكريم ، وأخذ يقبل يديه ، ووجهه ، وثيابه ، ثم انثنى يرقص ، ويقفز ، ويجرى فى
كل اتجاه . . . ثم هتف فى سعادة :

- إنه ليس شيطانا . . . إنه ملاك كريم . لقد ملأ قبعتى ذهباً . . . إنه ليس شيطانا !
وأقبل صاحب الخان مهرولا على صبيحات الغلام . ولم يكذب يرى الذهب فى قبعته ،
حتى تبخرت الرعدة التى انتابتة فى الهواء ، وانقشعت عنه سحابة الجبن التى غشيتها ،
وانقلب هلعاً إلى جرأة منقطعة النظير ، وففز سلام القبو فى خطوات ، وعاد فى ثوان
يحمل دنا مليئا بخمر معتقة منذ عشرات السنين ، فوضعها أمام السيد فى احترام كبير ،
وقال :

- إننى لا أقدم من هذه الخمر لرواد خانى على الإطلاق ، ولكنى أقدمها هدية منى
إكراما للسيد الذى يشرفنى لأول مرة . . . وأقسم ألا أتقاضى عنها ثمنا !
وأطرب هذا التملق قلب بيتر ، فأطلق ضحكة قوية ، وقال للرجل :
- أعتقد أنى سأجد هنا غرفة ذات فراش وثير ، أقضى فيها ليلتى .
فأجابه الرجل :

- الخان بجميع حجراته رهن إشارة من طرف بنانك . . . يامولاي!

* * *

لم يكذب بتر يتمدد على الفراش ، حتى أحس يداً قوية تهزه في رفق . ففتح عينيه وهو يتشاءب ، ففوجئ بلوسيفر كبير الشياطين يهمس في أذنه قائلاً :

- أسرع إلى الحظيرة يا بتر . . إن صاحب الخان يوشك أن يقتل الغلام من أجل الدوكات الذهبية!

فقفز بتر من فراشه في سرعة ، وفي مثل لمح البصر كان يقبض بيد من حديد على عنق صاحب الخان ، الذي رفع خنجره الحاد وأوشك أن يغمده في قلب الغلام النائم ليستولى على ذهبه . وصرخ الرجل ، وأخذ يئن أنينا مفزعاً . وأمسك بتر بيده ، ودفعه أمامه قائلاً :

- أيها القاتل ، سأحملك إلى الجحيم ، وألقى بك في الزيت المغلي ، فتظل تصرخ إلى الأبد جزاء جرمك الشنيع!

وما إن سمع الرجل تهديد السيد حتى خارت قواه ، وانهار مغشياً عليه . . . فجذبه بتر إلى خارج الحظيرة ، وعاد إلى الغلام الذي هب من نومه فزعا على صوت الرجل الغريب وهو ينذر صاحب الخان . وأدرك الفتى ما كان يدبره صاحب الخان للاستيلاء على دوكاته الذهبية ، فانكب على قدمي السيد يقبلهما في شكر وامتنان .

وخطا بتر إلى خارج الحظيرة ، ومعه الغلام ، وأمره بإحضار بعض الماء ورشه على صاحب الخان لإفساقتة . وفتح الرجل عينيه ، ثم استوى جالساً في جهد . . . ولم يكذب بتر وعيه ، ويدرك مغبة فعله الأحمق ، حتى هرع صوب السيد الغريب والصبي ، وارتمى تحت أقدامهما يطلب منهما العفو والمغفرة ، ووعد بالتنازل عن كل أملاكه مقابل ألا يحمله السيد إلى الجحيم . . . فقال له بتر :

- احتفظ بأملاكك ، وسأعفو عنك بشرط أن تحسن معاملة بيريك ، وترسله إلى المدرسة ليتعلم . . وسوف أنفذ تهديدي في الوقت الذي يشكو إلى فيه الغلام أنك أسأت معاملته ، أو تراخيت في تعليمه!

فقال الرجل وهو يرتجف من فرط الرعب :

- أعدك ياسيدي بأن أنفذ كل ماتطلبه ، وسأعامل بيريك وكأنه ابني الوحيد!

لم يغادر بيتر الخان بعد ذلك قط . . . فهو يقيم في أحسن حجراته ، ويتمتع بأطيب الطعام ، ويشرب أجود الخمر ، ويلقى من صاحب الخان وزوجه خدمة لم يكن يحلم بمثلها . .

وكان لدوكاته الذهبية ، وإنعامه بها على أهل القرية ، فعل السحر في نفوس الجميع . . . فلم يكن لهم من حديث في سهراتهم واجتماعاتهم إلا عن السيد الثرى ساكن الخان .

وتواترت أنباء السيد الثرى حتى بلغت مسامع أمير المقاطعة ، الذى كان يعانى منذ وقت طويل ضائقة مالية أخذت بخناقها ، فلم يعد يملك منها مخرجاً . . .

وما إن تحقق من قصة النزول الثرى ، حتى أيقن أنها فرصة اتاحتها له الأقدار ، فإذا فاتته فلن يعوضها مرة أخرى . . . ومن ثم سارع بإيفاد رسول من طرفه يدعو السيد الثرى إلى مقابلته !

واستقبل بيتر رسول الأمير فى سخرية ، وقال له فى حزم صارم :

- قل لسيدك إننى لا أذهب إلى أحد . ومن يريد أن يلقانى ، فعليه أن يحضر إلى !
وأدار ظهره للرسول ، الذى انسحب فى سرعة من أمامه عائداً إلى مولاه ليبلغه الرد العجيب !

واستشاط الأمير غضباً . . . فهو لم يتصور قط أن أحداً من الخاضعين لأحكام إمارته يجرؤ على رفض القدوم إليه . . بل ويطلب أن يذهب إليه الأمير بنفسه !

وكان « بيتر » واثقاً أن الأمير سيحضر إليه مرغماً . . . فقد كان يعلم مدى مايعانيه من ضائقته المالية التى أوقعه فيها نزق ابنتيه الكبيرتين ، وإسرافهما فى بعثرة الأموال ، حتى خوت خزائن البلاد ، وأوشك الشعب على الثورة . . ولولا حب الأهالى لصغرى بنات الأمير « انجيلينا » وعطفهم عليها ، لأعلنوا العصيان ضد الأمير ، وخلعوه من منصبه منذ زمن بعيد . فقد كان جمال الأميرة ورقتها وتجاوبها فى محبة الأهالى ، وكرها لتصرفات أختيها . . . سبباً فى تخفيف حدة الثورة ضد الأمير . وكلما فاض بهم الغضب ، طافت بأذهانهم صورة الأميرة الجميلة ، فهدأت ثورتهم ، وصبروا أملاً فى أن تنجلي الغمة بوسيلة أخرى . وملاً حديث صاحب الخان عن « انجيلينا » أسماح بيتر ، وأدار رأسه ماسمعه عن جمالها . . . حتى أصبح شغله الشاغل كل مساء ، أن يدعو إليه الرجل ،

ويغدق عليه المال، ويعاقر معه الخمر في إفراط، ويستدرجه في الحديث عن انجيلينا . . . وقال له صاحب الخان:

- آه ياسيدى لو قدر لك أن ترى جمالها الملائكى الطاهر. . . لا أظن أن في الوجود من تضارعها جمالا ورقة. وعلى النقيض منها، قبح أختيها الشريرتين الحقودتين. إن أهالى القرية ياسيدى ليتمنون أن يتخلصوا من هاتين الأميرتين في كل لحظة. إن الحديث عنهما يثير الغضب. . . ألا فليذهبا إلى الشيطان!

واستدرك الرجل حين زل لسانه بذكر الشيطان فضرب بيده على فمه صائحا في زعر:

- يا إلهى . . . أنا . . . لم أقصد.

وقاطعه بيتر ضاحكا:

- لا عليك . . . فأننا لست الشيطان كما تظن، ولكنى حفيده الصغير!

* * *

واقتربت من الخان ضجة يثيرها وقع حوافر جياد كثيرة، وصليل أسلحة. ولم تلبث الجياد أن توقفت أمام الخان، فقام صاحبه مهرولا لاستقبال الوافدين، ففوجئ بالأمير وحرسه يلجون الباب. وابتدره الأمير في لهجة متعالية:

- أين حجرة السيد الغريب أيها الرجل؟

فانحنى صاحب الخان، وأشار بيده إلى الأمير أن يتفضل فيتبعه. وسار أمامه حتى بلغا حجرة بيتر، فطرق الرجل الباب، ثم دفعه في رفق، وأومأ إلى الأمير بيده، وانسحب عائدا.

وخطا الأمير إلى الداخل. . . وتوقف بغتة حين أبصر ذلك المخلوق البشع الذى قام ليرحب به. وارتعدت فرائص الأمير، وهم بالفرار. . . إلا أنه تذكر المهمة التى جاء من أجلها، فتمالك، وتقدم ليصافح مضيفه، محاولا أن يبدو ثابت الجنان، رابط الجأش.

وجلس حفيد الشيطان والأمير يتحادثان في تكلف ظاهر. . . والأمير يحاول التغلب على خجله، وينتظر الفرصة السانحة ليطرق الموضوع الذى جاء من أجله. وعندما بدا أنهما لا يجدان ما يتحدثان فيه، مال الأمير على مضيفه، وشرح له ماتعانيه البلاد من جراء الضائقة المالية، وطلب إليه أن يعاونه في علاج الحالة. . . بمنحه قرضا كبيرا يسدد منه

ديون البلاد، ويساهم في إنعاش اقتصادياتها .
وأصغى إليه بيتر في اهتمام، ثم قال له في لهجة حاسمة لا تقبل النقاش :
- سأعطيك كل ماتطلب مقابل شرط واحد!
فسارع الأمير وأبدى استعدادة لتنفيذ هذا الشرط مهما يكن .
وقال بيتر:

- زوجنى إحدى بناتك .
وبهت الأمير، وبدأ عليه التردد . . . إلا أنه سرعان ما قال :
- لا بأس . . . ولكن أى بناتى تريد؟!
- فأجاب بيتر:
- أيهن سواء . . . وسأحضر إلى قصرى غدا لأعطيك المال، وأشهد عروسى المقبلة!

* * *

وعاد الأمير إلى قصره، وجمع بناته الثلاث، وأطلعن على الموقف الدقيق الذى تمر به البلاد، والإفلاس الذى يعانیه وينذر بأخطار العواقب . . . وأشار في حديثه إلى الفرصة التى أتاحها له الأقدار بنزول حفيد الشيطان في ضيافته، وأفاض في وصف ثرائه، وأكوام الذهب التى يبعثها دون حساب . . . ثم بلغ بالحديث بيت القصيد فصارع الأميرات بقوله :

- لقد عقدت اتفاقا مع الضيف لإقراضى أموالا طائلة أسدد منها جميع ديون البلاد وديونى، وتوفر لنا جميعا العيش في رخاء تام . . . ذلك كله سيفعله الرجل مقابل أن يتزوج إحداكن .

ومضى يشرح لبناته الثلاث حرج موقفه، والثورة التى بدت نذرها للإطاحة بعرشه، وقال :

- إن خلاصى في أيديكن . إن حفيد الشيطان على درجة من القبح حقا . . . إلا أنه إذا قص شعره وقلم أظافره، واغتسل، فسيصبح عندئذ مقبولا لاضير في الزواج منه!
وكانت الأميرات قد سمعن الكثير عن بشاعة هذا النزول وقبحه، ففاجأت الأميرتان الكبيرتان أباهما بإعلان رفضهما لهذه الزيجة، وسخرتا من الرأى الذى رآه أبوهما، وأخذتا تلومانه لتضحيته بهما في سبيل المال!

وحز هذا الجحود في نفس الأمير، وخاصة من ابنتيه اللتين تسببتا بنزقهما وإسرافهما في الضيق الذي تعانيه البلاد، وكادت الدموع تطفر من عينيه أسفا وحزنا!
وتقدمت أنجيلينا الصغيرة، فطوقت عنق أبيها بذراعيها، وأعلنت في شجاعة أنها ستتزوج من حفيد الشيطان مهما تكن بشاعته، وستذهب معه إلى أى مكان . . ولو كان الجحيم!

وأغرقت الأميرتان الشريرتان في الضحك، وقالتا للأميرة الصغيرة في سخرية:

- نعم، يا أختاه، فإنك خير من تليق بحفيد الشيطان!

وأمسكتا عن الضحك والسخرية من أختيهما . . عندما دخل أحد الخدم مهرولا، وعلى وجهه أبلغ مظاهر الفزع، ليعلن للأمير وصول حفيد الشيطان!

وأسرع الأمير فاستقبل ضيفه، وصافحه في ترحاب وتكريم، وقاده إلى القاعة الكبرى، حيث جلسا يتحدثان. ودخلت كبرى الأميرات، وما كادت تلمح الضيف حتى تراجعت إلى الوراء فجأة وندت عنها شهقة رعب، واستدارت لتغادر القاعة بأقصى سرعتها وهي تصرخ في فزع.

ودخلت الأميرة الثانية بدافع من الفضول لترى الذى أثار رعب شقيقتها، ولم تلبث أن عادت في هلع وعلى قسماتها من مظاهر الفزع والرعب ما أعجزها عن النطق.

وتقدمت أنجيلينا في ثبات، وولجت باب القاعة، ولم تعد كأختيهما صارخة مهرولة . . بل سقطت مغشيا عليها. ولم يطل إغماؤها فقد أفاقت في سرعة وإن ظلت ترتعد، وقام أبوها فأسندها، وسار بها إلى حفيد الشيطان، وقدمها إليه. وقام بيتر ومد يده فصافحها، وأخذ بين يديه كفها المرتعشة التى هربت منها الدماء فصارت في برودة الثلج، وقال في رقة يهدئ روعها:

- لا تخشى شيئا يا أميرتى، فلن أكون على هذه الصورة البشعة دائما . . بل سيتغير هذا المظهر إذا ما وثقت بى، واطمأنت إلى، وتأكدت من شىء واحد فقط: هو أنى أحبك، وسأظل أحبك ماحييت!

وسرى صوته الرقيق فى أعماق أنجيلينا كالسحر وزايلها الرعب، وأحست بالراحة والاطمئنان، وإن كان قلبها الرقيق لا يزال يشعر ببعض الرهبة.

وهم بيتر بالانصراف، وانتحى بالأمير جانبا، وسلمه مبلغا من المال، ثم أعلن أنه

سيعود بعد أسبوع لإتمام الزفاف . .

انطلق بيتر في الطريق إلى الغابة، حيث التقى بالشيطان أول مرة. وفي نفس المكان الذي تقابلا فيه، نادى الشيطان باسمه، فانشقت الأرض عن لوسيفر، وعلى وجهه ابتسامة هادئة، وقال :

- لبيك يا حفيدي الصغير. . . أدعوتني؟!

فقال بيتر:

- أرجوك يا لوسيفر. . . بحق إخلاصى في أداء مهمتى لديك، أعد لي صورتي الطبيعية، وأعدك ألا أضايقك بعد ذلك قط. . . إني أحب الأميرة أنجيلينا ولا أنحمل أن أراها تقاسى الألم من منظرى المخيف!

وأجابه لوسيفر:

- لك ماتريد. . . امسك بمعطفي، وسأذهب بك إلى حيث تغتسل.

وفرح بيتر فرحا شديدا، وأسرع فتشبت بأطراف المعطف بكلتا يديه، ولم يلبث أن طار به الشيطان إلى عنان السماء. وأخذ الشيطان يخلق فوق الجبال والوديان، ويطير فوق غابات كثيفة ذات منظر عجيب. وبعد وقت ليس بالقصير أخذوا يهبطان، حتى استقرا على شاطئ بحيرة تتلألأ مياهها كالفضة، وقال لوسيفر:

- انزل فاغتسل في هذه البحيرة، وستخرج منها شابا أكثر بهاء وروعة مما كنت!

واندفع بيتر فألقى بنفسه في الماء، وجعل يغطس ويطفو في فرح وسعادة غامرة. وعندما خرج من الماء كان قد عاد فتى جميلا ناضرا، أملس الجلد، ناعم البشرة، حليق الذقن، مقلّم الأظافر.

وأشار إليه لوسيفر أن يمسك بطرف معطفه، وطار به حيث أنزله في مدينة عظيمة. . . تموج شوارعها بمتاجر فخمة تعرض أجود أنواع الملابس وأفخرها. ومضى الفتى يتجول بين المتاجر، ويتتقى لنفسه أروع وأبهى ما فيها، واشترى عربة فخمة مذهبة، تجرها جياد ناصعة البياض، واستأجر حاشية من الأتباع. . . وانطلق في مركبه الرائع، قاصدا قصر أميرته الحبيبة.

وكانت الأميرة تطل من نافذتها فأبصرت هذا الضيف يدخل في مركبه الرائع إلى القصر، فراعها جماله، وأعجبت بأناقته وحسن هندامه، وظننته جاء خاطبا لإحدى

شقيقتها ، فشعرت بالغيرة والحسرة ، وأخذت تقارن بين جماله الساحر ، وبشاعة قبح خاطبها . وبين الحسرات والتنهدات أحست بخطوات تقترب من باب حجرتها ، وسمعت طرقا خفيفا على الباب ، فأذنت للطارق بالدخول . . فإذا الأمير الشاب الذى رآته من لحظات يسرع إليها متهلل الوجه مشرق البسمات ، ويهتف فى سعادة :

- أنجيلينا . . أميرتى المحبوبة ، ثم انحنى على يدها يلثمها فى وجد واشتياق .

وتراجعت الأميرة إلى الوراء ، وتملكتها رعدة شديدة ، وتسارعت نبضات قلبها تخفق فى عنف . . وصدى الكلمات يتردد فى مسامعها ، وقالت كمن تحدث نفسها فى دهشة :

- لا . . إنه أمر غير معقول ! حقا إنه صوت حفيد الشيطان دون مرء ، ولكن . . هذه الصورة كيف . . لا . . لاشك أنى واهمة !

وهتف الأمير الشاب فى صوت رقيق :

- إنه أنا يا أنجيلينا . . بيتر . . حفيد الشيطان !

وارتمت الفتاة فى أحضانه ، وترقرقت فى عينيها دموع السعادة . .

وعاشت أنجيلينا وبيتر فى هناءة ورغد ، يحوطهما لوسيفر برعايته . ونهشت الغيرة صدر الأختين الحقودتين ، فأخذتا تنفثان سموم حقدما حول شقيقتيهما للنيل منها والقضاء على سعادتهما ، وقد ملأهما الندم على رفض الزواج من حفيد الشيطان ، فلم يكن يدور فى خلدهما قط أنه على هذه الصورة من الجمال والشباب . .

وأدرك لوسيفر أن الزوجين فى حاجة إلى حمايته من هذا الشر ، فانقض على الأميرتين ، وأحاط بهما قائلا :

- أنا لوسيفر الذى سخرتما به ، ورفضتما الزواج من حفيده ، وسأخذكما معى لأكفى الناس شركما . . لقد تزوجت الأميرة الصغيرة من حفيدى الصغير ، وأنتما أكبر منها فلا يليق بكما إلا شيطان كبير !

وما إن فرغ من حديثه ، حتى حملهما على ظهره ، وضرب الأرض بقدمه فانشتت ، فاندفع بالشريرتين إلى أغوار الجحيم !

أسطورة فرنسية الكيس السحري

« القديسون والشياطين » عمدة رئيسية في الأساطير الشعبية التي ابتدعها خيال الفرنسيين لعرض الصراع بين الخير والشر، الذي ينتهى دائماً بانتصار الخير
وهذه الأساطير التي ساهم بها الفرنسيون في هذا الميدان تعتمد موضوعاتها غالباً على الكتاب المقدس، وتمثل بين جدران الكنائس والمعابد في محاولات يقولون عنها . « إذا ما تصفحتها جيداً، لابد أن تستخرج منها أمثلة طيبة . . . »

كان كل ما خرج به من الجيش ، بعد خدمة دامت بضع سنين ، هو ستة فلسات ورغيف من الخبز!

ومع ذلك فقد قبل كفه ظهراً لبطن ، وانطلق في الطريق عائداً إلى قريته ، ومن بين شفتيه ينطلق صفير هادئ منغوم!

وبدا له من بعيد شيخان يتوكأ كل منهما على عصا ضخمة ، وكأنهما يحملان فوق كاهليهما أعباء سنين طويلة صاخبة .

وخفت صفير « أيون » وهو يقترب من الشيخين المسنين ، وخف دبيب خطواته كلما اقترب منهما ، ولم يكذبوا وجه الشيخين حتى كان قد سكت تماماً!

وتأمل الشيخان لحظات ، قبل أن يتندراهما معا في صوت لا يكاد يبين :

- أيها الفتى الشجاع . . . ياذا القلب الرقيق : هل لك أن تمنحنا شيئاً نأكله ؟ لقد عضبنا الجوع ، وأنهكنا السير ، ولم نعد نملك شيئاً قط .

وانحنى الفتى الطيب أمامهما ، وقال :

- أبوى الشيخين . . . إن كل ما أمتلكه ستة فلسات ، ورغيف من الخبز ، ومع ذلك فلنقتسمها فيأخذ كل منا فلسين . أما الرغيف فسأتنازل عن نصيبى فيه ، وليأخذ كل منكما نصفه !

وقال الشيخان في صوت واحد :

- لك الشكر الجزيل ، أيها الابن البار . . . إن الله سيجزيك عنا خيرا!

ومضى الشيخان . . . ولم يكونا سوى الإله الطيب ، وكبير قديسيه « سان بيير » !
واستأنف الجندى « أيون » سيره مبتعدا عنهما ، وأخذ يغنى من جديد وكأنه سيد
العالم بأجمعه .

ولما بلغ الجبل ، وبدأ في صعود السفح ، أبصر شيخين آخرين ، لم يدرك عندما
اقترب منهما أنها الشيخان السابقان ذاتهما ، فقد كانت هيبتهما مخالفة وصورتها مغايرة!
وابتدره أحد الشيخين قائلاً :

- أيها الابن الطيب . . . هل لك أن تمنحنا شيئاً نتبلغ به ، فما عاد في طوقنا الحصول
على شيء قط ؟!

فأجاب الفتى في عطف ظاهر :

- حبا وكرامة يا والدى ، ولكنى لا أملك خبزا ، إذ التقيت قبلكما بشيخين كبيرين
أعطيتهما زادى ، ولم يعد معى سوى فلسين . . . فخذ أنت أحدهما ، ولتأخذ أنت
الفلس الآخر .

وشكره الرجلان ، ومضى الفتى في طريقه يغنى من جديد . . .

ونظر الإله الطيب إلى كبير القديسين وقال :

- اسمع ياسان بيير . . . إن هذا الجندى لم يعد يملك شيئاً قط ، فلنعطه نحن شيئاً
حتى لا يقضى عليه الجوع .

ونادى الإله الطيب الفتى الذى كان قد ابتعد عنهما . فتوقف الفتى عند سماعه
النداء واستدار عائداً ، ليعرف ما يريدان . . . فقال له الإله الطيب :

- أيها الفتى العزيز . . . خذ هذا الكيس فإنك تستطيع أن تحفظ فيه كل ماتريد .
وما عليك إلا أن تقول حين تريد أن تحفظ فيه شيئاً : أيها المكان الطاهر ، باسم الرب ،
احفظ هذا بداخلك فى أمان !

وتناول « أيون » الكيس فى دهشة ، وارتسمت عليه علامات التعجب وعدم المبالاة ،
ولم يملك إلا أن يشكر الشيخين ، وانطلق فى طريقه ، وكأن لم يزد عليه شيء . . . وما
حاجته إلى الكيس ، وليس معه ما يمكن أن يضعه فيه ؟!

وبلغ في مسيره نزلا صغيرا، وكان الجوع قد نال منه، فولج الباب في اندفاع . . . إلا أنه توقف فجأة، وتسمر في مكانه، حين تذكر أنه وهب كل ما كان معه للشيخ الأربعة، وأنه خالي الوفاض تماما .

وتهالك « أيون » على أقرب مقعد . . . ورائحة الشواء تملأ خياشيمه في قوة أسالت لعابه، وأجزاء الخراف الطازجة تتدلى من السقف، وتتأرجح يمينا وشمالا في إغراء يخطف بصره، وأمامه مباشرة «دولاب» كبير اصطفت فيه عشرات الأرغفة الشهية .

وأخذ يفكر في حيرة: كيف يمكن أن يحصل على قطعة من هذا اللحم، وعلى رغيف أيضا؟ ! وتذكر فجأة شيئا كان قد غاب عن باله . . . لماذا لا يجرب الكيس الذي أعطاه له الشيخان؟

وأخرج الكيس من جيبه، وأمسك به، وقال :

- باسم الرب، أيها المكان الطاهر! أريد قطعتين كبيرتين من الشواء، ورغيفين من الخبز. . . فخذهما واحفظهما في داخلك في أمان .

ولشد ما كانت دهشته، عندما قفز رغيفان من الخبز، واستقرا داخل الكيس، وتبعتهما شريحتان كبيرتان من الشواء . وما إن رأى ذلك حتى نهض مسرعا في ذهول، وانطلق حتى وصل إلى نافورة جلس بجوارها، وراح يلتهم لأول مرة وجبة شهية لم يذق مثلها قط !

واستأنف « أيون » سيره، بعد أن استرد نشاطه، ومضى يدب على الأرض في قوة وشجاعة . حتى لكأنه فرقة كاملة من المشاة .

وارتفع صوته بغناء قوى له صدى بعيد :

- أنا « أيون » زعيم الشجعان . . . لست أرهب أحدا، ولم يخلق من يستطيع أن يرهبنى .

وتجمع أهل القرية حول الفتى الفخور، وانطلقوا يسخرون منه عندما توقف عن الغناء قائلين :

- لو كنت شجاعا حقا لما جئت عن دخول قصر الرعب الذى لا يجزؤ على دخوله سوى الشجعان !

وصاح « أيون » :

- لست جباناً . . . أنا أشجع الشجعان . . . خذونى إلى ذلك القصر، وأنا أراهنكم أن أدخله، وأقضى فيه كل مابقى لى فى الحياة!

وانفجر أهل القرية ضاحكين فى سخرية، ولكن الضحكات مالبثت أن ماتت على شفاههم حين صرخ فيهم «أيون» بصوت كالرعد تحداهم فيه أن يدلوه على مكان القصر. . . وساروا أمامه إلى قصر الرعب الذى مادخله أحد قط وخرج حيا! وعندما بلغوا القصر، قال «أيون»:

- أريد قدرا فيه ماء الحياة تكون معى داخل القصر!

وأسرع أحدهم فأحضر قدرا مملوء ماء، تناوله «أيون»، وخطا إلى باب القصر. ولما رآه الأهالى قد دخل، عادوا مسرعين.

وبلغ «أيون» القاعة الكبرى، وتوجه إلى مدفأة فى صدرها، وأشعل فيها النار، واختار مقعدا مريحا إلى جوار النار، فتمدد عليه، وأخذ يغنى غناء صاخبا معربدا. ولم تكد تمضى لحظات، حتى دوى فى أذنيه صوت رهيب صدر من وسط النار. . . صوت لو سمعه أى إنسان لجمد الدم فى عروقه. ووقف لهوله شعر رأسه. . . قال الصوت:

- أطفئ النار . . . أطفئ النار . . . أسرع أيها الرجل وإلا خنقتنى . . . أسرع فلانى أكاد أموت!

ولم يتحرك «أيون» من مكانه . . . بل لم يتوقف عن الغناء، وكأنه لم يسمع شيئا. وصرخ الصوت الغامض صرخة ثانية . . . فتوقف «أيون» عن الغناء، وقال فى استهتار:

- لتذهب إلى الجحيم، فأنا لا أهتم بك . . . اختنق، أو مت، وليسقط فى المدفأة رأسك!

وفجأة سقط من فوهة المدخنة رأس رجل، وتدحرج حتى استقر بالقرب من «أيون» الذى تقلصت أصابعه على الكأس المملوء ماء الحياة! وصاح أيون:

- ابتعد جانبا . . . أتريد أن تقلب الكأس من يدي؟!

ولم يتحرك الرأس من مكانه ، . . وارتفع الصوت الأجش العميق مرة أخرى قائلاً :

- ابتعد واطفئ النار، فإنى أسقط . . . إنى أسقط الآن!

وأجاب « أيون » وعينه لا تفارقان الكأس :

- حسنا فلتسقط كما تشاء . . أنت الذى تسقط ، وليس أنا!

ولم تكد آخر كلماته تتلاشى ، حتى سقط من داخل المدفأة، جسد رجل ، ثم ساقان ، وذراعان . . وتجمعت الأجزاء حول الرأس ، وتشابكت فى أماكنها ، فكانت إنسانا قميثا ، له حوافر حصان!

ونفض المسخ قائما ، وانقض من فوره على الفتى ليقضى عليه فتشبث أيون بالكأس المملوءة ماء الحياة ، فطاشت ضربات المسخ ، ولم تحدث تأثيرا فى الفتى الذى داخله الرعب ، إلا أنه سرعان ما استرد رباطة جأشه ، وأخرج الكيس من طيات ملابسه وصاح فى قوة قائلاً :

- باسم الرب ، أيها المكان الطاهر! احفظ الوحش ، واحفظه فى داخلك ، ولا تجعله يخرج إلا بإذنى .

وفى لحظة . . . كان الوحش داخل الكيس ، يضرب برجليه ويديه عبثا فى جوانبه ، وخارت قواه ، فتوسل فى ذلة ومسكنة قائلاً :

- رحماك يا أيون . . اغفر لى ، وأقسم لو أطلقتنى ألا أعود إلى هذا المكان أبدا .

فرد عليه الفتى ساخرا :

- لاخرج . . ولاغفران!

فعاد المسخ إلى توسله قائلاً :

- بحق شجاعتك وقوتك . . اعف عني وأطلقنى . ولك - إذا فعلت - صندوقان من

الذهب .

وفكر أيون ، ثم سأله :

- وأين الذهب؟

- فى الجرن الذى يقع فى مؤخرة القصر.

وعندما أذن الديك معلنا اقتراب الفجر ، كان المسخ قد انطلق فى رعب من داخل

الكيس ، وتحول إلى دخان كثيف تبخر في الهواء . أما « أيون » فقد جلس في قاعة القصر الكبير الذى أصبح له وحده ، وأخذت أصابعه تعبث بقطع الجواهر والذهب المتناثرة تحت قدميه .

* * *

عاش « أيون » في قصره بضعة أشهر آمنا هائثا ، لا يعكر صفو حياته شيء . وكان الناس قد تناقلوا معجزة القديس الطيب الذى سكن القصر، وطرد مافيه من شياطين وأرواح شريرة .

وكان الحاكم قد ضاق ذرعا بشياطين شريرة، تعبث في الثكنات، وتثير رعب الجنود . . فما إن سمع قصة القديس الطيب، حتى أرسل إليه يستدعيه، ويطلب منه الذهاب إلى الثكنات لطرد الشياطين العابثة . . .

وعندما نقل رسول الحاكم رسالة مولاه إلى « أيون »، ثار هذا غضبا . فقد عز عليه أن يغادر الهدوء والهناء اللذين نعم بهما . وثم شيء آخر . . لقد كان يخشى أن ينكشف أمره، فهو ليس قديسا ولا يملك القدرة على طرد الشياطين .

ولم يكن أيون ليستطيع أن يرفض للحاكم أمرا، وكان لابد أن يذهب إلى الثكنات التى فر منها أغلب الجنود بسبب شياطينها المزعجة . وقضى صباح يومه دون أن يرى واحدا منها . . . إلا أن الليل لم يكذب، ويداعب النوم جفونه، وهو راقد على الأرض، حتى انقضت عليه عصبة من الشياطين، أحاطت به من كل جانب، وهاجته دفعة واحدة، وأخذت تخمش جلده بأظفارها الحادة، وأمسكت به وصارت تتقاذفه كالكرة . . وتحاوره وتداوره، كما تحاور القطعة الفأر قبل التهامه . . وأحس بطنين يدوى في رأسه، وسمع أصوات الشياطين الساخرة، وكأنها هى صادرة من آفاق بعيدة . . تهتف في احتقار:

- أيها الفلاح الوضيع . . ما الذى أتى بك إلى هذا المكان؟ !

وأظلمت الدنيا في عينيه، رغم النيران الوهاجة التى تقذفها عيونهم، فتبرق في وميض يأخذ بالأبصار، ويحيل الظلمة ضياء صارخ الألوان . . . وأحس كأنها جذوة الحياة فيه توشك أن تمحى .

وعندئذ ومض في ذهنه شعاع من أمل، فقد تذكر كيسه العزيز، وتناولوه في سرعة وقوة، وهتف:

- باسم الرب ، أيها المكان الطاهر، خذ هذه الشياطين كلها في داخلك ، ولا تدعها تخرج .

وبدأت القوى السحرية الكامنة في الكيس ، حتى أتت عليها كلها . وما إن حشرت الشياطين حتى أطبق « أيون » قبضته على فوهة الكيس ، ثم رفعه ، وأخذ يضرب به الأرض في حقد وثورة . . . والشياطين من داخله يصدم بعضها بعضا ، فتتكسر عظامها ، وتعالى بأصوات مفزعة من هول ماهى فيه من عذاب أليم .

وتعالى صراخها في الجو ، وشقت أناتها أجواز الفضاء . . . وتجمهر أهالى المدينة حول الثكنات ، يشاهدون القديس « أيون » ينكل بالشياطين ، وهى تسترحه وتستعطفه ، وتطلق عليه أعظم الألقاب . . . والفتى مافتئ يسومها سوء العذاب ، ويفرض أن يرحمها ما لم تقسم ألا تعود إلى هذا المكان . . . بل إلى المدينة بأجمعها أبدا !

وأذعنت الشياطين صاغرة . . وما كاد الفتى يفتح الكيس ، حتى اندفعت من فوهته والرعب يأخذ بالبايها . وحين أحست بأنها حرة طليقة تحولت إلى ذرات من غبار تطايرت في الهواء ! ولكنها في رحيلها ، لم تنس قط حقد المير على هذا الإنسى الذى أذاقها ويلات العذاب ، فتوجهت من فورها إلى كبير الأبالسة « بعلشبول » وروت له قصتها ، وما لاقته من جبروت هذا الفتى الذى فاقت قوته قوة شياطين الأرض مجتمعة .

وبينما « أيون » مستلق على أرض الثكنات يبغى شيئا من الراحة بعدما بذله من جهد ، إذ أبصر بكبير الأبالسة قادما نحوه ، ولم يكذ يستقر أمامه حتى ابتدره « أيون » بصوت زلزلت له أرجاء المكان :

- ما الذى أتى بك إلى هنا أيها التعس ؟ ألا تعلم أن هذا المكان مخصص لثكنات الجنود ؟

فلم يمهله كبير الأبالسة ، وانقض عليه في سرعة خاطفة ، وقال :

- سنرى أيها اللعين من صاحب هذا المكان ؟

واشتبكا في معركة طاحنة كانت نتيجتها معروفة . . فما كان لإنسى مهما تكن قوته أن يصارع شيطانا . وأوشك « أيون » أن يستسلم بعد أن فشل مرتين في الوصول إلى الكيس . . . إلا أن فرصة خاطفة لاحت له فقبض على الكيس في قوة وصرخ من أعماقه :

- باسم الرب ، أيها المكان الطاهر! احفظ هذا الشيطان ، فلا تدعه يخرج إلا بإذنى !
وأحس كبير الأبالسة بقبضات من فولاذ لا يستطيع منها فكاك ، تضغط على عنقه
وذراعيه ورجليه ، وترفعه فى الهواء فى بساطة وسهولة . . فخارت قواه ، وأحس بضالة
قوته إلى جانب تلك القوة القاهرة . . وأخيرا وجد نفسه حبيس سجن لا خلاص
له منه !

ثم انهالت عليه اللطمات فى جبروت وقسوة أطاشا صوابه ، وأخذ يستغيث من شدة
الألم طالبا الرحمة مستعطفا ، وارتفع عويله ونواحه ، وقال من خلال الدموع :
- اعف عني أيها القديس الطيب ، وسأترك المكان ، فلا أعود إليه أبدا ، ولا أسمح
لشيطان من اتباعى بدخوله قط .

وكف « أيون » عن تعذيبه ، وصرخ فيه بصوت كهزيم الرعد :

- أقسم على قولك يالعين .

- أقسم . . أقسم . . .

ففتح « أيون » الكيس . . فانطلق الشيطان منه هاربا لا يكاد يصدق أنه نجا .
وانطلق الفتى عائدا بعد أن انتهت مهمته . . . والتقى فى الطريق إلى قصره بأحد
الشيخين اللذين منحاه الكيس . وابتدرة الشيخ فى صوت هادئ عميق قائلا :
- « أيون » أيها العزيز . . لقد جئت أحذرك ، فانتبه جيدا إلى ما أقول .
واضطرب « أيون » ، وأجاب فى صوت خفيض :

- ماذا هنالك يا أبى ؟

- عندما ترجع إلى قصرك . . هيئ نفسك ، وجهز نعشك ، فقد حانت ساعتك ،
وسياتيك الموت وشيك . . . وستجدنى فى انتظارك فى السماء !

وانتفض « أيون » ، وأخذ برهبة الموقف . . وإذا به يجيب دون وعى فى خشونة :

- ومن تكون أنت يانذير الشؤم ؟ ولماذا ترهبنى بهذا القول ؟ ومن أين لك بمعرفة
قدرى وساعة موتى ؟

فأجابه الشيخ فى صوت حاسم رقيق :

- من أنا ؟! حسنا يا « أيون » . . أنا إلهك وخالقك . فإن كنت قد منحتك هذا
الكيس ، فلأنك كنت طيبا مهذبا .

وركع «أيون» من فوره بين قدمى مولاه ، وتضرع إليه فى خشوع :

- عفوك ورحماك يامولاي . . . ماكنت أعرف من أحاطب !

ورفع رأسه والدموع تترقرق فى عينيه ، وقال لمولاه :

- أتوسل إليك ، يا إلهى ، أن تبعث إلى بالموت أولا ليعلمنى كيف أصنع نعشى . .

فإن صراعى الطويل مع الشياطين والأبالسة ، لم يدع لى وقتا أتعلم فيه كيف أستعد للقاء الموت !

- لك ذلك يا «أيون» .

وحضر الموت «أيون» وهو جالس فى قصره يترقب ، ولما رآه ابتدره قائلا :

- لقنى أيها الموت كيف أصنع نعشى ؟ !

فأجابه الشيخ المائل أمامه :

- ماذا ؟ ! ألا تعرف حتى الآن كيف تصنع نعشك ؟ ! آه . . . حقا . لقد ذكر لى الإله

شيئا عن ذلك .

وأخذ يشرح لأيون كيف يختار ألواح الخشب ، وكيف يضم بعضها إلى بعض ، فيصنع منها صندوقا . . . وتلقف «أيون» هذه التعليمات فى سرعة ، وأخذ ينفذها فور صدورها . . . فما إن انتهى الموت من شرحه حتى كان النعش جاهزا .

وقال أيون للموت :

- والآن . . أخشى أن تكون بين الألواح فجوات ينفذ منها الهواء إلى ، أو أن يكون

تثبيت المسامير غير متقن ، فأسقط من النعش فى أثناء حملى . . . فهلا جربته أولا ليطمئن قلبى ، وأذهب فى رحلتى آمنا ؟ !

ودخل الموت الصندوق ، وتمدد فيه ، وأخذ يبدى إعجابه بإتقان صنعه ومثاقته . وانتهز «أيون» فرصة تمدد الموت داخل النعش ، فأسرع إلى غطاءه وثبته فوقه ، وانهاه فى ضربات قوية يدق مساميره الضخمة ليحكم إغلاقه ، ثم ضحك ساخرا ، وقال :

- أيها الموت العزيز . . . لن تخرج من هذا الصندوق إلا إذا بعثت والدى المسكين إلى الحياة !

وحمل الصندوق على كتفه ، ومضى به إلى النهر .

ونفض يديه بعد أن ألقى به فى الماء ، وقفل راجعا ، ليستقبل الحياة ، ويعب منها ماشاء من المتعة . . وقد أيقن أن الموت لن يعود إليه مرة أخرى .

ومضت أيام وشهور وسنوات ، نسي « أيون » خلالها قصة الصندوق والموت الغريق .
وفي خلال هذه الحقبة ، كان الشر قد ملأ الأرض ، وأخذ يعيث فيها فسادا . . . فما عاد
هناك موت يضع حدا للفساد والمفسدين ، وبلغ الأمر بالناس أن أصبح يأكل بعضهم
بعضا .

وضاق « أيون » على مر الزمن ذرعا بتلك الحياة الخالدة التي يحياها ، وتذكر ماقاله له
الإله عندما التقى به ، من أنه سيكون في انتظاره عندما يصعد إلى السماء ، فقرر أن
يصعد إليها على الفور .

وانطلق إلى السماء ، فوجد باب الجنة موصدا في وجهه . وحاول أن يفتحه ،
فاجتمعت عليه الملائكة ، وأخذوا يدفعونه دفعا ، ثم قذفوا به من حلق .
وثار غضب أيون ، وأمسك بكيسه ، وصاح صيحته الهائلة :

- باسم الرب ، أيها المكان الطاهر! احفظ عندك كل الملائكة ، فلا تخرج إلا بأذنى .
وفي لحظة . . . كانت الملائكة داخل الكيس . فحملة أيون ، وانطلق إلى الإله فروى
قصته ، واختتم حديثه بقوله : والآن يامولاي إن كل ما ألتمسه هو أن أصعد إلى السماء ،
وأدخل الجنة كما قلت لى .

واستجاب الإله لتوسلات « أيون » ، وأدخله الجنة ، وأطلق سراح الملائكة ، وأخرج
الموت من أعماق النهر . . . ليستأنف العالم حياته من جديدا

أسطورة من الدنمرك الكنز

أساطير الدنمرك ذات صلة وثيقة بأساطير أيسلندا منذ أقدم الأزمنة ولم تحظ الأساطير والحكايات الشعبية الدنمركية باهتمام العالم حتى القرن التاسع عشر، برغم أن تاريخها يرجع إلى أكثر من ألف عام

ومن أشهر من أحيا أساطير الدنمرك في القرن التاسع عشر « هانس كريستيان أندرسن » الذي أتحف العالم بأساطير وحكايات كانت مدفونة منذ أمد بعيد ، و« ماير جولد سميث » . ومن خلال الأساطير التي أحياها هذان الكاتبان أخذ الأدب النرويجي الحديث كثيرا من روائعه التي أبدعها هنريك إبسن ، وبيورنسون ، ثم كنوت همسون ، ويوهان بويار

كانت المفاجأة شديدة الوقع على نفسه . . . فما خطر بباله قط أن كنزا من الذهب والفضة يمكن أن يقع في يده بمثل هذه السهولة . ومع ذلك حاول ألا يبدو على وجهه شيء يمكن أن يكشفه أمام زملائه الفلاحين ، فظل يضرب الأرض بالفأس ، ويغطي بالتراب في سكون ذلك الصندوق الحديدي الذي يضم الكنز العجيب . . . ذلك الصندوق الذي اصطدمت به فأسه وهو يحرق الأرض ، فظنه أول الأمر قطعة من الحجر فكاد ينتزعه ، ولما اكتشف أنه صندوق أسرع فأهال عليه التراب من جديد .

ولما حان موعد ذهاب الجميع ، بدا الفلاح الفقير وكأنه لم يكمل حرق الجزء الذي كلف به . وظل بعد انصراف زملائه يحرق بعض الوقت ، ولم ينحن على الأرض ليأخذ الصندوق إلا عندما اطمأن إلى أنه وحيد . وحمل الصندوق المملوء بالذهب والفضة ، ومضى مرتاح الضمير تماما ، فقد كان يعتقد أن الكنز ملك له وحده ، لأنه هو الذي اكتشفه ، ولأن صاحبه قد مات منذ زمن بعيد دون شك . . . إذ كانت حالة الصندوق تدل على أنه دفن في الأرض منذ أمد طويل !

وقرر الرجل ألا يكشف أمر الكنز حتى لا يستولى عليه صاحب الأرض . ولكنه حين

قرر ذلك ، لم يخطر بباله أن يكتسب الخبر عن زوجته . ولما أنهى إليها القصة حذرهما وأوصاهما بالكتمان الشديد .

وكما تفعل النساء جميعا على هذه الأرض ، حرصت المرأة على كتمان الأمر إلا عن قليلات جدا من صديقاتها . وكذلك حرصت كل واحدة من الصديقات على أن تخفى النبا إلا عن صديقاتها المقربات ، وهى توصيهن بالكتمان الشديد ! وكان لابد - نتيجة لهذا « الكتمان » الموصى به ! - من أن يذاع سر الكنز وينتشر حتى يصل - وفيه مبالغة - تزيده أضعافا - إلى أذن السيد صاحب الأرض .

وذات يوم سمعت زوجة الفلاح طرقا شديدا على باب دارها ، وفوجئت - لأول مرة منذ أقامت هى وزوجها فى المزرعة - بالسيد يدخل عليها فى غضب وثورة شديدين . وأخذ يهددها هى وزوجها ، ويتوعدهما بأقسى العقاب إذا لم تبج له بسر الكنز الذى عثر عليه زوجها . وكان الزوج قد ذهب إلى السوق ليحاول صرف بعض النقود ، فلم تستطع الزوجة الوحيدة أن تصمد طويلا لتهديدات السيد ، فارتعش بدنهما وخارت قواهما ، وانطلق لسانها يحكى للسيد كل شىء ، ويؤكد له أنها لاتعرف شيئا عن مصير النقود ، ولا أين يخفيها الرجل المسكين .

* * *

واستدار السيد عائدا إلى قصره ، وأخبرها أنه سيعود إليها متى رجع زوجها من السوق .

وظلت المرأة فى مكانها ترتعد . وعندما دخل عليها زوجها ، انهارت على قدميه تبكى ، وتحكى كيف انتزع منها السيد سر الكنز ! وانتفض الرجل . . .

ولكنه سرعان ما كظم غيظه ، وسيطر على اضطرابه ، واستدار خارجا من الدار فى سكون إلى حيث كان جواده فأسرجه ، ثم دعا زوجته إلى ركوب العربة ، وانطلق بها فى الطريق إلى المدينة .

واستبد بالمرأة الخائفة شعور مبهم بأن زوجها سينتقم منها جزاء ما صنعت من إفشاء سر الكنز ، فزاد اضطرابها وخوفها ، وظلت ترتعد وترتعش حتى فوجئت بزوجها يقف بالعربة أمام باب مطعم كبير ، ويطلب منها فى سكون أن تتبعه .

ودهشت المرأة حين دعاها زوجها للجلوس إلى مائدة لم تجلس إلى مثلها قط ، وازدادت دهشتها حين طلب لها وجبة شهية وشرابا لم تذوق مثله من قبل .

وجلست المرأة تأكل وتشرب!

أما هو فقد استأذنها لحظات ، ومضى فأخفى نقوده كلها في مكان أمين ، ثم عاد حاملا فوق كتفه جرابا كبيرا مملوءا بفتات الخبز . . !

أقبل المساء ، وصفرت الريح ، وبرد الجو ، وتساقط المطر . . . وأخذت العربة تشق الطريق بالزوجين خلال عودتهما من المدينة إلى المزرعة . ولم تكن المرأة قد اعتادت تناول مثل هذه الوجبة الشهية ، ولا شربت مثل ذلك الشراب القوي ، ولا رحلت مثل تلك الرحلة الطويلة . . . فنال منها التعب والجهد ، واستسلمت على الرغم منها ، داخل العربة ، لنوم عميق!

وفجأة استيقظت مذعورة إثر ضربة قوية على رأسها . فأخذت تتحسس رأسها ، وتتنظر حواليتها . . . ولشد ما دهشت حين تبينت أن الذى أصاب رأسها لم يكن سوى قطعة صغيرة من الخبز.

ولم تعر الأمر اهتماما واستسلمت مرة أخرى ، تحت تأثير التعب والإجهاد ، للنوم . . . إلا أن نومها لم يطل ، فقد أيقظتها ثانية ضربة جديدة ، لم تكن أيضا سوى قطعة من الخبز سقطت على رأسها . ولم يكن في مقدورها ، لما بها من تعب أن تفكر في الأمر ، فاستسلمت من جديد للنوم . ولكنه لم يكن نوما هادئا فما لبثت الضربات التى تصيب رأسها أن توالى دون أن تدري مصدرها ، وإن عرفت أنها نتيجة لسقوط كسرات الخبز على رأسها . ولم تعد تحاول أن تبحث عن مصدرها . . . فقد كان كل ما يمر برأسها منها أنها تنهال عليها من حيث لا تدري . . . !

وحين فرغ ما فى جراب الفلاح من كسرات الخبز ، واستعادت الزوجة هدوءها ، حملت فيما حولها ، ثم هتفت :

- ما الذى يجرى حولى؟ أفى حلم أنا أم فى حقيقة؟ أيمكن أن تمطر السماء خبزا؟! وأجابها زوجها :

- أجل . . . شىء غريب حقا ، ولكنه صحيح . فقد كانت العاصفة رهيبية ، وكان الخبز ينهمر علينا فى وابل عجيب!

وأحست المرأة راحة بعد أن اطمأنت إلى سلامة تفكيرها . واستسلمت للنوم من جديد . . . والعربة تنهب الطريق فى سرعة .

وفي أثناء مرور العربة إلى جوار قصر السيد ، استيقظت المرأة فجأة على صوت نهيق منكر.

وتلفتت مذعورة ، وصرخت :

- ماذا أسمع ؟ من أين تأتي هذه الأصوات المنكرة ؟

وهمس زوجها في أذنها قائلاً :

- صه يا امرأة ! حذار أن يرتفع صوتك فيسمعك .

ودهشت المرأة لتحذير زوجها ، وأخذت تستفسر منه في صوت مرتجف خفيض .
وأجابها الزوج في همس :

- لم أكن أحب أن أخبرك . ولكني أجد نفسي مضطراً أن أفصح إليك بالحقيقة كلها مادمت قد سمعت بنفسك صوت النهيق .

وازداد صوت الرجل خفوتاً ، وهو يسر إليها بقوله :

- إن ذلك الصوت المنكر هو صوت السيد . . فقد جاءه الشيطان يحاسبه على مال كان قد استدان منه منذ وقت طويل . . ولما رفض السيد سداد الدين أو دفع فوائده ، انهال الشيطان عليه بالسوط ، فأخذ يصرخ من ألم الجلد . . ومع ذلك رفض سداد الدين !

- الشيطان ! يا لله . . . أسرع بنا بعيداً عن قصر السيد ، فقد يحاول الهرب من القصر ويتبعه الشيطان فيراناً !

ورفع الرجل سوطه ، وأخذ يلهب به ظهر الجواد ليحثه على الإسراع ، ثم انثنى يحاول جاهداً تهدئة رعب زوجته . وعندما بدأ الهدوء يعود إليها ، أخذ يحدثها من جديد :

- اشكرى السماء يا امرأة ، لأنك لم تسمعى سوى ذلك النبأ . فلو كنت مكاني ، وعرفت النبأ الآخر ، لظلمت ترتعدين رعباً حتى الموت !

وجحظت عينا المرأة وهى تتوسل إليه أن يخبرها . وتمنع الرجل ، ثم تظاهرها بالاستجابة إلى رغبتها مضطراً ، وقال :

- لقد تحطت جيوش الأعداء حدود البلاد . وجاء رسول ليخبر أهل المدينة أن الأعداء سيكونون هنا الليلة . لقد سمعت النبأ ونحن لانزال هناك ، ولكنى لم أشأ أن

أزعجك حتى نعود إلى البيت ، إذ يجب أن نختبئ في القبو. أما أنا فسأ صعد إلى السطح ومعى بندقيتي لأدافع عن الدار إذا حاول الأعداء أن يلجوا بابها ، ولن أستسلم حيا قط ! ولم يكد الرجل ينتهى من حديثه حتى انهارت المرأة فزعا واضطرابا . . . ولم يكن بد بعد ذلك أن تهبط من العربة عندما بلغت الدار، وقدمهاها لتكادان تقويان على حملها ، فاستندت على ذراع زوجها ، فهبط بها إلى القبو.

أما هو فقد أعد بندقيته أمامها ، وأخذ معه الذخيرة ، ثم صعد إلى سقف الدار ليبدأ مهمة الدفاع !

* * *

لم يمض من الليل إلا قليل حتى سمعت المرأة طلقات الرصاص تتوالى بلا انقطاع ، والضجيج والجلبة يهزان أركان الدار. . . وكأن المعركة التى تدور لا تريد أن تنتهى . واستمر الأمر على ذلك حتى الفجر، حين فوجئت المرأة بزوجها يهبط إليها ، ويدخل القبو، يهز في يده سلاحه ويقول :

- اطمئنى يا زوجتى العزيزة، فقد انتصرت على الأعداء ، وقضيت على عدد كبير منهم ، وهرب الباقون حاملين على أكتافهم أجساد قتلاهم وجرحاهم .

واندفعت المرأة إلى زوجها تحتضنه وتقبله ، وتحبب فيه شجاعته وقوته ، فى حين أخذ هو يضع سلاحه ويخلع ثيابه . وهدأت أعصابها ، وشعرت براحة تامة ، وانحطت على الفراش . . . فاستسلمت لنوم عميق هادئ بعد هذه الأحداث كلها .

* * *

خرج الفلاح مع الصباح إلى فناء الدار، وجلس مستندا إلى الحائط وقدماه ممدودتان إلى الأمام فى راحة وهدوء .

ولم تمض لحظات حتى رأى السيد يقترب من الدار مسرعا ، فنهض فى عجلة يستقبله ويرحب به . ولم يعن السيد برد التحية ، وصرخ فيه :

- أين الكنز الذى وجدته فى مزرعتى؟

وتظاهر الرجل بالدهشة ، وأخذ ينظر إلى السيد فى عجب واستغراب ، وكأنه يشك فى سلامة عقله ، وقال :

- كنز! أى كنز ياسيدى؟!

ورفع السيد سوطه ، وقال :

- حذار من الإنكار أيها الرجل . فما يجديك الإنكار نفعا بعد أن اعترفت زوجتك أمامي بكل شيء . . . !

وأغرق الرجل في ضحك طويل ، ثم قال :

- زوجتي !؟ أهى زوجتي التى قالت ذلك !؟ ألا تعلم أيها السيد أن زوجتي لا تتمتع بقواها العقلية؟

وجمد السوط في يد السيد ، وفتح عينيه في شك ، ثم أمر الرجل أن ينادى زوجته .
ورفع الفلاح صوته مناديا امرأته ، فنهضت المرأة مذعورة وخرجت من الباب لتجد السيد أمامها .

وخافت المرأة عاقبة الإنكار، فانطلقت تردد من جديد أمام السيد ما قالت له بالأمس ، وروت كيف عثر زوجها على الكنز. وزادت فذكرت أنها رافقته إلى المدينة عندما حمل الكنز ليخفيه هناك .

وهز السيد رأسه في انتصار، وسألها :

- متى حدث هذا؟ قولى أمام زوجك .

وأجابت المرأة :

- فى اليوم الذى هبت فيه العاصفة الكبرى ، وأمطرت السماء قطع الخبز!

وانتفض السيد، وظنها تسخر به ، وقال :

- قطع الخبز يا امرأة . . . ! تهذى فى ردودك أيتها المرأة ، وأجيبى على سؤالى : فى أى يوم وقع ماتقولين؟

وعادت المرأة فأجابت مؤكدة :

- كان ذلك يوم المعركة الكبرى يامولاي ، عندما انقضت جيوش الأعداء على المدينة ، وصعد زوجى فوق السطح ، وأخذ يكافح ويحارب طوال الليل حتى تم له النصر!

وصرخ السيد وقد نفذ صبره :

- أجنونة أنت يا امرأة !؟ أين كانت تلك المعركة التى تتحدثين عنها!؟ كفى هراء وقصى الحقيقة ، وإلا قطعت لسانك . قولى فى سرعة : متى حمل زوجك الكنز إلى المدينة؟

وأجابت المرأة وهى ترتعش فى رعب :

- لا أجرؤ على القول .

وصرخ السيد :

- أسرعى قبل أن أقطع لسانك .

وبكت المرأة وهى تقول :

- ذهبنا إلى المدينة يوم جاءك الشيطان ليطلبك بسداد الدين الذى كنت قد استدنته منه ، ومررنا أمام قصرِكَ حين كانت صيحاتك تتوالى وسوط الشيطان ينهال عليك . لاشك أنك تذكر ذلك اليوم ياسيدى ، فقد كنا هناك . أليس كذلك يا زوجى ؟!

واستشاط السيد غضبا وغيظا ، واقتنع بأنها امرأة مجنونة ، وقال :

- أيتها المجنونة . . . لقد أضعت وقتى سدى ، فليحملك الشيطان وينهل عليك بالسوط على هذا الهراء التافه .

ولسع السيد المرأة بالسوط ، وانطلق يعدو بجواده!

ويقول أهل المدينة : إنه لم تمض أيام حتى كان الفلاح قد اختفى ، ثم ظهر من جديد فى الطرف الآخر من البلاد ، حيث اشترى مزرعة لنفسه ، عاش فيها مع زوجته سعيدا إلى ما شاء الله !

أسطورة إيطالية الطائر الصدّاح

معظم الأساطير الشعبية تراث مشترك بين الأمم القديمة ، تأخذها أمة عن أمة فتحور فيها وتبدل ، وتلسها طابعا يتفق مع ما ألفته من أساليب حياتها العادية . ونظرة واحدة إلى أساطير الشاهنامة الفارسية وألف ليلة وليلة ، تكشف عن صلتها الوثيقة بأساطير كثير من دول العرب التي كانت لها صلات بالحضارات الشرقية ، واستطاعت أن تأخذ منها وتحور ما أخذته ، وتلسه من الأنواب ما يتفق مع طبيعتها ومألوف حياتها .

والطائر الصدّاح واحد من هذه الأساطير التي تنتمي دون شك إلى أساطير الشرق انتفاء أصيلا

لم يكن يشغل بال الإمبراطور سوى شيء واحد : هو الطائر الصدّاح ! ولم يعرف أحد سر اهتمام الإمبراطور بذلك الطائر العجيب ، ولا سر العلاقة بين عدم العثور عليه وانهار برج المعبد الكبير الذي طالما حاول الإمبراطور تشييده عبثا ! والحق ، إن المعبد كان تحفة رائعة الجمال ، فخما غاية الفخامة ، تحلى جدرانها أحجار كريمة من الذهب والياقوت ، وتتدلى من أسقفه عناقيد من الجواهر والحلى ، جند الإمبراطور لصنعها أمهر رجال الصناعة والفن في البلاد ، فجاء آية في الإبداع لم تر البلاد لها مثيلا .

وكان الشعب كله قد عرف أن الإمبراطور كلما أطل إلى المعبد العظيم ، ملأته الحسرة لعجزه عن تشييد البرج الذي يجب أن يقوم على مدخل المعبد ، والذي كان كلما أقامه انهارا !

وأذاع الإمبراطور في البلاد كلها أنه سينعم بلقب النبيل على الفنان الذي يستطيع تشييد البرج دون أن ينهار . وفي الوقت نفسه أمر الإمبراطور بإقامة الصلوات في جميع المعابد توسلا إلى الله أن يهديه إلى الفنان الذي يستطيع إقامة البرج الكبير .

وانقضت ليال ثلاث في إقامة الصلوات ، وفي الليلة الرابعة ، رأى الإمبراطور فيما

يرى النائم ، أن البرج لن يقوم إلا إذا أمكن إحضار « الطائر الصداح الأكبر » من الضفة الأخرى ، وأقيم له عش في أعلى البرج .

وفي الصباح ، جمع الإمبراطور أبناءه الثلاثة ، وقص عليهم رؤياه . وبدأ الأبناء يتناقشون فيمن يكون أول من يشد الرحال منهم إلى الضفة الأخرى لمحاولة جلب الطائر الصداح .

وأوقف الإمبراطور المناقشة حين احتدمت ، وأمر ابنه الأكبر أن يقوم بهذه المهمة . . . فإذا ما فشل فعلى من يصغره أن يحاول إتمامها . على أن تكون ولاية العهد لمن يستطيع الحصول على الطائر العزيز . !

وشد الابن الأكبر رحاله ، واتخذ طريقه إلى حدود المملكة . وعندما بلغ الضفة النهر الكبير ، كان الليل قد أقبل ، ووجد نفسه داخل روضة صغيرة رائعة الجمال ، فجلس على الأرض ، وأوقد نارا ، وأخذ يطهو طعاما لعشائه .

وإنه لفى ذلك ، إذا بثعلب عجوز يظهر أمامه ، ويتوسل إليه أن يعطيه كسرة من الخبز ، وكوبا من النبيذ ، وأن يسمح له بأن يستدفئ إلى جوار النار !

وبدلا من أن يستجيب ابن الإمبراطور إليه ، مد يده إلى عصا ضخمة ، وانهاه بها على ظهر الثعلب العجوز . ولم يكذب ، حتى رفع الثعلب يده مشيرا إشارة غامضة . . . وإذا بالفتى يتحول في لحظة إلى تمثال من حجر !

* * *

طالت غيبة الابن الأكبر حتى يشس الإمبراطور من عودته . واستسلم آخر الأمر إلى رجاء ابنه الثانى أن يذهب فيجرب حظّه . وانطلق الفتى في الطريق نفسه الذى سلكه أخوه من قبل . . . وفي الروضة الصغيرة نفسها على جانب النهر ، وإلى جوار تمثال أخيه الحجرى ،لقى الفتى مصيره بعد أن رفض بدوره الإصغاء إلى توسلات الثعلب العجوز !

ولم يكن من اليسير إقناع الملك بعد ذلك بالسماح لابنه الأصغر بالذهاب إلى الرحلة الغامضة التى اختفى بسببها شقيقاه . . . إلا أن الفتى الصغير أبى أن يستسلم لتوسلات أبيه ، وقال له ذات يوم :

- لقد انقضى زمن طويل ، ولم يعد هناك أمل في عودة شقيقى ، وسواء كانا قد وفقا أم لا يزالان يبحثان عن الطائر العزيز ، فقد أصبح لزاما على أن أذهب لأداء المهمة التى

أرادتها السماء . وربما استطعت في محاولتي أن أعرف مصير شقيقتي العزيزين !
وظل الإمبراطور مصرًا على الرفض .

وعاد الفتى ، مرة أخرى ، يتوسل إلى أبيه في إلحاح قائلًا :

— أبى . . . دعنى أجرب حظى ، فعسى أن أدخل على نفسك السرور بتحقيق
رغبتك . . . وإلا فلن أعيش فى القصر بعد اليوم لحظة واحدة أواجه المذلة والمهانة من
الجميع !

وأجاب الإمبراطور :

— إن شقيقك لم يجلبا لى الطائر العجيب . وربما كانا قد لقيا مصرعهما ثمننا
لمحاولتهما . وإنك لترى يابنى أن السن قد تقدمت بى ، وإذا ما انطلقت فى الرحلة
نفسها أنت الآخر ، فمن الذى يساعدنى فى القيام بأعباء الحكم الذى ناء به كاهلى ؟
ومن الذى يتولى العرش إذا فارقت هذه الحياة ؟ فابق حيث أنت يا ولدى . . . فما عاد
هناك من سبيل آخر أمامنا .

ولكن الفتى استمر فى توسله قائلًا :

— أنت والدى ومولائى . وإنك لتعرف أنى لا أستطيع مخالفة أوامرك قيد أنملة . وإذا
كنت أجرؤ اليوم على تكرار الرجاء ، فذلك أن أملى كبير فى تحقيق الأمنية التى سيجلب
تحقيقها لنفسك سلامًا وأمنًا يا مولائى !

ولم يجد الأب بدا من الاستجابة لولده . وامتطى الابن جوادًا من خيرة جياد أبيه ،
وانطلق فى الطريق الذى انطلق فيه أخواه من قبل ، وقد حمل معه عصا ، وكثيرًا من
الزاد .

ومضت شهور . . .

ولم يكن الابن الأصغر هو الذى عاد بعد هذه الشهور ، بل كان شقيقاه الآخران هما
العائدين . . . عادا حاملين الطائر الصداح الأكبر ، ومعهما جارية زرية جعلًا منها
خادمة لحظيرة الخنازير .

والحق ، إن الطائر الصداح كان أعجب مافى هذا العالم . . . كان لريشه ألف لون ،
تشع منها أضواء رائعة كأنها مرآة تعكس ضوء الشمس .

ومنذ أقيم للطائر الصداح عشه فوق قمة البرج ، لم يعد ينهار قط . غير أن كل من رأى الطائر، كان يعجب غاية العجب لوجومه وسكونه، وإصراره على الصمت، وعدم الشدو والغناء! حتى الإمبراطور نفسه . . استبدت به الحسرة والحزن لصمت الطائر العجيب الذى كان كل أمله أن يملأ بلاده غناء وشدوا .

ومع ذلك فقد استمرت أفراح الشعب قائمة ، وأسدل الجميع فى خضم الفرحه ستار النسيان على الابن الأصغر الذى اختفى منذ أن انطلق باحثا عن الطائر العجيب . . . كلهم نسوه ماعدا الوالد الحزين الذى أمضه فقدان ولده، وأضنى فؤاده ألا يراه مشتركا فى الأفراح التى عمت البلاد .

* * *

ومرت الأيام . . .

وفوجئ الإمبراطور، ذات يوم، بخادمة حظيرة الخنازير، تركع أمامه وتقول :

— المجد لمولاي . . . لقد جئت أرفع إليك أجمل بشرى فقد عاد الطائر يغرد من جديد، وبدأ يشدو فيملاً أجواء المعبد الكبير!

ونفض الإمبراطور من مكانه فى فرح وسأها :

— وكيف عاد إلى تغريده يافطة؟!

وأجابت الجارية :

— لقد اقترب راع شاب من المعبد هذا الصباح . ولم يكذ يدلف من الباب حتى انطلق الطائر يشدو ويصدح بكل قواه، حتى لتكاد حنجرته تنشق لقوة الشدو والغناء . لقد كان الفرح يملأ قلب الطائر العزيز . . . وإنه لفرح ظل واضحا طوال الفترة التى قضاهما الفتى فى المعبد، فلما غادر المكان وابتعد ، كف الطائر عن الغناء، وعاد إلى الصمت والسكون!

وهتف الإمبراطور:

— إلى بهذا الراعى على الفور.

وانحنى الجارية ، وقالت فى همس :

— إن ذلك مستحيل يامولاي . فإن الفتى على ما يبدو غريب عن البلاد، وليس هناك من يستطيع أن يعرف مكانه . ولقد سمعت أن ولديك قد أطلقا خلفه من يقبض عليه أو يقتله!

وصرخ الإمبراطور :

- اخرسى . . . كيف تتحدثين بهذا عن ابنتي؟ وكيف تجرئين على اتهامهما بمثل هذا الجرم الفظيع؟!

وغضب الإمبراطور غضبا شديدا، وطرده الخادمة من القاعة، ولم يلبث أن ساورت رأسه أفكار غريبة، فأخذ ييث عيونه سرا، وأرسل من يبحث عن الراعى الصغير. ونجح رجال الملك فى العثور على الفتى وهو يدخل المعبد ذات يوم، وقبضوا عليه. غير أنهم ماكادوا يمسون به، حتى انقض عليهم رجال أشداء، يحاولون قتله حتى لا يذهب حيا إلى الإمبراطور!

إلا أن النصر كان حليف رجال الملك، الذين حملوا الراعى الصغير حملا إلى القصر، ودخلوا به إلى قاعة العرش.

وخفق قلب الإمبراطور الشيخ للفتى الراعى. ولم يدر سر ذلك الشعور الذى غمر كيانه.

وسأله الإمبراطور :

- ما قصتك يا فتى؟ من أين جئت؟ ومن والداك؟ وكيف قدمت إلى هذا البلد؟

وأجاب الفتى الصغير:

- إن لى لقصة طويلة يامولاي صاحب المجد. وإن لى لوالدين وأخوين. إلا أن عرض قصتي كاملة يستغرق وقتا طويلا، ما أظنك اليوم يامولاي مستعدا لقضائه فى الاستماع إلى. فإذا كنت تريد يامولاي أن تسمعها، فلتأذن لى بالمثل بين يديك متى طلع فجر الغد.

فرد الإمبراطور:

- ليكن ذلك يا فتى. وإنى لفى انتظارك مع صباح اليوم الجديد.

وجاء الصباح . . .

ومع قدومه كان الفتى يطلب المثل بين يدي الإمبراطور. وحين أذن له، انحنى أمامه فى احترام، وقدم فروض الطاعة، فقال الإمبراطور:

- حسنا يابنى. والآن : خبرنى عن سر غناء الطائر الصداح عند قدومك إلى المعبد، ثم عودته إلى الصمت بعد أن غادرته!

وأجاب الفتى :

- ستعرف كل ذلك يامولاي . وستعرف معه أشياء أخرى كثيرة . وكل شيء سيجيء في حينه ولتسمح لي يامولاي أن أقص قصتي منذ البداية !
ووافق الملك . . . وبدأ الفتى يقص القصة :

- غادرت والدي ذات يوم في مهمة كنت أعرف أن نجاحي فيها سيفرح والدي فرحة كانت بعيدة المنال عليه . وقضيت أياما كثيرة سائرا في طريق طويل شاق ، حتى وجدت نفسي في نهايته داخل روضة جميلة تخرقها طرقات متقاطعة . وقد هبط على الليل ، فقررت أن أقضيه في الروضة ، وأضرمت ناري ، وأخرجت زادي ، وبدأت أطهو طعامي .

وفجأة ، أبصرت ثعلبا عجوزا يقترب مني ، لم أعرف كيف ولا من أين جاء ! وملئت رهبة حين رأيته . إلا أنني سمعته يحدثني ، فأنصت إليه فإذا به يقول :

- أسمح لي أيها الفتى الطيب بأن استدفئ إلى جوار نارك ؟ إنني أرتعش من البرد . أسناني تصطك ، وأطرافي تتجمد ، وإن بي الحاجة إلى كسرة من خبزك ، وكوب من نبيذك ، لأشبع جوعي وأطفئ ظمئي . ولكنني أتوسل إليك ألا تمد يدك إلى عصاك فتضربني وتؤذي . . . فأكل مطمئا ، وأستدفئ آمنا !
وقلت للثعلب العجوز :

- حسنا تلك ناري اقترب منها ، وذاك طعامي خذ منه ما يشبعك ، وهذا كوبي أشرب منه ما يطفئ ظمأك . . . استدفئ وكل واشرب ما طاب لك الدفء والأكل والشراب .

وألقيت بعصاي . . . وجلسنا معا حول النار ، ودار بيننا الحديث حتى بلغت به ماكنت قد رحلت من أجله ، ورجوته أن يهديني إلى سواء السبيل إذا كان على علم بما أبحث عنه .

وهنا قال لي الثعلب العجوز :

- فلتطمئن يا صديقي . . . وغدا عند الفجر ، سأرحل معك . وإنني لأحل لك رقبتي إذا عجزت عن الوصول بك إلى حيث تريد .
وطالت جلستنا حول النار ، وتناولنا الطعام معا كأحسن ما يكون الصديقان .

وعندما انتهى حديثنا ألقى الثعلب إلى بتحية المساء ، ثم اختفى فجأة كأنه الشبح .
وتلفت حولى متطلعا لعل أتبين الطريق الذى سار فيه ، وفكرت طويلا لعل أدرك
كيف أتى إلى ، ثم كيف اختفى عني . وظللت على حالى هذه حتى ثقل رأسى ،
فاستغرقت فى سبات عميق .

ومع اللحظات الأولى من الفجر، عاد الثعلب . وكنت قد استيقظت وجلست
أتأمل فى تفكير عميق تماثل تبدو لرجلين وجوادين وكلبين سلوقيين . وقطع الثعلب
على تفكيرى قائلا :

- علينا أن نرحل فوراً !

ثم لم يلبث أن ضرب الأرض بقدمه ضربات ثلاثا . ولم يكذب ، حتى انتفض
فاذا هو عملاق ضخيم ، متين البنيان ، رائع القسمات . وسار العملاق إلى جوارى ،
وأخذ يحدثنى خلال الطريق عن المكان الذى قضيت فيه ليلتى ، فقال : إنه جزء من
أراضيه ، وإن له زوجة وأطفالا . بيد أنه وقع ذات يوم فريسة ساحر حكم عليه أن
يعيش فى صورة ثعلب ، إلى أن يشفق به إنسان ، فيسمح له بالدفء عند ناره ، ويعطيه
كسرة من خبزه ، وكوبا من نبيذه . . . وكنت أنا هذا الإنسان الذى أشفق عليه ، وكان
سببا فى إطلاقه من قيده . وكافأنى بأن أقسم على أن يظل فى صحبتى حتى يبلغنى ما
أريد .

ومضينا فى سبيلنا طيلة النهار ، وشطرا كبيرا من الليل ، حتى بلغنا روضة أخرى
صغيرة رائعة

وعزمتنا على أن نستريح بقية الليل فى هذه الروضة الصغيرة . وعندئذ أخبرنى رفيقى
أننا سنذهب فى الصباح إلى مقاطعة تعيش فيها تنانين هائلة . وفى هذا المكان سنجد
الشيء الذى نبحث عنه !

وفى الصباح اجتزنا الروضة إلى موطن التنانين . والواقع ، لم يكن ثمة أجمل من ذلك
المكان الذى نزلنا فيه . . لقد كان يضم قصورا رائعة بالغة الروعة ، تحوطها حدائق غناء
فيها زهور ونخيل من كل ماعرفته الأرض . وما كان أسعدنا حين وجدنا أن التنانين لم
تكن وقتئذ داخل قصورها ، ولم يكن هناك سوى حسناء رائعة . . . كأنها جاءت من
السماء !

وهتفت الفتاة حين رأتنا ، وأخذت تحذرنا من دخول القصور فى غيبة التنانين ،

وخلال صرخاتها كانت الدموع تنساب في خيوط رقيقة على خديها ، وقد غمرتها الفرحه
إذ رأت آخر الأمر رجلين جاءا من الضفة الأخرى حيث كانت تعيش قبل أن تخطفها
التنانين !

وسألتهما عما جئت أبحث عنه . وما كان أشد فرحتي حين أجابتني الفتاة بأن ذلك
الشيء موجود فعلا . . ولم أهتم بعد ذلك بما قالت من أنه في قصور أخرى غير بعيدة ،
لدى تنانين تمت بصلة قريى للتنانين التي تعيش بينها !

وقالت الفتاة :

— انطلقا الآن إلى هناك . وإنى لوائقة من أنكما ستجدان ماتنشدان . على أنى
استحلفكما ألا تنسيانى عند عودتكما . فإن الجنون سيصيبني إذا بقيت يوما آخر في هذا
المكان .

ولم تدعنا الفتاة نذهب إلا بعد أن أقسمت لها بأعلى ما لدى في الوجود . . . برأس
أبى . . . على أن آخذها معى عندما أعود ، وألا أتركها في أيدي التنانين .

وبلغنا آخر الأمر قصر التنانين ، فترجلت عن جوادى . وفي ساعة مبكرة من الصباح
التالى ، دلفت من أحد أبواب القصر ، بعد أن عاد صاحبي بجوادينا وفقا لنصيحة
الحسناء . وتقدمت أنا رأسا إلى حظيرة الجياد .

كانت الجياد مستلقية كلها داخل الحظيرة . فالتجھت إلى واحد منها ، وربت على
عنقه بيدي ، ودغدغت أذنيه ، ولكزته لكزة خفيفة ، فانتفض واقفا ، فألجمته وقفزت
فوق ظهره وأسرعته به نحو إحدى الشرفات حيث كان قفص بداخله الطائر الصداح
العجيب الذى جئت باحثا عنه ، فاختطفته وانطلقت هاربا بكل قواى .

وما إن بلغ الفتى الراعى هذا القدر من قصته ، حتى انتفض الإمبراطور في دهشة ،
وحملق في الفتى صائحا :

— إذن . . . أنت الذى أتيت بالطائر الصداح الأكبر؟ أنت ابني الأصغر . . . لقد
ظننت أنك لقيت حتفك !

وأسرع الابن فارتما على ركبتى والده في تأثر بالغ وانحنى الأب المشدوه ، فرفع ولده
واحتضنه في قوة ، وأخذ يقبله في شغف وحنان وعاد الفتى فاستأنف حديثه ، وطلب
من أبيه الإمبراطور أن يأمر بإحضار الفتاة خادمة الحظيرة .

وجاءت الفتاة ، ومثلت بين يدي الملك . فقال الابن :

- هذه هى الحسناء التى حدثتك عنها يامولاي . وهتف الإمبراطور :
- ولكن . . كيف حدث هذا؟! كيف صارت هذه الحسناء جارية تخدم فى حظيرة
الخنازير؟!
وأجاب الابن :

- سوف تشرح هى الأمر . فلست أعرف مما جرى لها شيئاً . أما أنا فبعد أن اختطففت
قفص الطائر، أسرع على ظهر جواد التنانين موليا الأدبار . . . إلا أن بقية الخيول فى
الحظيرة ما إن رأتنى مسرعا حتى علا صهيلها، فاجتذبت الضجة أصحاب القصر . . .
فرأونى . وفوجئت بمئات التنانين تطير ورائى، فأسرفت فى انطلاقى، وهى خلفى
تحاول اللحاق بى، حتى بلغت حدود الإقطاعية حيث كان رفيقى فى انتظارى .
ومد الرفيق يده إلى، وصاح فى صوت كأنه زئير الليث :

- قفوا!

وفى لحظة، جمدت التنانين فى أماكنها لاتستطيع حراكا، كأنها سمرت فى الأرض،
ومد رفيقى ذراعيه فاحتضننى فى قوة، وأخذ يقبلنى فى شغف . وبدأت التنانين تخاطبنى
عن بعد، ووعدتنى أن تمنحنى الجبال والشمس والقمر إذا رددت إليها الطائر
الصداح، ولكنى رفضت كل إغراء . فلما عجزت عن إغرائى التمس منى أن أترك لها
على الأقل الجواد المسحور . وحدثتنى نفسى بألا أخيب كل آمالها، فأطلقت لها الجواد،
ورحلت مع صديقى . . . والطائر الصداح بين يدى، وأنا أخشى أن أطل ورائى إلى
حيث التنانين التى لم تستطع حراكا قط . . . حتى اختفينا عن الأنظار!
استمر الفتى فى سرد قصته فقال :

- كانت الحسناء تنتظرنا أمام قصر التنانين الأولى . وعندما اقتربنا منها أمسكت
بسوطها، ثم طوحت فى الهواء ثلاث مرات، فلم يلبث القصر أن صار تفاحة، حملتها
الحسناء، وأسرفت فألقت بنفسها بين ذراعى، فطوقتها ورفعتها على جوادى .

واكتشفت التنانين اختفاء الحسناء، فانطلقت خلفنا فى ثورة عارمة . واهتزت بنا
الأرض والتنانين تلاحقنا فى اندفاع صاخب، وتطلق صيحات مفزعة يكاد يتجمد لها
الدم فى العروق .

وكانت التنانين أسرع منا، وكادت تلاحق بنا، برغم أننا كنا نسابق الريح .

وأطل رفيقى إلى وراء ، فوجد التنانين منا قاب قوسين أو أدنى . . . فتوقف عن
المسير ، ثم رفع يده فى قوة ، وتلا بعض التعاويذ ، فإذا التنانين تنقلب فوراً إلى صخور!
التقطنا أنفاسنا ، ثم تابعنا المسير فى هدوء ، حتى بلغنا الروضة الأولى التى التقيت
فيها لأول مرة برفيقي العزيز .

وهناك نلنا قسطاً من الراحة . . . فقد كانت الروضة قطعة من أرض رفيقى الذى
استضافنا وأكرمنا ، وأقسم أن يجيئنى إلى أى طلب أريد . . قبل أن أمضى ومعى فتاتى
وطائرى .

ووقع بصرى ، وأنا أفكر فيما يمكن أن أطلبه ، على الصخور المنتصبة على هيئة تماثيل
لرجلين ، وجوادين وكلين ، فأسرعت قائلاً : إن كل ما أرجوه هو أن أعرف حقيقة هذه
التماثيل .

ولم يكذب رفيقى يسمع ماقلته ، حتى أجفل . ثم أخذ يرحونى أن أطلب شيئاً آخر .
واستشارنى رفضه ، فألححت عليه ، فقال فى أسف :

— سوف تندم إذا أخبرتك بقصتها!

ولكنى أجبتة :

— إن هذا طلبى الوحيد ، فلا تحنث بوعدك . ومضت لحظات قبل أن يجيئنى :

— حسناً . . إن هذين الشخصين هما أخواك ! فإنهما بدلا من أن يفعلوا ما فعلت أنت ،
ويجيبا توسلى وأنا فى أسر السحر . أطلقا خلفى كلييهما ، وضربانى بعصويهما ،
فاضطرت إلى شل حركتهما وتحويلهما إلى تماثيل !

وهنا اقتربت من رفيقى ، وقبلت يده وقلت فى توسل :

— بحق عطفك على ، وباسم صداقتنا الخالدة . . ألا ما أعدتها إلى صورتها الأولى!

وأجابنى رفيقى فى أسف :

— عزيز على أن أرفض طلبك . وليكن ماتريد . . إلا أنى أحذرك منذ الآن ،
فستندم كثيراً جداً ، أكثر مما تظن .

وحرك رفيقى يده حركة غامضة ، فإذا الأحجار تتحرك ، وإذا شقيقاى يعودان إلى
الحياة!

وعانقت أخوى فرحا بهما، وكانت فرحتنا لا توصف . . إلا أن هذه الفرحة سرعان ما تحولت إلى شيء آخر، عندما انطلقنا معا في طريق العودة إلى الوطن .

إن أخوى لم يغفرا لي توفيقى في العثور على الطائر الصداح دونها، فضلا يا أتمران بى سرا . . حتى إذا وقفنا إلى جانب من الطريق نستريح قال أخى الأكبر:

- إننا حقا لمرهقون، والجو حار لافح . فهيا بنا إلى تلك البحيرة نرتوى ونسترد نشاطنا وقوتنا .

وتبعنا أخوى على ثقة فيهما . وانحنى أخى الأكبر على الماء فشرب، وتبعه أخى الثانى، ثم جاء دورى . .

وانحنيت بركبتى على حافة البحيرة، كما فعل أخواى من قبل، وساقاى إلى الخلف، واقتربت بعمى من الماء لأشرب . وفجأة شعرت بألم شديد فى ساقى، وحاولت النهوض فعجزت . . واستندت ببصرى إلى الخلف، فإذا بشقيقى يسرعان بعيدا، بعد أن قطعنا بسيفهما ساقى . . . وعلى الرغم من توسلاتى وصرخاتى، لم تأخذهما شفقة بى، وتركاني طريقا وواصلتا سيرهما وقد أيقنا أننا لن نستطيع اللحاق بهما على الإطلاق .

بقيت ثلاثة أيام أزحف حول البحيرة . وجوادى المسكين إلى جوارى يحاول جهده أن يحمينى من هجوم حيوانات الغاب . وكلما اقترب منى حيوان يبغى بى شرا، رفعنى الجواد بأسنانه، وأبعدنى عن تناول الحيوان الذى يهاجمنى ويحاول الفتك بى!

وفى صباح اليوم الرابع، لمحت شخصا كفيف البصر يتلمس طريقه فى صعوبة وإرهاق، فهتفت به أناذيه قائلا:

من أنت يامن تسير هناك؟

وأجاب الكفيف قائلا:

- تعس، مشوه، ذو عاهة . .

واقترب منى الكفيف مهتديا بصوتى، وأخذنا نتبادل الحديث، فقص على كيف أن أخوته قد انتزعوا عينيه طمعا فى نصيبه من إرث اقتسموه معا . وقصصت عليه كيف بتر أخواى ساقى من أجل الطائر الصداح!

فقال الكفيف:

- إذن فكل منا يكمل نقص الآخر: فلى ساقان، ولك عينان . أنا أحملك وأسير

بك ، وأنت تبصر لى . وإنى لأعرف عقربا هائلة تعيش قريبا من هذا المكان ، تشفى
دماؤها جميع الأمراض !

واتفقنا . . . فحملنى وأرشدته ، وسرنا حتى وصلنا إلى مقر العقرب الهائلة . ولم تكن
العقرب فى جحرها حين وصلنا ، فوضعتنى الأعمى خلف الباب ، وطلب منى أن
أضربها بالسيف حين تدلف إلى وكرها . أما هو فقد اختفى وراء حجر كبير ، وجلسنا
أنفاسنا ننتظر المجهول !

ولم يطل بنا الانتظار ، فقد عادت العقرب الهائلة إلى وكرها مغیظة محنقة ، كأنها
تستشعر غرباء فى الوكر . وروعنى منظرها ، ولكنى استعدت ثباتى فى سرعة ، ورفعت
سيفى حتى إذا ما اجتازت الباب ضربتها به ضربة هائلة ، فصلت رؤوسها الثلاثة عن
جسدها الكبير .

وأسرعت فاغترفت من دمائها التى كانت ماتزال حارة ، ووضعت ساقى المبتورتين
على مكانهما من الركبتين ، فالتصقتا بهما ، وعادتا كأنهما لم تبترا قط . ومددت يدى من
جديد فاغترفت كمية كبيرة من الدم ، وغمرت به وجه الكفيف ، فارتد بصيرا !

ثم شكرنا الله على ما أنعم علينا به من البرء ، وتعانقنا ، ثم مضى كل منا إلى حال
سبيله !

لم أشأ أن أسرع بالعودة إلى قصر أبى . فقد كنت قررت أن أدع أمر الكشف عن
المدنبن إلى الله . وعملت راعيا عند بعض القوم ، حتى ساقتنى قدماى إلى المعبد ذات
يوم ، ولم يخيب الله أملى . . . فقد رته أكبر مما یظن الجميع ، وحكمه عادل رحیم !

عندما انتهى الفتى من قصته ، انتبه الإمبراطور إلى الفتاة التى كانت لاتزال واقفة
مشدوهة حائرة ، تستمع فى اهتمام إلى ما یقوله الفتى . . . فتحول إليها یسألها عما حدث
لها ، فقالت :

- بعد أن بتر الأخوان ساقى أخیهما الصغیر ، قررا اقتسام الغنیمة . وكنت أنا من
نصيب أحدهما ، والطائر الصداح من نصیب الآخر . وأخذت أبكى بكاء مرا ، وحزنت
حزنا شديدا على الفتى الذى قطع ساقیه وتركاه فى قسوة مطروحا إلى جوار البحيرة .
وظل صاحبى یضربنى كلما ذكرته بأخیه ، ثم حاول إغرائى بعد ذلك بحبه ووعدنى
بالزواج بى . . . إلا أنى لم أستسلم له قط ، وظللت أرفض وأقاوم ما وسعنى الرفض

والمقاومة . . . حتى إذا بلغنا القصر، وأدرك صاحبي أنه لن يستطيع الوصول إلى ، ألقى
بى فى حظيرة الخنازير فى غلظة . ولم أمانع ، فقد كان خيرا لى أن أعيش مع خنازير ترفق
بأخوتها ، من أن أعيش مع رجل قطع ساقى أخيه حيا !

ونفض الإمبراطور من مكانه . وقال مخاطبا الفتاة :

- هل تستطيعين أن تثبتى لى صحة ماتزعمين ؟

قالت الفتاة وهى تخرج من جيبتها تفاحة :

- هذه التفاحة تستطيع أن تثبت للجميع حقيقتى . . إن ولدك يا صاحب الجلالة
لا يعرفان شيئا عن هذه التفاحة ، وإلا لما تركاها لى قط .

وخرجت الفتاة إلى الفضاء ، ورفعت بسوطا صغيرا طوحته فى الهواء ثلاث مرات . .
فاذا بالمكان قصر شامخ لامثيل له فى جميع أنحاء البلاد !

* * *

ووضح الحق للجميع . وقال الابن الأصغر لأبيه :

- أبتاه . . قبل أن تسجد لله شكرا على عودتى سالما ، أريد أن نذهب جميعا : أخواى
وأنا ، لنقف أمام الله محتكمين إليه .

ولم يعترض الإمبراطور ، وجىء بالأخوين اللذين جثوا أمام أخيهما يطلبان العفو .
وقال الفتى لأخويه :

- إذا غفر الله لكما ، فسأغفر أنا أيضا !

واضطر الأخوان إلى الامتثال .

وأمام المعبد الكبير ، وعلى أبعاد متساوية . . وضعت ثلاث سيقان نخل خاوية ،
وجلس كل من الأخوة الثلاثة داخل إحدى السيقان ، وقذف كل منهم إلى أعلى بحجر
كبير .

فأما الحجران اللذان ألقاهما الأخوان الكبيران فقد سقطا على رأسيهما وأما الحجر
الذى ألقاه الفتى الصغير ، فقد سقط بعيدا عنه ، ولم يصبه سوء .

وشهد الشعب كله حكم الله . . كما اشترك الجميع فى الولائم والافراح التى أقيمت
احتفالا بزواج ولى العهد من حسنائه . . ثم باعتلائه العرش خلفا لأبيه !

من أساطير الهنود الحمر دقات الطبول

الحياة عند الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين، لا تختلف عن حياة كل البدائيين الذين عرفوا الحرب والصراع مع أولى خطوات الكماح للحصول على القوت ومن هنا كانت الشجاعة أبرز الصفات المقدسة عندهم بقدر ما كان الجبن أردل هذه الصفات ولا تكاد أسطورة من أساطيرهم تخلو من ذكر هاتين الصفتين . . كما يبدو في « دقات الطبول » .

لم يكن « راييزو » واحدا من عامة الشعب . . بل كان أكبر أبناء ملك الشرق . ومع ذلك فقد كان أجبن فتيان عصره . . كان إذا سمع دقات الطبول تدعو إلى حمل السلاح ، سواء لحرب أو لصيد ، ارتعد قلبه ، واختفى عن الأنظار سريعا !

على أن ذلك الجبن لم يبد واضحا في تصرفاته حين كان صبيا ، بل عرف عنه أنه طيب حى ، تعلق وجهه دائما حمرة الخجل البرىء . فلما بلغ مبلغ الشباب ، بدا جبنه واضحا غريبا في قبيلة لم يعرف الجبن سبيله إلى أبنائها قط !

ومع أن الفتى كان يبدو كأحد الآلهة — بقوامه الفارع ، ومحياه الوضىء ، وضميره الطاهر ، وإحساسه المرهف ، ورأيه الصائب ، وخلقه الكريم — كان جبنه يطغى على هذه المواهب الممتازة كلها . فإن الهنود الحمر يؤمنون بأن الشجاعة هى أظهر دلائل الرجولة ، وأن القوة والحيلة هما أجدر الأشياء بالاحترام والتقدير .

وبذل الملك جهدا كبيرا في إصلاح ولده ، وحاول بكل وسيلة أن يثير فيه النخوة ، وأن يجعله شجاعا مقداما ، وكان ينصحه دائما بقوله :

— ملك تعوزه الشجاعة لا يدوم ملكه . ولن تكون جديرا إلا بشد الحصر ، وحمل الأطواق ، وغسل الثياب في البحيرة . . يا خسارتى فيك ! لقد أردتك شجاعا لا يخطئ سهمك قلب العدو ، وتخوض المعارك ، وتلتذ بمرأى الدماء ، لارعيدا يفزع من سماع دقات الطبول !

ورغم ما بذله الملك في إصلاح ولده بالترغيب والترهيب أنا ، والزجر واللوم أنا . . فإن الشجاعة لم تعرف طريقها قط إلى قلب الأمير ، وظل - كما قدر له أن يكون - جباناً رعديداً .

وأصبح مرآه يثير احتقار رجال القبيلة . وزاد اشمئزازهم منه ذات يوم ، فاجتمعوا وأجمعوا أمرهم على مطالبة الملك بنفيه خارج البلاد ، حتى لا يكون سبة عار في تاريخهم الحافل بآيات البطولة والشجاعة .

ولم ير الملك بدا من أن يأخذ برأى رجاله ، فأمر ولده بالابتعاد عن ديار القبيلة ، وأراضيتها . . . فلا يعود إليها إلا ومعه الدليل على أنه قد بات أشجع الشجعان !

وانطلق الفتى على حصانه ، وفي قلبه غصة لما لحقه من هوان ، وسار في طريقه مبتعداً عن دياره وعشيرته . . . ليس حوله من تابع ولا حارس . وقضى الفتى على ظهر حصانه زمناً طويلاً ، سائراً على غير هدى ، ذاهلاً عما حوله ، إلى أن أخرجه من ذهوله وقع له دوى ، واستدار فأبصر سحابة من الغبار تثيرها حوافر عدد من الجياد تندفع بأقصى سرعتها في طريقها إليه ، فتوقف عن السير ، وغاص قلبه بين جنبيه ، وأخذ يحدق في ذهول نحو الزوبعة الرهيبة التي خالها توشك أن تنقض عليه .

وتزايد وجيب قلبه كلما اقترب منه هذا الشر المستطير ، وسالت على وجهه الذي غاضت منه الدماء ، قطرات من العرق البارد أخذت تزداد كلما مسحها بكم رداءه .

وماهى إلا برهة حتى وجد نفسه محاطاً بعشرات الفرسان المسلحين ، تلمع سيوفهم وأسنة رماحهم بوميض خاطف . وعقدت المفاجأة لسانه ، ولم يعرف كيف يواجه الأمر . . . إلا أنه تماسك حتى استطاع أن يحرك لسانه ، وفتح فمه ليتكلم ، وقال في همس :

- ماتبغون منى ؟

وأجابه أحد الفرسان :

- ومن تكون أنت ؟

فأجاب « رابيزو » في جهد :

- أنا « رابيزو » ابن ملك الشرق !

فارتفع صوت آخر ساخراً :

- ها . . . ها . . . رابيزو الجبان !

وانفجر الفرسان ضاحكين . . ولكن صوتا رقيقا ناعما وحازما أخرجهم قائلا :

- صه . . . ما هذا الفتى بالجبان ، ولكنكم أنتم الجبناء !

فأجاب فارس آخر في خضوع مشوب بحدة يسيرة :

- عفوا أميرتى ، ولكن شهرة صاحب هذا الاسم قد طبقت الآفاق . . . وإن الوليد

في هذه البقاع ليشب ، وصدى هذا الاسم يتردد في سمعه مثالا للجبين والخورا

فصرخت الأميرة في حدة :

- خست . . فما كان لهذا الوجه النحيل ، وهذا القوام الفارع ، وهذا الصدر

العريض ، أن تحمل قلبا جبانا . . . إنه حسد الأعداء الذى يسعى إلى ترويج مثل هذه

الترهات للنيل من هذا الفتى الشجاع .

وارتفع صوت متزن فقال في وقار :

- أختاه . . . لاتغترى بالمظهر دون المخبر ، فقد سمعت عن جبن هذا الأمير من

القصص مالا يعد ولا يحصى .

وعادت الأميرة فقالت في رقة :

- ماتقول يا أختى ؟ إننى عند رأى من أنها أكاذيب يروجها حاسد أو حقود . ولو أن

ما يقال عن هذا الأمير هو الحق ، لكان أجدر به أن يفر هاربا لدى سباعه وقع حوافر

الجياد . . . ألا ترونه كيف ظل رابط الجأش ، فانتظرنا وأخذ يحدثنا فى هدوء ؟ أبعد هذا

يعوزكم الدليل على شجاعته ؟

وأفحم الفرسان ، ولم يحيروا جوابا . . . واثنوا إلى الفتى يرحبون به بعد هذا الدفاع

الحار الذى جابهتهم به أميرتهم « مورا » ابنة ملك الشمال .

واسترد الفتى أنفاسه السلاهة ، وجرت الدماء فى عروقه ، وانتظمت دقات قلبه

المفزوع . . بعد أن تخلص من رهبة الموقف ، وأقبل على الفرسان ييادلهم الحفاوة فى رفته

المعهودة وسحره الجذاب ، فتعلقت قلوبهم به ، وأصبح كأنه واحد منهم : يخلصون له

الود جميعا . . وخاصة الأميرة الفاتنة « مورا » !

واستأنف الركب سيره ، حتى بلغ مع الليل عاصمة مملكة الشمال . ودخل الجميع

قصر الملك العظيم ومعهم رايبزو. وتقدمت الأميرة وأخوها ورايبزو إلى قاعة العرش الفسيحة حيث يجلس الملك ، وجثت الأميرة أمامه في خضوع وقالت في رقة وحياء :

- أبى ومولاي . . . لقد جئنا معنا بضيف عزيز هو ابن ملك الشرق ، وقد أعجبت بما يمتاز به من جمال الخلقة والخلق . فإذا أردت لى السعادة ، فزوجنى منه . وإن لم تفعل ، فسوف أكون أنعس الفتيات !

وانحنى الملك العجوز على ابنته فرفعها وضمها إليه ، ودار ببصره الضعيف يتفحص الفتى الواقف أمامه ، ثم حول نظراته إلى ابنه ، الذى سارع إلى تأييد أخته قائلاً :

- إنه شاب مكتمل المحاسن يامولاي ، وإنه لجدير حقاً بمصاهرتنا . لقد أمضى معنا فى عودتنا لحظات سعيدة ، جعلتنا نؤمن جميعاً بأن ملك الشرق قد أخطأ خطأ جسيماً ، حين انقاد إلى رأى رجال قبيلته ، ونفى ولده العزيز رايبزو!

والتقت نظرات الجميع ، ولمحت الأميرة فى عينى أبيها علامات الرضا والموافقة . فتحولت إلى « رايبزو » وجذبتة من يده ، فتقدم هذا وجثا أمام أبيها ، معبراً له عن شكره على كرمه ، وموافقته .

وأقيمت الاحتفالات فى جميع أنحاء البلاد ابتهاجاً بزواج الأميرة الفاتنة « مورا » من الأمير « رايبزو » . وتتابع الأيام . . والعروسان ينتفلان من وليمة إلى وليمة ، ومن حفل إلى حفل . . ورايبزو يعيش فى سعادة غامرة ، وتزداد سعادته كلما استشعر مدى تعلق الأميرة به ، وكلما أحس بالحب الذى يكنه له أبوها الملك ، والأمراء ، وأهل البلاط ، وأبناء الشعب .

والحق إن طباع الأمير وأخلاقه ، فى المواقف العادية ، كانت على درجة كبيرة من السمو والنبل ، مما حبه إلى قلوب القوم ، وألهج ألسنتهم بمدحه والثناء على فضائله . . وملاأت الغبطة قلب رايبزو ، وفاضت به ، فشعر برغبة ملحة فى أن يكتب إلى والده ، فيخبره بما هو فيه من سعادة لاتوصف .

وذاث ليلة صافية - والمملكة وأهلها جميعاً ينعمون بالهدوء والسعادة - دوى نذير الشؤم على حين غرة ، وأفزج الناس حارس من حراس الحدود ، ينطلق بجواده حتى ليكاد يطير به ، مخترقاً طرقات المدينة فى جنون جامح إلى قصر الملك ، وصوته يدوى بكلمة واحدة ظل يرددّها طوال الطريق :

- العدو . . العدو . . !

ودبت الحركة في قصر الملك، ودوت طبول الحرب، وأصبحت المدينة كخليفة النحل، تموج بالجند والأهالي، وأخذ الجميع أهبتهم للدفاع عن بلادهم ضد العدو المغير.

شخص واحد تجمد في مكانه رعبا وفزعاً . . . إنه « رابيزو » . . . الأمير الجبان . لقد تصلبت أطرافه عند سماع دقات الطبول، وارتعدت فرائصه، وخارت قواه، وأحكم الغطاء حول بدنه المرتعش، وغطى رأسه يديه حتى يحول دون صوت الطبول أن يقرع أذنيه، وتظاهر بالنوم!

وانفضت « مورا » فزعة من نومها على دوى الطبول يتردد في أذنيها . . . وأخذت تهز زوجها في خوف وفزع قائلة:

- رابيزو . . . رابيزو . . . انهض . . . رابيزو. إن طبول الحرب تقرع معلنة أن العدو على الأبواب . . . رباها! لقد دخل الأعداء المدينة وبدءوا يشعلون فيها النار . . . رابيزو . . . رابيزو.

ووثبت الأميرة من فراشها، واندفعت إلى باب القصر ففتحته، ووقفت أمامه مشدوهة ذاهلة!

كانت المدينة تموج بالنشاط والحركة: يختلط فيها صليل السلاح بوقع حوافر الجياد، ويمتزج دوى الطبول بصيحات الأهالي ووقع أقدامهم . . . كانوا جميعاً في سباق رهيب: الآباء، والأبناء، والأخوة، وأبناء العم . . . الجنود، الضباط . . . والملك العجوز يقبض بيديه المعروقتين على صولجان كبير، يدق به في قوة وعنف الطبل الملكي، دقات سريعة متلاحقة تدعو الشعب للجهاد في سبيل الوطن الغالي.

وعادت « مورا » إلى حجرتها لتتعجل زوجها حتى يكون على رأس الجيش . . . ولشد ما راعها وحز في نفسها، أن رأتها لا يزال ملتحفاً بغطائه، ويبدو كمن راح في نوم عميق.

وصرخت « مورا » في زوجها، وهي تزيع عنه الغطاء:

- رابيزو . . . قم يارجل إلى سلاحك فالخطر يوشك أن يدهمنا . . . قم لترأس الجنود في الخطوط الأولى، ولتكيل للعدو ضربات ساحقة تحطم هجومهم، وتردهم مدحورين!

وتقلب « رابيزو » في فراشه، والرجفة تهزه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، والطين المستمر يكاد يصيبه بالجنون. ولم يتمالك إلا أن يسد أذنيه ويدفن وجهه في الفراش، وأخذ يصرخ في زوجته:

- أما لهذا الطنين من نهاية؟ بريك يامورا أغلقى هذا الباب، وأحسمى رتاجه . .
أنكرى وجودى، ولا تخطرى أحدا قط عن مكانى . . . يا إلهى! أين أذهب من هذا
الدوى؟

وصاحت مورا فى دهشة يشوبها الغضب :

- ماذا؟! أحقا يفزعك هذا الطنين . . . أحقا تريد أن تختفى عن الأنظار؟!

فأجاب رايبزو فى ضعة :

- أنا . . . أنا خائف يامورا . . . أنا . . . بريك أغلقى هذا الباب!!

وهزت مورا رأسها فى ألم، ولم تلبث أن ومض فى ذهنها خاطر لمعت له عيناها،
فقالت لزوجها فى هدوء :

- إنك لست خائفا . . . ، إنك مريض . . . مريض جدا بحيث لا تستطيع حراكا!

وتلقف « رايبزو » كلماتها، وأجاب فى سرعة وأسنانه تصطك :

- نعم . . . حقا إننى مريض! ألا ترين؟ إن حالتى خطيرة، وأحس أن جسدى
مشلول لا أستطيع تحريكه، كما لا أقوى على النهوض!

وعقدت مورا يديها فوق صدرها، وأسندت ظهرها إلى الحائط بعد أن كادت تنهوى
إلى الأرض خزيا من هول العار الذى أدركت أنه يوشك أن يحيط بها، ولم تلبث أن قالت
وكأنها تحدث نفسها :

- لا . . . لا . . . لن يعرف أحد أن زوج مورا جبان!

واختطفث ثوبا من ثياب زوجها فارتدته، ووضعت على وجهها قناعا كثيفا
لايكشف عن شخصها، وتناولت أسلحته، وانطلقت إلى حظيرة الجياد، فامتطت
جواده، واندفعت إلى الطريق كالبرق الخاطف . . . وقد شهرت رحمها إلى الأمام وانطلقت
صيحاتها الحماسية فى صوت قوى يردد مع دوى الطبول :

- إلى ساحة المجد أيها الأبطال . . . إلى الأمام . . . إلى الأمام .

واخترقت صفوف الأعداء فى جراءة منقطعة النظر، وأهوت بريحها على رؤوس
الأعداء، واخترقت صدورهم بطعنات قوية تعجز عنها سواعد الأبطال . . . وأثارت
جرأتها الحمية فى صدور جنودها، فاندفعوا وراءها فى صلابة وعزم وهتافاتهم تشق عنان
الفضاء :

- عاش رايبزو . . . عاش رايبزوا

وهجموا على عدوهم هجمة رجل واحد، فشتتوا شمله، وأحاطوا به، وأعملوا فيه رماحهم وسيوفهم . . . وحى وطيس المعركة، واشتد القتال، وأيقن الجميع أن الغلبة ستكون لجيش ملك الشمال، بقيادة العارس الشجاع المغوار رايبزو الذى كانت ضرباته تسحق الأعداء سحقاً، وتبعثر أشلاءهم فوق التراب .

ولم يدر بخلد أحد أن « رايبزو » قعيد الدار، وأنه لايزال يحاول سد أذنيه لكيلا يسمع دقات الطبول . ولم يتمكن أحد قط من كشف سر الأميرة ذات الضربات الساحقة، التى ضاعفت قوتها موجة الغضب التى انتابتها لخبية أملها فى زوجها . . . الجبان!

وظلت المعركة محتدمة حتى الفجر . . . وقبل أن تشرق الشمس، كان جيش الأعداء قد تمزق شر ممزق، وولى من تبقى من الجند الأدبار. وعادت « مورا » على رأس جيشها تسبقها طبول النصر، وتقابلها هتافات مدوية صاخبة :

- عاش « رايبزو » بطل الأبطال . . . عاش رايبزو قاهر الأعداء . . . رايبزو أشجع الشجعان!

وكانت مورا ترد تحية الجماهير بكلتا يديها، والقناع والدروع تغطى جسمها كله، فلم يستطع أحد أن يميزها . ودخلت القصر، واتجهت إلى جناحها، وخلعت رداءها، واستلقت على الفراش من فرط الإعياء . . . فى حين كان رايبزو قد نهض من فراشه، وأدرك من الهتافات مافعلته زوجته فى سبيله، فجثا تحت قدميها، وقد أجم الخجل والعار لسانه فلم ينطق بكلمة .

وأغفت الأميرة إغفاءة قصيرة أراحت جسمها المرهق، وهدأت حواسها الثائرة . ولما استيقظت وأبصرت زوجها إلى جوارها، خاطبته فى هدوء قائلة :

- انهض أيها البطل ! واخرج إلى الشعب لتلقى ثناء الجميع على بطولتك . إن أحداً غيرى وغيرك لا يعلم الحقيقة، وليكن صوت ضميرك هو عقابك على ما فعلت .

وأخذت تساعده فى لبس الدروع المضرجة بالدماء، وناولته ماكانت تحمل من أسلحة . وخرج رايبزو لينقبل تحية الجماهير التى احتشدت خارج القصر. وما إن كشف القناع عن وجهه، وأطل عليهم . . . حتى تعالت هتافاتهم فى حماس وإعجاب . وقاسى « البطل » من تأنيب ضميره، فى ساعات، عذاباً لم يقاسه طوال حياته . إذ كانت الهتافات تصل إلى مسامعه، فينعكس معناها لديه : فكلما قالوا « البطل » أحس بجبنه

وخوره ، وكلما قالوا « الشجاع » تضاءلت نفسه خزيا وعارا . . وما كان أقسى هذا العقاب على نفسه وهو يتقبل ثناء لا يستحقه . وكانت تتتابه بين الحين والحين نوبات من الندم ، فيهم بمصارحة الناس بحقيقة الأمر ، ويرفع يديه لإسكاتهم ، ويحنى رأسه ليتدبر ماسيقول . فتظن الجباهير التى غمرتها نشوة النصر أن « البطل » يرد تحتها برفع يديه ، فيزداد إعجابها به وثناؤها عليه !

واستمرت العقوبة الرهيبة حتى المساء . . وكان راييزو قد انهار انهيارا تاما تحت وطأة ما عاناه من تأنيب الضمير والإرهاق ، فعاد إلى داخل القصر يحجر رجله جرا . وما إن بلغ الفراش ، حتى ارتقى عليه في إعياء وابتدرته مورا قائلة :
- والآن . . . يازوجى العزيز . . . لعل هذه العقوبة ، تبعد عنك شبح الجبن إلى الأبد .

* * *

ولم يمض من الليل إلا القليل ، حتى عاد حارس الحدود ينذر بعودة الأعداء مرة أخرى في جحافل من الجند والعتاد تغطى وجه الأرض ، عازمين على أن ينتقموا لهزيمة الليلة الماضية أبشع انتقام . وعاد الملك العجوز يقرع بيديه المعروقتين الطبل الكبير ، وعادت المدينة إلى ضجيجها الرهيب . . .
وهزت مورا زوجها وقالت :

- انهض يا « راييزو » فقد عاد العدو إلى المدينة ، وإنى أريدك فى الطليعة . إلا أن راييزو لم يكن هناك . . . كان جسدا متداعيا يرتجف من الخوف ، ويحملق فى ذهول إلى لاشيء !

وهتفت الأميرة صارخة :

- يالفجيعتى فيك أيها النذل ! انهض واختبئ فإنك لا تحيد سوى مهام الخدم . أما الحرب فقد خلقت للأبطال الشجعان ، ولست منهم ياراييزو .

ونفضت « مورا » ، وارتدت من جديد ثياب زوجها الرعديد ، وانتضت أسلحته ، ومضت إلى ساحة القتال ، وقد اشتعلت فى صدرها جذوة وهاجة من الجرأة والكبرياء ، أذكنتها صورة زوجها الجبان ، وما قد ينالها من احتقار الناس له ولها لو علموا حقيقة أمره .

ولم تكذ تتقدم خطوات عبر باب القصر، حتى فوجئت بهجوم مباغت، إذ انقضض عليها أربعة من جنود الأعداء، كانوا قد تسلقوا الأسوار، وربضوا فوقها انتظاراً لخروج «البطل» الذى أذاقهم مرارة الهزيمة بالأمس، وقرروا أن يأخذوه على غرة قبل وصوله إلى الميدان فيقضوا عليه، ومن ثم يتمكنون من القضاء على جيشه.

وبالرغم من المفاجأة، فإن مورا سرعان ما استجمعت قواها، وسددت من رمحها طعنة خاطفة إلى صدر أول المهاجمين فسقط مجنحاً في بحر من دمائه. وانتهزت لحظة الذهول التى انتابت الجنود الثلاثة لمصرع قائدهم، وانثنت إلى قوسها وسهامها، فأطلقت وابلاً منها عليهم، فوقعوا صرعى، ثم نددت عنهم حشرجات الموت.

وانطلقت مورا إلى الميدان . . . وكما حدث بالأمس، كانت فى ثياب «راييزو» تصول وتجول وتجنبدل الأبطال وتمزق الصفوف، واندفع الجنود وراءها يقاتلون فى عنف، ويحاربون فى ضراوة، ويهتفون هتافات النصر، ويرددون خلف بطلهم:

- إلى النصر. . . إلى الأمام!

وتصادف أن كان الأمير شقيق مورا يحارب فى مكان قريب منها، وسكت أسماعه نبرات صوت راييزو المرتعش المتكلف، وأحس أن هذه النبرات ليست نبرات صوت رجل على الإطلاق، وانتابته دوامة من الشك والحيرة، وكاد يتوقف عن القتال، وهو يتأمل البطل المحارب، وأخذ يسائل نفسه.

- إن هذا الصوت أقرب إلى صوت أختى مورا . . . أمن المعقول أن تحجب وجهها الفاتن وراء هذا القناع الصارم؟ أمن المعقول أن تقبض يدها الناعمة على هذا الرمح الضخم، وتنزل بالأعداء هذه الطعنات الفتاكة؟ . . . يا لحيرتى! لابد أن أجلو عن نفسى هذا الشك الذى يكاد يعصف بى.

وأسرع الأمير صوب الفارس المكنع، وأتى بحركة من رمحه بدت غير مقصودة محاولاً بها نزع القناع عن وجهه . . . إلا أن الفارس ألهمته سرعة خاطره فتصدى لرمح الأمير برمحه متراجعا إلى الوراء بسرعة، واصطدم الرمحان صدمة قوية مفاجئة أطارت رمح الفارس المكنع من يده، وسقط على فخذه فأصابه بجرح طفيف.

- يا إلهى! معذرة «ياراييزو» . . . فقد جمح جوادى . . . هل أصابك ضرر؟!

فأوماً الفارس برأسه أن لا شىء، واندفع كلاهما إلى غمرة المعركة . . . والأمير يحدث نفسه:

- حسنا . . يكفى هذا الجرح لأستدل به .

وحى وطيس القتال . . وراييزو يصول ويجول ، ويستحث جنده فيندفعون وراءه فى حماسة وقوة . . فلم تكذب تلوح تبشير الفجر ، حتى كانت فلول العدو تفر من الميدان ، تاركة وراءها أكدا سا من العتاد ، وألوف القتلى والجرحى .

وأسرت مورا إلى القصر وفى خاطرها ما دار بينها وبين أخيها ، وأدركت على الفور نية أخيها ، واعتزاه كشف الأمر بوساطة هذا الجرح الذى أصابها . . . فما إن دخلت غرفتها ، وأغلقت الباب ، حتى أمسكت بطرف رمحها ، وهتفت فى راييزو :

- أسرع الآن ، واكشف عن فخذك الأيسر . فلا بد أن أصيبك فيه بجرح نافذ .

وألجم الرعب لسان الزوج ، وازداد عليه لمراى الدماء على فخذ زوجته ، وكاد يلتف فى أغطيته ، لولا أن ألمه مرأى زوجته الحبيبة المصابة ، فتمالك نفسه ، وثار فى النخوة ، وأسرع محاولا الخروج لطلب النجدة وإعلان الحقيقة للناس . ولكن مورا فهمت مراده ، فمنعته فى حزم ، وطلبت إليه أن يتمدد على الفراش ، وكشفت فخذة ، وغرزت فيه سن الرمح بسرعة خاطفة ثم جذبته من لحمه ، ثم ألقت الرمح على الأرض ، ومضت تجفف الدماء التى اندفعت من الجرح فلوثت الفراش .

وعندما أقبلت الجماهير لتحية البطل ، وعلمت أنه أصيب فى المعركة ، اندفعت خلال أبواب القصر إلى حجرتة ، وأبت إلا أن تحيى البطل وهو على فراشه . . وتناقلت الألسنة الخبر ، وتحول الجرح الطفيف على ألسنة القوم إلى جرح بالغ الخطورة ، ولم يعد من الممكن أن يتخلف أحد عن زيارة الأمير .

وكان أخو مورا أول القادمين . . . ولشد ما أنبه ضميره لثورة الشك التى انتابته فى الميدان ، فتسبب فى جرح البطل العزيز . . ولم يستطع أن يعلن أنه السبب فى جرح الفارس المغوار خوفا من نقمة الجميع !

أما مورا ، فلم يبد عليها طوال اليوم أنها تعانى ألما فى ساقها ، وصبرت وتحملت ما لا يمكن أن يحتمله بشر ، ولم تبدر منها بادرة طوال وقوفها عند رأس زوجها تنبئ عن أنها تقاسى ألما لا يطاق .

ولم يكذب يهبط الليل ، وينصرف آخر الزوار ، حتى سقطت على الأرض من فرط الإعياء . وأسرع إليها « راييزو » والأسى يمزق أحشاءه ، وقال فى أسف :

- يا لجنبنى ! ويا لحقارتى ! أنا تافه حقير . . . إننى لا أستحق حتى شرف تقبيل

قدميك يامورا . . أواه أيتها الآلهة ! أما من قوة تشفيني من داء الجبن الذى جعلنى محتقرا
من نفسى ومن الجميع ؟ أما من علاج لهذا الخوف حتى أصبح جديرا بزواجى الحبيبة ؟ !
وانكفأ على وجهه ، وانخرط فى بكاء مريرا
وارتسمت بسمة على شفتى «مورا» . وهتفت به تشجعه على التغلب على ضعف
نفسه بالثقة والإيمان .

وقال رابيزو :

- أجل . . . سأكون أشد شجاعة من الليث . ومنذ اليوم سأتذكر ، كلما خانتنى
الشجاعة ، ما فعلته زوجتى . ويكفى هذا لأسترد ثقتى بنفسى ، وأستعيد جراتى !

* * *

ودوى صوت الطبل من جديد ، يمزق هدوء الليل ، وينذر بعودة جحافل
العدو . . .

ونسى « رابيزو » مقالته منذ لحظات ، واختنق الصوت فى حلقه ، وشحب لونه
شحوبا شديدا ، وانتابته رعدة قاسية !

وانتصبت مورا على مرفقيها ، وأخذت تنصت إلى دقات الطبول . . . والألم يحز فى
نفسها . لقد كان الأمر هذه المرة خطيرا جدا . . . فالجند مندفعون إلى الحرب بلا روح ،
يفتقدون بطلهم الجريح وفى قلوبهم حسرة . أما العدو ، فإن ملكهم قد ثارت ثائرتة
لهزائمه المتوالية ، وصمم هذه الليلة أن يكون انتقامه فظيعا شنيعا ، فبرز بكل من يصلح
للقاتال فى مملكته ، وجند جيشا لجبا لا يدرك البصر آخره .

وتطلعت « مورا » إلى « رابيزو » ، فإذا وجهه يحكى صفرة الموت ، وبدنه يرتجف حتى
ليكاد يسقط على الأرض . وتنهدت مورا فى يأس ، وجمدت الكلمات على شفتيها . . فى
حين أخذت دقات الطبول تدوى ، ويشتد هزيمها عن المرتين السابقتين .

ولم تطق « مورا » صبرا ، وحاولت النهوض من مرقدتها ، وهتفت فى حماسة :

- لا بد أن أذهب . . . نعم . . . سأذهب . لن أدع العدو يحتل بلادنا !

وجاهدت عبثا أن تنتصب على قدميها ، فقد كانت ركبتها تخونانها فى كل محاولة ،
فترتمى يائسة على فراشها . وانهمرت دموع الغضب على خديها ، وحدجت رابيزو

بنظرات كأنها هي شواظ من نار عليها تثير فيه النخوة، وتلمت في فراشها في غيظ مكبوت، وهمست في يأس:

- آه... ما العمل يارباه؟ لقد خارت قواي!

وتملكته ثورة الغضب، وأحست بالدماء تغلي في شرايينها... فانتفضت واقفة، وانقضت على «رابيزو» في حقد وحنق، وطلبت إليه في حزم أن يلبس دروعه، فامتلأ لأمرها في الحال... ورمت إليه بالأسلحة، وقادته إلى حظيرة الجياد، وأرغمته على أن يمتطي صهوة حصانها الأشهب القوى الجموح، وضربت الجواد على مؤخرته، فانطلق به كالريح... واستنفدت المحاولة قواها، فانهارت على الأرض وهي تهمس لنفسها:

- لعل هذا وداعنا الأخير!

وراحت في غيبوبة طويلة...

* * *

وانطلق الجواد الأشهب يسابق الريح إلى الميدان... ورابيزو الجبان متشبث بعنقه يحاول أن يثبت فوق ظهره، وأن يكبح جماحه... وقد شحب وجهه، وزاغ بصره من هول ما يعاينه من هلع.

وارتفعت أصوات الجند في قوة عارمة حين رأوا فارسهم المقدم، يشق طريقه كالبرق، وينقض على الأعداء، وسرت فيهم موجة من الحماسة الطاغية، فاندفعوا وراء قائدهم... وقد تلاشى من قلوبهم الشعور بالخوف من قوة العدو، وحل محله شعور الثقة والاطمئنان، والاستخفاف بجند الأعداء مهما يكن عددهم وعتادهم.

وارتفعت هتافاتهم تحيي الأمير:

- رابيزو... رابيزو... جاء البطل... النصر لنا... إلى الأمام... إلى الأمام!

واندفع الجواد إلى قلب خطوط الأعداء... والأمير ذاهل لا يدري ماذا يفعل! فالرمح يهتز في يده المرتجفة، وصليل السيوف ودوى الطبول يطغيان على حواسه، وأحس قلبه يهوى إلى ركبتيه.

ووجد نفسه بغتة أمام ملك الأعداء بعد أن اخترق به الجواد الصفوف في تهور أذهل الجنود وشل تفكيرهم... وانتبه الملك إلى «رابيزو»، واستدار إليه، وانقض عليه برمحه في هجمة خاطفة صائحا من وراء قناعه:

- أهو أنت البطل؟ خذها إذن منى!

وكادت طعنة الرمح تصيب مقتلا من « رابيزو » لولا أن الجواد الأشهب ، المدرب على أساليب القتال ، حاد جانبا براكبه ، واندفع في وثبة مفاجئة إلى الأمام . . فإذا رمح رابيزو المشرع في صدر الملك مخترقا دروعه . وسقط الملك من فوق حصانه إلى الأرض يتخبط في دمائه ، ولم يلبث أن انتفض وهدم جسده إلى الأبد!

وأخذ رابيزو يعالج جذب الرمح من قلب الملك الصريع . . . وقد سيطرت على حواسه مشاعر متعددة ، ولم يشعر بنفسه وهو يرفع الرمح المخضب بالدماء في يده ، ويجذب عنان جواده ليقف على قائميه ، ثم وهو يشرع رمحاً ويندفع بجواده كالسهم . . صائحا في صوت كالرعد صيحات حماسية ملتهبة ، مستنهضا عزائم جنوده ، قائلا :

- إلى الأمام أيها الأبطال . . . إلى الأمام . . . والنصر لنا!

وفعلت صيحاته فعل السحر في نفوس الجنود ، فدوى الميدان بصيحاتهم ، وتزلزلت من هولها قلوب الأعداء ، الذين كان لمصرع ملكهم أسوأ الأثر فيهم ، فتقاعست عزائمهم عن القتال بالرغم من صيحات قادتهم لاستنهاض همتهم .

وبكى أخو « مورا » أسفا وندما حين تذكر أنه ألصق تهمة الجبن ببطل شجاع كزوج أخته . . . ولكى يكفر عن سوء ظنه ، حمل على صفوف الأعداء حملة صادقة إلى جانب رابيزو . وأخذ يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال . . . والرؤوس تتساقط حول الفارسين كحبات المطر ، وتتكوم تحت حوافر فرسيهما . وكان أخو مورا يصيح مع كل ضربة في وحشية :

- اقرع يا بطل . . . اقرع في قوة وسرعة ، ليطغى صوتك على صوت ندمى!

ولاح الفجر ، وخيم الهدوء على ساحة المعركة . . . إلا من أهازيج جنود ملك الشمال الشيخ ، وانتشائهم بخمر النصر المسكرة . . . وإلا من أصوات قادة الأعداء وهم يقسمون يمين الولاء للملك الشيخ ، ويطلبون منه العفو . وقال الملك وهو يشير إلى « رابيزو » ، الذى وقف شاخا رغم ثيابه الممزقة ودروعه التى تحطمت من كثرة الضربات ، والدماء تنزف من جراحه :

- لا تطلبوا العفو منى . . . بل اطلبوه من هذا البطل!

وانثنى إلى رابيزو قائلا في حنان وفخر :

- يا بنى . . . إنا مدينون لك بحياتنا ، وحریتنا . فمر بما تشاء!

وأطل رابيزو، فأبصر مورا تقترب متحاملة على نفسها، وقد أذهلتها أنباء ما فعله زوجها العزيز فأسرع إليها وضمها إلى صدره، وقال مخاطبا الملك :

- مولاي . . . ما كنت في الحقيقة جديرا بهذا الشرف الرفيع . ولست أنا الذى أنقذ المملكة . . . إن « مورا » الحبيبة ، هى التى جعلت منى ، أنا رابيزو الجبان ، بطلا مغورا ! وحاولت « مورا » أن تسكته . . إلا أنه اندفع فروى القصة للجميع . . .

وجثت زوجته أمامه فى فرحة طاغية ، وقالت والسعادة تلمع فى عينيها ، وتطفر منهما دموع الابتهاج :

- ما أسعدنى بك أيها الحبيب . . إنك الآن أشجع إنسان على ظهر الأرض .

ونهمض الملك الشيخ ، فضم إلى صدره مورا ورابيزو، وقال :

- صدقت يامورا . . . فإن رفع الرمح على عدو فى ميدان القتال ، لأهون كثيرا من إعلان الحقائق فى بسالة ونبل .

وارتفعت صيحات الشعب تهتف فى تقديس :

- رابيزو . . . رابيزو !

وأدرك رابيزو أن الشعب سيقدر شجاعته إلى الأبد !

من أساطير زنوج أمريكا الإرث

الزنوج في أمريكا لهم أساطيرهم التي تحمل ألوانا من الذكاء يحاولون بها التغلب على عقبات كثيرا ما تواجههم خلال حياة كل يوم .

وتفويض أساطير الزنوج بأخبار الجن والسحرة والمشعوذين بصورة جعلت الذين كتبوا عنهم من البيض يقولون : إن أساطيرهم تكشف عن سداجة فيهم تفوق البيض والحمير والصفير، وإن الأسود يكاد يقصى حياته حدثا بها في الحدادة من طيش وارنجال ويميل إلى الحبور . . .

إلا أن أسطورة « الإرث » تكشف حقيقة الزنوج، وتكشف كذلك عدوان البيض على إخوانهم السود

لم يكن يخشى اقتراب الموت ، إلا أنه عندما أحس بدنو أجله ، امتلأ رعبا وشقاء . . . ذلك أنه أشفق على ولده الصغير « مارديا » من الأطماع والأحقاد .

إن الثروة التي ستركها لابنه الصغير ليست كبيرة ، ولكنها ، مع ذلك ، كافية لأن تسيل لعاب الكثيرين ممن يحيطون بالطفل الصغير . ولم ير بدا من أن يعهد إلى صديق أمين بولده وثروته ، ولم يكن هناك من يستطيع أن يثق به بين أصدقائه سوى « راهارا » . وربت « راهارا » على كتف صديقه المريض الذي كادت الكلمات تموت على شفثيه ، وقال :

- كن مطمئنا يا صديقي . . . فثروتك بين يدي ستبقى كما كانت لديك . وإنى لأعاهدك أن أكرس كل جهدي في سبيل زيادتها ، وعندما يبلغ ولدك رشده ، أسلمها إليه أضعاف ماتسلمتها منك . . . نم هانئا يا صديقي . ولتكن مطمئنا على قيامي بواجبي نحو ولدك خير قيام !

وتتم الرجل المحتضر بعبارات متقطعة شكر فيها صديقه ، وأمسك بكفه فضغط عليها اعترافا بجميله .

وانطلق « راهارا » إلى الخارج ليعد نعش صديقه العزيز . . .
وأشار المحتضر إلى امرأته التعسة التي جلست تبكى فوق رأسه ، فأدنت أذنها من شفتيه ، فقال هامسا :

- إننى أحس كأننى أخطأت فى ثقتى براهارا . وإننى لأخشى أن تخونه الذاكرة فيخطئ فى حساب الأموال التى أخلفها لولدى . . . فكونى على حذر ، وخذى هذه التميمة فعلقها فى عنق مارديا ، فإن فيها قسائم مفصلة بالأموال جميعها . وإننى سأموت عندئذ مطمئنا مستريح البال .
ولم يكد الرجل ينتهى من كلماته ، حتى انتفض وأسلم الروح .

تسلم « راهارا » ثروة « مارديا » ، وأخذ يستغلها طوال سنوات عديدة ، ويزيد فيها ، حتى أصبحت أضعاف ما تركها الرجل .

وشب « مارديا » خلال هذه السنوات ، وقارب سن الرشد ، وأخذ يفكر فيما سيثول إليه حاله عند بلوغه هذه السن . وكان مايشغل باله ويخيفه هو وأمه أن « راهارا » لم يحدثهما قط عن الموعد الذى سيرد فيه الوديعة إلى صاحبها . . . كل ماكان يفعله ، أنه يرسل إليهما إيرادا ضئيلا لم يكفهما فى يوم من الأيام !
ومرت السنون . . . وجلست أم « مارديا » تحدثه ذات يوم :

- لقد تجاوزت سن الرشد يا مارديا ، وكان لابد أن تتسلم ثروتك من « راهارا » منذ عام ونصف عام . ولقد صبرت طويلا أملا فى أن يرد راهارا أموالك إليك . . . إلا أنه يبدو أن كثرة المال قد أطمعته فيه ، ولعله خدع والدك بصداقته المزيفة . . . فاذكر يا ولدى التميمة المعلقة فى عنقك ، واذهب الآن إلى وليك ، واطلب منه أن يعيد إليك ما خلفه لك أبوك .

وذهب مارديا إلى راهارا وقال له :

- لقد بلغت سن الرشد منذ أكثر من عام ونصف عام ياسيدى ، فمتى ترد إلى الأموال التى عهد بها أبى إليك ، لتسلمها لى متى بلغت رشدى ؟

وأجاب « راهارا » وهو يتصنع الدهشة :

- أموالك . . . أبوك . لست أفهم ماذا تعنى !

قل لى ماذا تريد ؟ !

وأجاب الفتى :

- إننى أسألك : متى ستسلمنى ثروتى التى عهد بها أبى إليك ؟

وهتف راهارا :

- تقول إن أباك عهد إلى بثرة لك ! إن المرحوم والدك لم يستودعنى شيئا مما تقول . . . بل لقد أورثنى ثروته قبل أن يموت ، مقابل أن أنفق عليك حتى تبلغ رشداك ، وقد أنفقت عليك أكثر مما ورثت من أبيك . . . لقد كان حقا رجلا بارعا !

وصرخ الفتى فى اضطراب :

- أتجسر على ادعاء ملكية الثروة التى تركها لى أبى ؟ أتتكر أنك أخذتها أمانة مقدسة لتعيدها إلى عند بلوغى سن الرشد ؟

وأجاب راهارا وهو يتظاهر بنفاد الصبر :

- ما هذا الذى تقول يا ولدى ؟ من علمك هذه الأكاذيب ؟ أقسم برأس أبيك أنه لولا صداقتى له وإعزازى لذكراه ، لطردتك شر طردة ، وألقيت بك فى عرض الطريق !

وصاح الفتى فى غيظ :

- أتجرؤ على تكذيب هذه التهمة أيضا ؟ !

وشحب لون راهارا ، وقال فى صوت مرتعش :

- تميمة ! أى تميمة تعنى ؟

وأجاب الفتى : أراك قد تغيرت ، واعتراك الشحوب . . . إننى أعنى هذه التميمة التى تحوى قائمة مفصلة بأموال والدى التى أودعها لديك ، وهى تثبت بصورة قاطعة حقى فى الميراث .

وبرغم الاضطراب الذى بدا على راهارا . . . فقد تمالك نفسه سريعا ، وأجاب فى ازدياء :

- ما أسخف دعابتك ! إن هذه التميمة لائحوى شيئا مما تقول .

فأخرج مارديا التميمة المعلقة حول عنقه ، وفضها . ولم يكذب فعل حتى انقض عليه راهارا ، واختطف الورقة التى كانت بداخلها ، وفى مثل لمح البصر ألقى بها فى النار !
وبهت مارديا ، واستشاط غضبا ، وتسمرت قدماه فى الأرض ، فى حين أخذ « راهارا » يضحك ساخرا ، ثم قال :

- انظر . . . هذه هى التميمية المعجزة ! لقد ألقيتها فى النار لأنى لا أومن بالمعجزات !

وبكى مارديا فى غيظ ، وقال من خلال الدموع :

- سأذهب إلى القاضى أيها اللص ، وسأحتكم إلى عدالة الملك ، وأعرض قضيتى على الجميع .

وقهقهه راهارا فى سخرية ، ودفع بالفتى ، قائلاً :

- اذهب ، اذهب إلى إبليس أيضا . فلم يعد لديك ما تثبت به ادعاءاتك الباطلة !

وانطلق مارديا فى جميع طرقات القرية ، يقص قصة الخيانة التى ارتكبها راهارا ، ويصفه بالسرقة واللصوصية . . . ولكن الخائن الحقيق عرف كيف يرد عليه ، ويحتفظ بهدوء غريب . فاضطر الفتى إلى التراجع ، وعاد إلى بيته مكتئبا حزينا ذاهلا !

وبكت أمه من الغيظ ، وقالت :

- ليرحمك الله يازوجى المسكين . لقد داخلك الشك فى ذلك الخائن قبل أن تموت . . . ليتك ما عهدت إليه بشيء قط !

وقال « مارديا » لأمه فى حزن :

- ومع ذلك فقد أخطأت أنا أيضا . . كان يجب أن أتمالك شعورى عندما أدركت بوادر خيائته . كان ينبغى أن أخفى التهمة ولا أمكنه منها . . . لقد أضعت حقى ييدى ، وسأضطر إلى التقدم بشكوى بغير قرينة . ومع ذلك ، فلن يمنعنى ذلك من الذهاب إلى القاضى ، ولعله يكون ذا خلق طيب جدير بمنصبه ، فيمكننى من الحصول على حقى .

وتلقى القاضى شكوى مارديا فى برود ، فلم تكن ثمة قرينة تثبت دعواه على الرجل . ومع ذلك أرسل إلى « راهارا » يستدعيه ، ثم عرض عليه شكوى مارديا ، وقال له متسائلا :

- بماذا ترد على تهمة اختلاس الإرث المسوبة إليك ؟

وأجاب راهارا متصنعا عدم المبالاة :

- إنها لتهمة باطلة ياسيدى . والكل يعرفون صدقى ونزاهتى ، ولطالما برهنت أعمالى على ذلك ، فعندما حدث الفيضان الماضى . . .

وقاطعه القاضى بحدة :

- لا تخرج عن الموضوع ، وأجب على قدر السؤال : ماهو ردك على دعوى مارديا؟
وأجاب راهارا في ثبات :

- إن هذا الشاب يزعم أنني اغتصبت منه أموال أبيه . وهذه تهمة باطلة ، ومع هذا فأنا لا أبغضه ، فله أن يزعم ما يشاء . وأنا لا أريد الانتقام منه ، فليسحب دعواه حتى لا أطالبه بتعويض عن الإساءة التي ألحقها بشرفي!
فقال القاضي غاضبا :

- أريد جوابا واحدا ، بنعم أو بلا . . . هل تسلمت من والد مارديا أموالا بصفة أمانة تردها لابنه عندما يبلغ مبلغ الرجال؟
أجاب راهارا :

- نعم تسلمت أموالا أورثها لي والد مارديا مقابل خدمات أديتها له في حياته ، ولزوجه وابنه بعد وفاته !

ومضت فترة من الصمت ، كان القاضي خلالها يفكر في الأمر . لقد دافع مارديا عن قضيته دفاعا حارا قويا . ونفى « راهارا » عن نفسه التهمة في حكمة واعتدال . . . فأيهما الصادق ياترى ؟ كيف لي أن أحل هذا اللغز؟

وأرسل القاضي فاستدعى إليه بعض الزهاد ، وأصدر إليهم أوامر سرية أمرهم أن ينفذوها . وعندما انتهى من إصدار أوامره ، أمر الخصمين بالاقتراب قائلا لهما :

- اذهب أيها الشاب وعد ومعك أمك ، وأنت ياراهارا امض فاحضر امرأتك ، سأفرض عليكما أمرا تعاونكما فيه المرأتان !

وأشار القاضي إلى صندوق كبير جاء به أحد الزهاد ثم قال :

- إن من يستطيع منكما أن يطوف حول القرية حاملا هذا الصندوق ، سيكون هو الوارث الحقيقي . فالضمير النقي يكسب المرء قوة !

وانصرف مارديا وراهارا ، ولم يلبثا أن عادا ومعهما المرأتان . . فكرر القاضي أمامهما أمره ، ثم انثنى إلى مارديا قائلا :

- فلتبدأ أنت وأمك بالطواف لأنك المدعى !

ونفض الفتى وأمسك بالصندوق ، فأحس أن أحد طرفيه أثقل من الآخر ، فرفع الطرف الثقيل ، وترك لأمه الطرف الخفيف ، وغادرا دار القاضي ليطوفا بالقرية !

وتحمل « مارديا » ثقل الصندوق ، في حين أخذت أمه تنوء تحته وتتعثر بين كل خطوة

وأخرى ، حتى كاد الصندوق أن يسقط على الأرض ويتهشم !
وشعرت المرأة بإعياء شديد ، فتوقفت في مكانها وأنزلت حملها ، ثم تهالكت إلى
جواره ، وانخرطت في البكاء .

وعانق مارديا أمه في حنان ، وأخذ يخفف عنها ، وقلبه يكاد ينفطر من الألم ، قائلا :
- تشجعى يا أماه ، فإن الشجاعة هى السبيل الآن لإثبات حقنا . . . آه لو لم يتلف
هذا الخثون محتويات التميمة ، لما كنا في حاجة إلى تحمل هذا العناء . ساحينى يا أماه لما
سببت لك من شقاء ، وتشجعى فإن علينا أن نمضى حتى النهاية .

وعاد الاثنان فحملا الصندوق الثقيل ، وانطلقا يطوفان في الطرقات ، حتى أتتا
الطواف حول القرية ، وانتهيا إلى بيت القاضى ، وهما يلهشان من الجهد . . وأمرهما
القاضى أن يضعا الصندوق ، ودعاهما للجلوس على يمينه قائلا :

- اجلسا هنا . . . ولتنهض أنت يا راهارا لتحمل الصندوق أنت وامرأتك .
ورفع راهارا أحد طرفى الصندوق ، وأشار إلى امرأته بأن ترفع الطرف الثانى . . ثم
اندفع خارجا في خطوات سريعة .

ولم يقطعوا من الطريق إلا مسافة ضئيلة ، وبدأ خطو المرأة يتباطأ ، وركبتها تنوءان
تحت وطأة الثقل ، وتخبطت في سيرها ، ثم وقعت على الأرض تئن وتبكي .
وصرخ فيها راهارا يؤنبها ، وقد نفذ صبره :

- هيا انهضى أيتها اللعينة . . . يجب أن ننتهى سريعا من هذا الأمر السخيف الذى
فرضه علينا هذا القاضى المأفون . . . انهضى . . . هيا !
وأجابت المرأة وهى تلهث :

- ما أظن أننا سنستطيع الطواف حول القرية . إن خاتمة هذا الأمر لتثير في الرعب
والتشاؤم . ألم يكن من الأفضل أن ترد للفتى ماله فتكفينا هذه الشرور كلها ؟ !
فنهرها راهارا في غلظة وخشونة قائلا :

- إنك لبلهاء حقا ! أتريدنى أن أضيع تلك الثروة التى لا يوجد على أحقيته فيها أى
دليل ؟ ! ما كنت أظن أنك غبية إلى هذا الحد . . . انهضى يا امرأة ، فالوقت يمر
سريعا ، وأريد أن نفرغ من هذه المهزلة !

واستجمعت المرأة قواها ، وجاهدت حتى استوت على قدميها ، وسارت خلف
زوجها ، والوهن يدب في عظامها . . ومضيا على تلك الحال حتى بلغا دار القاضى ،

فأفلتت أصابعها طرف الصندوق ، وزحفت إلى يسار القاضى ، واستقرت مكانها ، وتبعها زوجها .

وسأل القاضى مardia :

— أما زلت مصرا على دعواك ، وعلى اتهامك هذا الرجل باختلاس إرث أبيك ، وإحراق الوثيقة التى تثبت صدق دعواك ؟

فنهض مardia ، وأجاب القاضى فى ثبات :

— أجل ياسيدى ، وسأظل ماحييت مصرا على ذلك . . . فراهارا كاذب خئون ، ولص حقير !

واندفع راهارا واقفا ، وقد علت وجهه سمات السخرية ، ورد على إهانة الفتى قائلا :

— إن فضيلتى لتمنعنى من مبادلة هذا الفتى المخادع الخيىث ، تلك الشتائم والمهاترات التى ينطلق بها لسانه ، وإنى . . .

ولم يمهل القاضى ليكمل كلامه . . وأشار إليه بيده ، وقال :

— . . كفى . . . أما زلت أنت أيضا مصرا على ادعائك أنك الوارث لأموال صديقك ؟

فأجاب راهارا متصنعا النبل والأدب :

— إنها الحقيقة ياسيدى ، وأقسم عليها بشرفى !

ورفع القاضى يده فى وقار قائلا :

— حسنا . . سنصدر حكما إذن . وأشار إلى أحد الزهاد أن يفتح الصندوق .

وما إن فتح الزاهد الصندوق حتى اندفع منه زاهدان كانا راقيدين بداخله ، ورويا للقاضى كل كلمة سمعاها بين مardia وأمه ، وراهارا وامراته . وارتسمت معالم البهجة على وجهى مardia وأمه . . فى حين قالت امرأة راهارا لزوجها ، وقد تضاعل فى ثيابه ، واعتراه الخزى والعار :

— أما نصحتك بأن الآلهة لا تغفل عينها ، وأن الحق لابد منتصرا !

ومنذ ذلك اليوم ، اختفى راهارا من القرية إلى الأبد . . ثم ترددت فى بيوتها شائعات تقول إنه شوهد يتسول فى قرية بعيدة جدا من قرى الجنوب !

أسطورة إسبانية الساحر وابنته

لم يساهم الإسبان في الأسطورة الدينية بقدر ما ساهموا في سجج الحكايات والأساطير الشعبية .
ولأرب أن للسيادة العربية في إسبانيا التي استمرت من سنة ٧١٠ حتى سنة ١٤٩٢ ، أثرا كبيرا في
الحكايات الشعبية التي سحها خيال الإنسان ، وتأثروا فيها بأساطير ألف ليلة وليلة
وأسطورة « الساحر وابنته » واحدة من هذه الأساطير التي يرددها سكان « استرامادورا »
و« قطالونيا » وفيها عظة بالغة فيها يعاين المقامر من عذاب معوى إلى أن يتمكن من محو خطيئته .

حدث هذا في قرطبة . . . فعندما تبدأ شمس النهار في الاختفاء وراء الأفق الغربى ،
مرسلة أشعة ضعيفة خافتة لا تكاد تبين ، كان هناك عملاق ضخيم غريب ، في عباءة
رمادية ، ينحدر في الطريق إلى الفندق ، وكأنه يعرف الطريق كواحد من أهل تلك
المدينة !

وعجب « دون لويس » - أكبر مقامر عرفته إسبانيا - حين فوجئ بذلك الغريب
المجهول ، القادم من حيث لا يدري أحد ، يتجه صوبه ، ثم يشاركه مائدته من غير
دعوة أو استئذان ، وكأنهما صديقان حميمان ! وازداد عجبه عندما أخرج ذلك الغريب
من بين طيات ملابسه أوراق اللعب ، وثروة هائلة من الذهب والفضة واللازورد !

وأسال الذهب لعاب « دون لويس » إلا أنه قال للغريب : أنا لا ألعب إلا بورق
يقدمه الفندق . ولم يعترض الرجل ، وأعاد أوراقه إلى جيبه في هدوء ، واستعد للمباراة .

وكانت مباراة من جانب واحد : القادم الغريب يربح دائما ، والمقامر الشهير يخسر
باستمرار . . . وتشعل الخسارة المستمرة رغبته في الثأر ، وإصراره عليه . . . فيمنى
بالخسارة دائما ، وأمواله تنهاوى قطعة قطعة لتنضم إلى رصيد الرجل القادم من حيث
لا يدري أحد .

واستغرق اللعب الليل كله . ومع انبلاج الصبح كان « دون لويس » قد خسر كل

شئ : أمواله ، وسيفه ، وحصانه . . . ولم يعد لديه ما يقامر به ، ومع هذا ، صرخ
بالغريب عندما رآه ينفض يديه استعدادا للقيام :

- أيها الغريب . . . لأننى لم أنهزم بعد ، ولا تزال لدى « روحى » أقامر بها !

وعادت المباراة . . . وخسر دون لويس !

ونفض الرجل من مكانه مودعا . وأفاق المقامر الشهير إلى نفسه حين رأى صاحبه
يبرح المكان ، فجثا أمامه هاتفا :

- أيها السيد الغريب . . . أنا لا أملك أن أمنعك ، ولا أملك أن أطالبك برد شئ مما
ربحت . . . كل شئ أصبح ملكك : مالى ، وسيفى ، وحصانى . . . ولكنى أتوسل
إليك أن ترد لى روحى . . . روحى فقط أيها السيد الغريب !

وجذب الغريب طرف رداءه ، وهز رأسه قائلا :

- إن « مركز الشمس » لا يرد أبدا شيئا أصبح من حقه . . . ومع ذلك فسوف أعيد
لك روحك عندما تبلى هذا الخذاء . . . !

ثم ألقى إلى الفتى بخذاء غريب الشكل مصنوعا من الحديد ، ثم اختفى فجأة كأنها
ابتلعت الأرض .

قضى « دون لويس » أياما ، لم يذق خلالها طعم الراحة ولا الاستقرار . واضطربت
حياته ، واسودت الدنيا فى عينيه . . . حتى غدا لا يدرك من أمر نفسه شيئا . وكيف
يحس طعم الحياة أو يدرك معناها ، وهو يعيش على الأرض ، شبحا بلا ظل ، وجسدا
بلا روح !

إذن . . . فإلى هذا الخذاء الحديدى الملعون .

ووضع « دون لويس » الخذاء فى قدميه ، وانطلق سائرا على غير هدى إلى حيث
لا يدري ، وكل همهم أن يفنى الخذاء ليصل إلى المكان الذى يجد فيه مركز الشمس ،
فيسترد منه الروح التى سلبها بالرغم منه .

وظل الفتى سائرا على قدميه سيرا لم يسره أحد من قبل - من قرطبة إلى برشلونه ، ومن
مرسية إلى سبتياجو - والخذاء الحديدى لا يتأثر بطول السير ، والمركز المجهول لا يظهر له
أثر . . . والأمل بين هذا وذاك ضائع منهار ، لا يبدو منه إلا سراب خادع !

وبلغ الفتى ، ذات مساء ، بلدة صغيرة مجهولة ، ورأى أناسا مجتمعين فى صخب

وضجيج أمام فندق صغير. . . يكادون ، في ثورتهم ، أن يحطموا كل شيء . واقترب الفتى من صاحب الفندق ، يستفسره الأمر . . فعلم منه أن أحد النزلاء قد مات فجأة وهو مدين له بأجر ثمانية أيام . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان هينا . . . ولكن الرجل كان مدينا أيضا لعدد كبير من التجار ، وعندما علموا بموته ، وفدوا إلى الفندق يطالبون صاحبه بديونهم ، ويتهمونه بإخفاء متاع الميت ، برغم أنه أخرج أمامهم كل ماخلفه الرجل من ملابس ، لاتساوى أكثر من ثلاثة ريالات . . . ولاشيء آخر !

وأخذ صاحب الفندق يبكى ويصيح :

- أيها الناس . . . لست غنيا حتى أدفع ماعلى الرجل من ديون ، ولست مسئولا عن موته حتى أدفع نفقات دفنه ! ماذا أفعل بجثته يارب ؟ هل أتركها للدائنين يمزقونها ، ويأخذ كل منهم قطعة فتهيم روحه حائرة لاتستقر فى مكان ؟ ! ماذا أفعل . . . ما الذى أستطيع أن أفعله . . ؟ !

وأخرج « دون لويس » كيس نقوده فى صمت ، وقدمه لصاحب الفندق قائلا :

- خذ . . . سدد ديون الميت ، ومايتبقى أنفق منه على جنازته ، حتى يرقد هانئا مطمئنا ، وتستقر روحه فلا تتشرد ولا تهيم !

ومد الرجل يده وتناول الكيس فى لهفة ، وتمتم بعبارات العرفان قائلا :

- ليباركك الله ياسيدى . . . وكن على يقين أن الله لا يضيع أجر المحسنين ، وسيجزيك على عملك خير الجزاء .

واستأنف « دون لويس » سيره من جديد ، ولم تمض ساعة أو بعض ساعة حتى فوجئ بأن إحدى نعليه قد تآكلت . . . وارتاح لذلك راحة كبيرة ، واندفع مواصلا سيره . فلما جن عليه الليل ، سمع وقع حوافر جواد آت من خلفه فى سرعة - فأبصر فإذا فارس يمتطى جوادا أسود ، وملتف بعباءة طويلة سوداء . واقترب الفارس منه ، وترجل عن جواده وحياه فى صوت عميق كأنه آت من عالم آخر ، وقال له :

- أنا أيها الفتى روح الميت الذى سددت عنه دينه ونفقات جنازته ، وأطلقت بذلك روحه من عقال الأسر ، وأصبح لزاما على أن أكافئك على الصنيع الذى قدمت . . . فلتستمر فى سيرك حتى تصل إلى النهر ، واجلس هناك ساكنا على الضفة تحت شجرة الصفصاف ، فإن طيورا ثلاثة ستهبط هناك ، ثم تخلع ريشها وتتحول إلى ثلاث فتيات رائعات الجمال ، ينزلن إلى النهر للاستحمام . . . عندما يحدث هذا ، أسرع بالاستيلاء على ريش إحداهن ولا ترده إليها إلا إذا منحتك ماتريدا !

واختفى الفارس في غمرة الظلام ، ومضى « دون لويس » إلى النهر لينفذ نصيحته ،
واستلقى تحت شجرة الصفصاف ، وراح في سبات عميق .

* * *

واستيقظ من نومه على أشعة الشمس الذهبية تدغدغ عينيه ، وتلفت حوله في
سكون ، فأبصر أمامه ثلاثة طيور بيض تخلع عنها ريشها وتنقلب إلى حسناوات
رائعات الجمال . . . رحن يتسابقن إلى الماء ، ويرتمين بين أحضانه . . .

وتسلل الفتى في خفة ، واختطف أقرب الأودية إليه ، فانتبهت الفتيات ، وأسرعن إلى
الضفة ، وارتدت اثنتان منهن ريشهما ، وتحولتا إلى طائرين رفرفا بأجنحتهما في فزع ،
وطارا بعيدا في الجو ، وهما ينظران إلى شقيقتهما الصغرى التي حاولت أن تستر من
الغريب ، وأخذت تتوسل إليه أن يرد لها ريشها ، وهو يأبى . . . ولم تنتظر الفتاتان ،
فانطلقتا في السماء .

وأخذت الفتاة الصغيرة تستدر عطف الفتى ، قائلة : إنها بدون هذا الرداء لا تستطيع
العودة إلى قصر أبيها . ولكن « دون لويس » لم يعر توسلاتها اهتماما ، وقال لها :

- لن أعيد إليك الريش إلا إذا أخبرتنى أين أجد « مركز الشمس » !

فشهقت الفتاة فزعا ، وقالت :

- لن تستطيع أن تجده . وأنا لا أستطيع أن أشى بمكانه لمخلوق !

فهز الفتى كتفيه وقال :

- إذن لن أعيد إليك الرداء .

وعادت الفتاة إلى توسلاتها ، وانهمرت على خديها العبرات . . إلا أن الفتى لم يلن
قلبه ، فقد كان حريصا على ألا تضيع منه فرصة استرداد روحه الشاردة .

وقالت الفتاة بعد لآى :

- إن « مركز الشمس » أبى ، وهو ساحر قوى يعرف كل شىء . وقد أقسمنا على ألا
نخونه أو نشى بمكانه .

فقال « دون لويس » :

- لن تحشى في يمينك يا صغيرتى . . . يكفى أن تطيرى قرية منى على مهل ، في

طريقك إلى قصره ، دون أن تخبريني عن مكانه ، وسأتبعك بمفردى . . . وهكذا أعرف أنا المكان ، وتبرين أنت بقسمك !

واقتنعت الفتاة ، وقبلت رأى الفتى . . . ومد إليها الفتى يده بريشها فتناولته وارتدته ، وحلقت في السماء ، وراحت تطير في ببطء . . . وهو يتبعها سائرا على الأرض ، وظلا على هذه الحال يوما كاملا ، إلى أن بلغا قصرا شاهقا ، يحوطه سور ضخيم قائم على سفح جبل كبير . . . ورفرف الطائر بجناحيه ليدله على مكان الباب ، ثم اختفى .

وظل الفتى سائرا حتى بلغ مدخل القصر . . . فولجه ، واندفع إلى القاعة الكبرى التي تتوسط المكان ، ووقف في وسطها حائرا لا يدري ماذا يفعل !

ودوى في سمع الفتى الذي تسمر في مكانه ، صوت كالرعد يسأله في غضب :

- كيف بلغت هذا المكان أيها الدخيل ؟ !

واستدار الفتى في ببطء ورهبة إلى مصدر الصوت ، فرأى المركز جالسا على عرش ضخم من ذهب . . . تأمله طويلا ، ثم أجاب :

- لقد سرت في طريقى مستعملا الحذاء الحديدى الذى أعطيتنى إياه . ولما تأكل وجدتنى قد بلغت هذا المكان . . . فدخلته ، وهكذا وجدتك . وإنى أطلب إليك أن تفى بوعدك وتردلى روحى .

فأجابه الساحر: سأردها إليك غدا . أما اليوم ، فاسترح من عناء السير الطويل .

وفى الصباح عاد « دون لويس » يطالب بروحه ، فهاطله المركز قائلا :

- لن أعطيك روحك قبل أن تهدم هذا الجبل الذى يحجب النور عن قصرى !

وخرج الفتى من القصر ، وأطل أمامه إلى الجبل فى يأس . . . إن ألف عملاق لا يمكنهم أن يهدموه فى أقل من ألف عام ! ليس أمامه إذن إلا أن يعود من حيث جاء .

وارتمى الفتى على الأرض فى يأس مرير . . . وفجأة أحس بلسعة نملة على ساقه . . . وعندما مد أصابعه ليسحقها ، سمعها تقول :

- لا تقتلنى يادون لويس . . . إننى « بلانكفلور » . ابنة مركز الشمس التى قادتك إلى هذا المكان . . . سأساعدك مرة أخرى فلا تيأس . وما عليك إلا أن تنام حتى الصباح !

واطمأن « دون لويس » فنام . ولما أصبح الصباح ، واستيقظ من نومه . . أطل
أمامه فلم يجد للجبل أثرا . . . كان قد اختفى وكأن لم يكن !

وانطلق الفتى إلى داخل القصر ، حيث جلس المركيز ، وقال له :
- ها أنت ترى أنني قد نفذت أوامرك ، وأزلت الجبل من مكانه . . فنفذ الآن وعدك ،
وامنحني روحي . . .

ولكن المركيز قال له :

- لا أعرف كيف استطعت أن تقوم بهذا العمل ، ولكنى مع ذلك لن أعطيك روحك
حتى تبذر الحبوب التى تملأ هذا الكيس كلها ، وتأتينى بثمارها لآكلها ساعة الإفطار !
فهتف الفتى فى سخط :

- ولكنك قلت لى إنك سترد روحي إذا أزلت هذا الجبل . . . ولقد فعلت ، فلماذا
لا ترد لى روحي على الفور ؟

وهز الساحر كتفيه كأن لم يسمع شيئاً . وخرج الفتى يائساً مرة أخرى . وكان يحمل
كيس البذور فوق كتفيه ويعجب : كيف يتسنى له أن يبذر تلك البذور كلها فى
الحقل ، ويسقيها ، ويجعلها تنبت ، وتورق ، وتثمر . . ثم يقطف ثمارها ويأتيه بها قبل
موعد الإفطار ؟ !

وألقى الفتى بالكيس على الأرض ، وارتدى فوقه بيدب حظه السيئ . . . وفجأة ،
سمع طائراً يغرد ويناديه باسمه :

- يادون لويس . . . إننى « بلانكفلور » التى ساعدتك مرتين ، سأمد لك يد المساعدة
للمرة الثالثة ، وليس عليك إلا أن تهدأ وتنام !

وعندما استيقظ دون لويس ، قبيل موعد الإفطار ، وجد نفسه غارقاً فى حقل مليء
بالأشجار المثمرة ، تتدلى من فروعها جميع أنواع الفاكهة ، من خوخ وبرتقال وعنب
ورمان . وأخذ الفتى فى فرح غامر يقطف الثمار ، وانطلق بها إلى المركيز ووضعها بين
يديه ، وصاح :

- الآن . . أعطنى روحي .

فتناول الساحر تفاحة قضمها فى لذة ، وقال :

- غدا . . . بعد أن تحضر لى خاتمى الذهبى الذى سقط منى فى قاع النهر !

وانفجر « دون لويس » صائحا صاخبا . . . ولكن المركز أصر على ألا يعطيه روحه إلا بعد أن ينفذ ما يريد واندفع الفتى إلى الخارج حتى بلغ ضفة النهر، وأطل إلى قاعه العميق، ثم انكفأ باكيا منتحبا . . .

ولمح الفتى على وجه الماء سمكة فضية صغيرة تقترب منه، وسمعها تقول :

- لا تبك يادون لويس . . . إن « بلانكفلور » لن تتركك . ولكنك لن تنام هذه المرة، بل عليك أن تلتقطني الآن، وتقطعني إربا إربا، وتلقى بدمي في النهر . فإذا ما أزيد الماء، مد يدك تجد الخاتم فوق الزبد، وليس عليك بعد ذلك إلا أن تبحث عن أجزائي الممزقة من جديد، وتلصق بعضها ببعض . . . واحذر أن تنسى منى قطعة واحدة ولو كانت صغيرة!

ونفذ الفتى ما طلبته « بلانكفلور »، فمزقها أربعين قطعة، تدفق الدم منها إلى الماء فأرغى وأزيد . . . ومد الفتى يده إلى الزبد، فإذا الخاتم بين أصابعه! فأخذه، ثم جمع أجزاء السمكة فأعادها إلى حالتها الأولى . وعندما انتهى من الصاق آخر جزء، هتفت به أسفة:

- لقد نسيت جزءا من خنصر يدي اليسرى، وسأعيش دائما بخنصر قصير.
واندفعت السمكة، واختفت في الماء .

وانطلق الفتى إلى القصر، ووقف أمام مركز الشمس وفي يده الخاتم، وقال له :

- لن أعطيك الخاتم قبل أن تسلمنى روحى . . . الآن .

فقال المركز:

- سأردها الآن، وقد أعددت لك جوادا من أحسن جيادى ليحملك إلى بلدتك . . . اذهب إلى فناء القصر، تجده هناك مسرجا على أتم الاستعداد .

وفرح « دون لويس »، وسلمه الخاتم، وأسرع إلى الفناء ليشهد الجواد . . . وبينما هو في طريقه إليه، اقترب منه فأر أشهب، وهتف فيه :

- إن « بلانكفلور » تتوسل إليك ألا تصدقه . . . إنه يريد أن يغدر بك . فالجواد ليس سوى المركز نفسه، يريد أن يملك حتى تطمئن إليه، ثم يلقي بك إلى الأرض، ويطأك بحوافره . . . ولكنك ستتصر عليه إذا أخذت المهماز والسوط المعلقين على الحائط . وعليك أن تستعملهما في قسوة بالغة، حتى يصرخ طالبا منك الرحمة والغفران .

وشكر الفتى الفأر الأشهب الذى لم يكن سوى «بلانكفلور» نفسها . ومد يده إلى الحائط فانتزع المهماز والسوط ، وأمسك بعنان الجواد ، ووثب فوق ظهره . وانطلق الجواد فى سرعة هائلة ، وراح يقفز قفزات جبارة فيرتفع إلى السماء فجأة ثم يهبط إلى الأرض هبوطاً مروعاً . . . إلا أن «دون لويس» أمسك بالعنان جيداً ، وراح يضرب الجواد بالسوط فى قسوة ، ويلكزه فى جنبه فى غلظة صرخ لها مستعطفاً :

- كفى ، كفى أيها الفتى . . . إننى «مركز الشمس» .

فأهوى الشاب بالسوط على وجهه فى قسوة وقال :

- ردلى روحى الآن أيها الخائن ، وإلا قضيت عليك .

فأجاب المركز فى ذلة وتوسل :

- ستكون روحك لك . . . أطلق سراحى .

وترجل الفتى ، وانتفض الجواد فصار بشراً سوياً . . . هو مركز الشمس نفسه ، وأخذ بيد الفتى إلى غرفة مظلمة قد اكتظت بزجاجات احتفظ فيها الساحر بأرواح ضحاياه ، وتناول زجاجة منها سلمها للفتى فارتدت إليه روحه .

وغمرت الفرحة قلب دون لويس ، وبدأ كمن يهفو إلى من يشاركه فرحته ، وأخذ يجول فى الحديقة باحثاً عن «بلانكفلور» التى صنعت له هذا النجاح كله .

ولما يئس من العثور عليها ، استلقى إلى جوار شجرة ورد ، وقطف منها وردة . . . وما كاد يفعل حتى سمعها تهمس إليه :

- عمن تبحث بين الأخوات الثلاث يا «دون لويس»؟

- إننى أبحث عمن مدت لى يد العون منذ أول يوم .

فقالت له الوردة :

- اصغ إلى إذن . . . إن الغيرة تمزق قلبى شقيقتى . فعليك أن تتجنب فتاتك ، وتتحاشى إثارة الريبة فى نفس المركز بأن تختار واحدة منا دون أن ترانا !

فقال دون لويس :

- وكيف أستطيع اختيار من أحب ؟ !

فأجابته الوردة :

- تذكر أن «بلانكفلور» فقدت عقله من خنصرها بسبب خطئك .

وانطلق الفتى من فوره إلى المركيز، وبادره بقوله :

- أنا عائد فورا إلى بلدى ، ولكنى أشعر بحاجتى إلى رفيق فى سفرى . . فهلا زوجتنى
إحدى بناتك ، فتكون رفيقتى فى العودة؟!

وارتاب المركيز، وأجابه فى شك :

- أية واحدة منهن تريد؟

قال الدون :

- أنا لا أعرفهن ، ولا أستطيع أن أميز بينهن . ولا مانع لدى ، تجنبنا لإثارة الغيرة
بينهن ، أن تقف بناتك وراء ستار، ويخرجن من فتحاته أيديهن ، فأمسك أنا بيد من
أختارها عروسا لى دون أن أرى وجه واحدة منهن .

ووجده الساحر حلا موفقا . . فأمر بناته الثلاث بالوقوف من وراء ستار، وأن
يخرجن أيديهن من فتحاته . وسرعان ما ميز « دون لويس » يد عروسه ذات الخنصر
القصير.

وثارت الشقيقتان ، وانطلقتا إلى أبيهما تقصان عليه كيف ساعدت « بلانكفلور »
ذلك الفتى الذى سرق رداءها الريشى فوق الشاطئ ، وكيف خرجت على طاعة أبيها
وخائنه .

وكانت « بلانكفلور » تقف غير بعيد ، فسمعت وشاية أختيها ، وعرفت أنه لم يعد
أمامها من سبيل إلا الهرب فى سرعة مع الفتى الذى اختاره قلبها ، وانطلقت الفتاة إلى
دون لويس صائحة :

- أسرع الآن قبل أن ينزل بنا أبى عقابه ونقمته . . اذهب إلى الأسطبل ، وامتنط
الحصان الأبيض المربوط هناك ، وعندما تمرق به من الباب مد يدك لتلتقطنى فسأكون فى
انتظارك هناك .

وفى الأسطبل ، وجد دون لويس الحصان الأبيض هزيلا لا يكاد يقدر على العدو،
فأشفق عليه ، واختار جوادا آخر تبدو عليه معالم القوة ، وانطلق به إلى باب القصر.
فعندما رآته بلانكفلور صرخت قائلة :

- لماذا اخترت هذا الجواد الأسود أيها التعس؟ ألم أنصحك بأن تختار الحصان
الأبيض؟ إنه مسحور يجرى أسرع من الضوء . ومع هذا ليس أمامنا مفر الآن ، لأن

الوقت قد فات . . هيا بنا ، فلا تزال أمامنا بضع ساعات لكى نهرب . . . لقد تركت
أحد أرديتى المسحورة فى حجرتى ، وسيتولى الإجابة عنى إذا نادانى أبى .

وامتطت « بلانكفلور » الجواد وراء « دون لويس » ، وقد أمسكت فى يدها اليمنى
صندوقاً مملوءاً ذهباً وجواهر ، وباليـد الأخرى رداءها الريشى الأبيض .

وسمع الساحر صوت انطلاق الحصان ، ولم يتبادر إلى ذهنه قط أن ابنته فرت مع
الفتى . ولكى يقطع الشك باليقين ، ذهب إلى حجرة ابنته ونادى عليها ، فأجابته بأنها
موجودة ، فهذاً باله ، وعاد إلى مكانه .

إلا أن غيرة الشقيقتين أثارت شكهما فى الأمر ، فأخذتا تناديان على أختيهما بصوت
مرتفع . وكان الرداء يجيب عليهما فى كل مرة . . إلا أنه عجز عن فتح الباب عندما طلبتا
منه فتحه ، وتأكد لهما أن أختيهما غير موجودة . وذهبت إحداهما فأحضرت بعض
المفاتيح عاجلت بها الباب حتى انفتح . . فاندفعت الشقيقتان إلى الداخل فوجدتا
الحجرة خالية إلا من الرداء الذى كان يجيب .

وجن جنون الساحر ، وأسرع إلى الأسطبل ، حيث امتطى الفرس الأبيض ، وانطلق به
خلف العاشقين الهارين .

وانتهت « بلانكفلور » إلى صوت الجواد الأبيض من خلفها ، وأطلت فإذا عاصفة
من الغبار تظهر غير بعيد فصرخت فى خاطبها .

- أسرع يادون لويس . . إن أبى يكاد يلحق بنا .

ولكن الفتى الحصان بمهمازه . . إلا أن الساحر كان قد أصبح على بعد خطوات
منهما ، ومدت « بلانكفلور » يدها إلى شعرها ، فانتزعت مشطاً وألقته بسرعة وراءها
قائلة : كن جبلاً !

وصار المشط جبلاً عالياً يفصل بينهما وبين الساحر ، واستمر العاشقان فى
اندفاعهما . . ولكن الساحر كان قد اجتاز الجبل فى لحظات ، وأوشك أن يلحق بهما من
جديد .

والتفتت الفتاة إلى الخلف ، وألقت بمنديلها وهى تقول :

- كن ضباباً ، واسترنا عن أعين أبى !

وانشرت غمامة كبيرة من السحب فصلت بين الساحر والعاشقين ، ولكن الرياح

سرعان ما بددتها، وانكشف الهاربان للساحر الذى استشاط غضبا وثورة، فاندفع بالجواد فكان منهما على بعد خطوات . . .

وتعثر الجواد الأسود بالهاريين، ووقع على الأرض، ولم يجدا من الوقت ما بكفيهما لإنهاضه على قوائمه المرتعشة المنهوكة، فتمتمت الفتاة ببضع كلمات، فإذا الحصان قد تحول إلى شجرة جوز، وإذا بهما يتحولان إلى ثمرتين تتدليان إلى جوار باقى الثمر. . وممر الساحر بالشجرة فلم يعرفها، وفوجئ باختفاء ابنته وصاحبها، ومضى يذرع المكان، ويتطلع فى كل الأنحاء . . . إلى أن أدرك أنه فقد أثرهما تماما. ولما يئس من العثور على أى أثر لهما، كر عائداً أدراجه .

وتريث الفتى والفتاة حتى اطمأنا إلى ابتعاد الساحر تماما، فدخلوا فى كوخ قائم بجانب الطريق أخذوا قسطا من الراحة بعد هذا الجهد الشاق. . . وعندما استردا أنفاسهما قاما فاستأنفا رحلتهم الشاقة إلى قرطبة .

وانتبه الساحر العائد إلى وقع حوافر حصانه الأسود تظهر مرة ثانية، فاستدار فى سرعة إلى الطريق الذى أقبل منه، واندفع متتبعا صدى الصوت، وفى لحظات كان قد قطع المسافة الفاصلة بينهم، وأصبح منهما على بعد خطوات . . . وكان اقترابه منهما مفاجأة لم تتمكن الفتاة معها من استخدام سحرها . . فبكت . وإذا بدموعها تتحول إلى نهر أخذ يتسع ويتسع، ويرغى ويزبد، ففصل بينهما وبين الساحر، الذى ارتد إلى الخلف مذعورا مسرعا قبل أن يغرقه الطوفان!

وغضب الساحر عندما وجد ابنته تكاد تغرقه، فصرخ فيها :

- لقد أفلت منى يا لعينة . . إلا أن القوة التى منحتك إياها ستصبح منذ الآن خواء، وستعودين منذ هذه اللحظة امرأة عادية كغيرك من النساء . أما الرجل الذى فضلت على أبيك، فسوف ينساک فى أول عناق لأول شخص يلقاه!

وهتفت « بلانكفلور » فى خاطبها دون لويس :

- دون لويس . . دون لويس . . هل ستسنانى كما تنبأ أبى برغم أنى تبعتك بعد أن تخليت عن أبى، وشقيقتى، وسحرى، وقواى؟!!

وكان جواب الفتى قبلة طويلة ساخنة على شفيتها أغتها عن الكلام.

واستأنفا السير. . .

اقترب الحبيبان من قرطبة، وعجز الجواد عن مواصلة السير، فاضطر «دون لويس» أن يأخذ فتاته إلى حديقة زيتون صغيرة، وطلب منها أن تستريح ريثما يبحث عن

حصان آخر يستبدله بالحصان المنهك الذى عجز عن مواصلة السير إلى قرطبة .
وانطلق الفتى فى طريقه ، وخلفه الحصان الأسود ، حتى بلغ المدينة . ولم يكد يتجه
إلى فندق صغير يؤجر الخيل ، حتى فوجئ بعجوز تحتضنه وتعانقه ، وهى تهتف فى فرح :
- دون لويس . . دون لويس . .

وكانت العجوز هى مربيته القديمة ، وكان لابد أن يقبلها ويعانقها . . وفى تلك
اللحظة تحققت نبوءة الساحر ، ففقد « دون لويس » ذاكرته ، وانسدل عليها ستار كثيف
من النسيان ، فصل بين حاضره وماضيه ، وقطع كل صلة تربط بينهما . . فما عاد يذكر
شيئا على الإطلاق عن مخطوبته وحبيبته « بلانكفلور » !

* * *

واستقبلت المدينة من جديد « دون لويس » . . أكبر مقامر فى أسبانيا . وعاد هو إلى
حياته السابقة بعد أن ورث ثروة ضخمة تركها له عمه خلال غيبته ، وعاش كما كان
يعيش من قبل . . عيشة الشاب الثرى المغامر ، الغارق حتى أذنيه فى القمار المجنون !
وذات يوم . . دخل « دون لويس » اسطبل الخيول فى قصره الكبير ، واصطدمت
قدمه بصندوق صغير فى إحدى الزوايا ، وتأمل الصندوق طويلا ، فإذا برأسه يدور .
لقد تذكر أنه كان قد ألقى بهذا الصندوق الصغير فى زاوية الأسطبل يوم وصوله إلى
قرطبة ومعه حصانه المتعب المنهوك . . ولكن ، ماذا يضم الصندوق ؟! هذا ما لم
يستطع تذكره أبدا !

وانحنى دون لويس ، والتقط الصندوق . . وعندما فتحه ، ارتفع فى الجو نسيج
رائع من الريش الأبيض . . ريش خفيف ناعم مثل الحرير .
حاول أن يتذكر أين رأى هذا الريش ، فأصيب بدوار شديد ، وانتابته إغماءة ، لم يكد
ينهض منها حتى استعادت ذاكرته صورة « بلانكفلور » !
وكاد الأسى يقتله ، وانطلق يصرخ فى كل مكان ، ويصيح مرددا اسمها فى نشيج
مؤلم :

- بلانكفلور . . بلانكفلور . . أين أنت أيتها الحبيبة الغالية ؟ لتنصب على رأسى
لعنات هذا العالم كله . . كيف نسيك يا بلانكفلور ؟
وهرعت إليه مربيته العجوز ، ولكنها لم تستطع أن تفهم شيئا . . إنه يعدو هنا وهناك
ويصيح فى ثورة ، ويبدو هائجا كالمجنون !

وأقبل المساء ، وهدأ « دون لويس » قليلا . وستطاعت العجوز أن تستدرجه حتى فهمت كل شيء ، فهدأت من روعه قائلة :

- اهدأ يادون لويس ، فستجد فتاتك الحلوة الطيبة . . لا تغضب لأنك عانقت عجوزا مثلى ، فإن هذه العجوز هى التى سترد إليك فتاتك !
وسكت الفتى . . . واستطردت العجوز قائلة :

- أعطنى الآن ريالين لأشتري بهما شموعا للقديس أنطونيو، واذهب أنت إلى القصر القديم القابع فى طريق الملائكة ، واسأل هناك عن الأم ماريبوزا . . إنها امرأة من العجر سكنت ذلك المكان منذ بضعة شهور، وقدمت حتى الآن ستا وثلاثين معجزة للأهالى . . . فلعلها تفيدك ، ولعلها - بركة القديس أنطونيو - تقدم لك المعجزة السابعة والثلاثين !

وعاود الأمل دون لويس ، فانطلق إلى طريق الملائكة ، يسأل فى لهفة عن الأم ماريبوزا . وقادوه إلى حجرة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة لا يكاد يرى فيها شيئا عندما ولج بابها الصغير.

وفوجئ « دون لويس » بصوت يسأله :

- عم تبحث أيها الشاب ؟

فأجاب وهو يفرك عينيه محاولا أن يخترق حجب الظلمة :

- أبحث عن فتاة فقدتها .

قال الصوت : هل ترغب كثيرا فى رؤيتها ؟ !

أجاب « الدون » : إنى أهب حياتى كلها من أجلها .

قال الصوت : ولماذا إذن تخليت عنها ؟ !

فأجاب الدون : إن لعنات أبيها حلت علينا فأفقدتنى الذاكرة ، فنسيته !

وفوجئ « دون لويس » بالأم ماريبوزا تعانقه فى لهفة ووجد . . وكانت هى حبيبته « بلانكفلور » نفسها !

وحمل الفتى مخطوبته - ابنة مركزيز الشمس - طوال الطريق إلى قصره . أما هى فما شعرت بالأسف قط على حياتها القديمة . وأما رداؤها الريشى الأبيض ، فقد صار بعد ذلك غطاء لسرير أول أبنائها من دون لويس !

الفهرس

٥.....	حقيقة الخرافة فى الأساطير
١١.....	أسطورة إغريقية : أبوللو رب الشمس
٢١.....	أسطورة إغريقية : هرقل
٣٨.....	أسطورة إغريقية : اختطاف برسيفون
٤٥.....	أسطورة سويدية : نجمة من السماء
٥٤.....	أسطورة إنجليزية : الثوب الخفى
٦٢.....	أسطورة نرويجية : هروب الشيطان
٧٠.....	أسطورة روسية : ربة الشمس والساحرة
٧٨.....	أسطورة تشيكية : حفيد الشيطان
٩٥.....	أسطورة فرنسية الكيس السحرى
١٠٥.....	أسطورة من الدنمرك : الكنز
١١٢.....	أسطورة إيطالية : الطائرة الصّداح
١٢٥.....	من أساطير الهنود الحمر : دقات الطبول
١٣٩.....	من أساطير زنوج أمريكا : الإرث
١٤٦.....	أسطورة إسبانية : الساحر وابنته

رقم الإيداع ٩٨ / ٧٢١٠
التقديم الدولي 5 - 0463 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة ٨ شارع سيبريه المصري - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)



أساطير من الغرب

رافقت الأسطورة الإنسان منذ نشأته وما تزال ترافقه. وما من أمة - ارتفع شأنها أو هان - إلا ولها أساطيرها التي تمثل جزءاً ضخماً من التراث القومي الذي يلقاه الناس جيلاً بعد جيل، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانباً حيويًا في تكوينهم وحيواتهم.

والواقع أن الرغبة الفضولية في معرفة أمور الحياة جعلت الإنسان في الماضي متعطشاً دائماً إلى المعرفة، وإلى تنشيط إدراكه العقلي. فعندما كان ذهن الإنسان - في المرحلة الأسطورية - يعجز عن تغيير أية ظاهرة، ولا يجد لها سبباً مقنعاً، كان يخترع أية قصة لكي يبررها ويفسرها.

وكما يقول الدكتور لانج: «لقد كان الناس في العصور القديمة يؤلفون قصصهم تبعاً لنظرتهم الخاصة للأشياء، وبأسلوبهم في تفسير الأمور. وهذا وضع طبيعي، لأنهم لم يكوّنوا يفكرون على أساس المبادئ التي يضعها الباحثون في العصر الحديث أمامهم وعند تفسيرهم لهذه الأمور».

وكل ذلك يعطى القارئ حقيقة واضحة من خلال «أساطير من الغرب» عن تصورات الإنسان لمختلف القيم منذ عصوره القديمة، وهي تصورات تطورت مع تطور الحياة وتقدم العلوم. لتصل إلى ما وصل إليه الإنسان في عصوره الحديثة من تقدم في كل نواحي الحياة.

دار الشروق

القاهرة: شارع سينبوية المعصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
 ص ب ٣٣، الجيزة - تلفون: ٢٣٣٩٩١ - ٤ - فاكس: ٢٣٧٥٦٧
 بيروت: ص ب ٨٠٦٤، هاتف: ٣٤٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥